جـامعـــة النجاح الوطنية

كليـــة الدراســـات العليـــا

تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

سليمان أحمد سالم أبو هاني

إشراف

د. محمد راغب الجيطان

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في أصول الدين (عام)، من كلية الدراسات العليا، في جامعة النجاح الوطنية، نابلس– فلسطين.

2026

تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

سليمان أحمد سالم أبو هاني

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ 2026/1/29 م، وأجيزت:

د. محمد راغب الجيطان	
المشرف الرئيسي	التوقيع
د. موسى البسيط	
الممتحن الخارجي	التوقيع
د. حذيفه بدير	
الممتحن الداخلي	التوقيع

الإهداء

إلى من كان أول معلمي، وأصل ثباتي،

إلى والدي الحبيب، الذي غرس في قلبي معالم التزكية والأخلاق الحميدة، واكسبني حب العلم والعمل، ووهبني من حكمته ما أعين به دربي.

وإلى والدتي الغالية، منبع الحنان، وسند الدعاء، وجمرة الصبر التي لا تنطفئ... جزاكِ الله عني كل خير.

وإلى زوجتي العزيزة، رفيقة الدرب، وسكن الروح، التي صبرت وساندت وآمنت بي حين أثقلتني الخطى.

وإلى أولادي الأحبّة، زهرات عمري، الذين أرجو من الله أن يجعلهم قرة عين، ونبتًا صالحًا في الأرض.

وإلى إخوتي وأخواتي الأعزاء، شركاء العمر وأوفياء القلب، دعمكم كان لي طوق نجاة.

أهديكم هذا الجهد المتواضع، عرفانًا ومحبة، ووفاء لا ينقطع.

الباحث

الشكر

أحمَدُ اللهَ سُبحانَهُ وتعالى على عظيم فضله، وأُصلّي وأُسلِّمُ على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبعد:

أتوجَّه بالشكرِ الجزيلِ، وبالثناءِ الوفيرِ، للدكتور الفاضل محمد راغب الجيطان على توجيهاته لي في هذه الدراسة، ابتداءً من اختيار الموضوع حتى إتمام الدراسة، وعلى سعة صبره أثناء إشرافه الجليل، وعلى إرشاده أثناء رحلتي في فضاء التزكية الرفيع، فجزاه اللهُ عني وعن طلبة العلم خير الجزاء، وزاده اللهُ عِلمًا وعافيةً.

كما أتقدَّم بالشكرِ الجزيلِ إلى أعضاء لجنةِ المناقشة لتفضلهما بقبولِ مناقشةِ هذه الرسالة، فبارك اللهُ لهما، وجزاهما خير الجزاء.

وأسألُ اللهَ العليَّ العظيمَ أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل رسالتي هذه صلاحاً لقلبي وعِلمًا يُنتفَعُ به، وأن يوفِّقنا لخدمةِ كتابه وسنةِ نبيه، في الدنيا والآخرة، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الإقرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل عنوان:

تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة هي نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة اليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل أية درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أية مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

اسم الطالب: **سليمان أحمد سالم أبو هاني**

التوقيع: سليمان أحمد سالم أبو هاني

التاريخ: **29/1/2025**

فهرس المحتويات

الإهداء ..... ج

الشكر ..... د

الإقرار ..... هـ

فهرس المحتويات ..... و

فهرس الجداول ..... ط

الملخص ..... ي

مقدمة 1

أهمية الدراسة: 2

مشكلة الدراسة: 2

أهداف الدراسة: 2

منهج الدراسة: 3

الدراسات السابقة: 3

حدود الدراسة: 5

الفصل الأول: مدخل إلى مفاهيم الدراسة 6

المبحث الأول: مفهوم النّفس وأنواعها في القرآن الكريم 6

المطلب الأول: تعريف النّفس في اللغة والاصطلاح. 6

المطلب الثاني: أنواع النّفس البشرية في القرآن الكريم. 14

المبحث الثاني: مفهوم التزكية وورودها في السياق القرآني والألفاظ ذات الصلة بها عند العلماء 21

المطلب الأول: معنى التزكية في اللغة والاصطلاح. 21

المطلب الثاني: ورود لفظ التزكية، بالمعنى المختار، في القرآن الكريم: 23

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة بالتزكية عند العلماء: 24
المبحث الثالث: التعريف بالشيخ القرضاوي وتجربته مع الصوفية. 34
المطلب الأول: تعريف بالشيخ القرضاوي: 34
المطلب الثاني: تجربة الشيخ القرضاوي مع الصوفية: 36
الفصل الثاني: أسس تزكية النّفس وخصائصها عند الشيخ القرضاوي..... 39
المبحث الأول: أسس تزكية النّفس عند الشيخ القرضاوي..... 39
المطلب الأول: العلم، الأساس الأول من أسس تزكية النّفس عند القرضاوي. 40
المطلب الثاني: النية والإخلاص: 56
المبحث الثاني: خصائص تزكية النفس. 81
المطلب الأول: الشمول خصيصة لتزكية النّفس عند القرضاوي. 81
المطلب الثالث: اليسر والسعة من خصائص تزكية النّفس عند القرضاوي..... 85
المطلب الرابع: التوازن والاعتدال من خصائص تزكية النفس عند القرضاوي..... 87
المطلب الخامس: التنوع من خصائص تزكية النفس عند القرضاوي 91
الفصل الثالث: وسائل تزكية النّفس ومجالاتها عند الشيخ القرضاويّ..... 95
المبحث الأول: وسائل تزكية النّفس عند الشيخ القرضاويّ..... 95
المطلب الأول: المراقبة. 95
المطلب الثاني: المحاسبة. 101
المطلب الرابع: الشكر، من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي. 115
المطلب الخامس: الخوف والرجاء. 118
المبحث الثاني: مجالات تزكية النّفس عند الشيخ القرضاويّ..... 126
المطلب الأول: التزكية (الأخلاق) الفردية..... 127

المطلب الثاني: التزكية الجماعية..... 136
الخاتمة وفيها أهمّ النتائج والتوصيات 173
أولا: أهم النتائج:..... 173
ثانياً: أهم التوصيات: 175
المراجع العلمية..... 176
Abstract..... B

فهرس الجداول

جدول 1: التنوع اللفظي في سبر أغوار النفس الإنسانية.....12

جدول 2: لفظ التزكية، بالمعنى المختار، في القرآن الكريم.....23

تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية

إعداد

سليمان أحمد سالم أبو هاني

إشراف

د. محمد راغب الجيطان

الملخص

هدفت الدراسة إلى الوقوف على معالم التزكية عند القرضاوي وهي بيان حقيقة التزكية وأسسها وخصائصها، مع بيان كيفية تفعيل معاني التزكية في المجتمع المسلم على مستوى الفرد والجماعة والدولة، وفق المنهج الاستقرائي التحليلي.

وقد جاءت الدراسة على ثلاثة فصول، الأول تم فيه بيان مفاهيم الدراسة، والثاني تم فيه الوقوف على أسس تزكية النفس وخصائصها عند القرضاوي، أما الفصل الثالث فقد بسط وسائل تزكية النفس ومجالاتها عند الشيخ القرضاوي.

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة: أن التزكية ليست بُعدًا روحيًا منفصلًا عن الواقع، بل هي بناء متكامل للإنسان جسدًا وروحًا وعقلًا، وأن العبادات القلبية كالإحسان والمراقبة والمحاسبة، وهي أركان وأسس أصيلة لنقاء المركبات المجتمعية الأوسع كالمجتمع، والدولة، والأمة، والعالم. التي يتم تفعيل التزكية فيها عبر آليات تطبيقية متوازنة لإقامة العدل الاجتماعي، ممّا ينتج مجتمعاً تسوده الأخلاق، ويقود الأمة إلى تحقيق دورها الريادي بكونها الأمة الوسط، وإرساء أسس السلام العالمي عبر رسالة الاستخلاف في الأرض، وبهذا يكون القرضاوي قد قدّم مشروعًا متوازنًا وشاملاً في تزكية النفس، قائمًا على القرآن والسنة، وممتدًا نحو الإصلاح المجتمعي والريادة العالمية.

الكلمات المفتاحية: تزكية النفس، القرضاوي، الإصلاح المجتمعي، الأخلاق.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله القائل في محكم التنزيل:ٌ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ [الأعلى:14]. والصلاة والسلام على إمام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد، إنّ القارئ لكتاب الله تعالى المدقق في مقاصده العامة، يجد أنّ من مقاصده العامة تزكية النفس وتوجيهها توجيهاً تزكوياً في شتى مجالات الحياة، سواءً على مستوى الفرد أو الجماعة أو حتى الدولة والحضارة، ولِمَا للتزكية من دور في صياغة أركان الإنسان من العقل والقلب والنفس صياغة تكاملية وفق كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد تعددت الدراسات حول موضوع التزكية حتى غدت مكتبة ضخمة، ومؤسسات عامة تحمل لواء البعد التزكوي في الشريعة الإسلامية، وقد برز في ذلك علماء أجلاء في القديم والحديث، ومنهم ابن القيم وابن تيمية وغيرهما، وفي الوقت المعاصر برز الشيخ القرضاوي بموقفه الوسطي في البعد التزكوي للنفس البشرية، في الوقت الذي تنتشر فيه النظرة الضيقة تجاه تزكية النفس كردة فعل للمادية المعاصرة التي يعيشها العالم.

لذا جاءت هذه الدراسة لتجلية تصور الشيخ القرضاوي حول تزكية النفس؛ أسسها وخصائصها ومجالاتها وكيف فعّلها القرضاوي في الواقع المعاصر على مستوى الفرد والجماعة والدولة، كل ذلك من خلال ما خط بنانُه وصدر من عطائه والذي جُمع في الأعمال الكاملة له.

وقد جَعَلَت أقوالُ الشيخ القرضاوي ومواقفُه ترسم لنا معالم نظرية تزكية النفس في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتي كونت لنا ملامح عامة تم تسجيلها في ثنايا هذه الدراسة، إضافة إلى الاستفادة ممّا كتبه العلماء السابقون ممن تميّز بتصوره العميق حول التزكية، كالشاطبي وابن القيم وابن تيمية وغيرهم من الدراسات المعاصرة، لذا قد سُميت هذه الدراسة بـ: تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية.

أهمية الدراسة:

أ. لأنّ موضوع التزكية الذي تتجاذبه أفكار كثيرة بين إفراط وتفريط، كان لا بد من تسليط الضوء على دراسة معاصرة مزجت بين الأصالة والمعاصرة، وقد عُدّ الشيخ القرضاوي من العلماء المعاصرين الذين امتازوا بتلك النظرة التي تمتاز بالوسطية سيما في موضوع تزكية النفس وفق الكتاب والسنة.

ب. من خلال تتبع تراث الشيخ القرضاوي وجدناه يملك نظرية متكاملة حول التزكية، لذا كان الوقوف على معالمها وأسسها نموذجاً جمع بين الأصالة والمعاصرة.

ج. يعد الشيخ القرضاوي من العلماء المعاصرين القلة ممن نظروا في غالب كتب التراث، سيما في كتب التزكية، وعملوا على إعادة صياغتها بما يتناسب والعصر الذي نعيش بما فيه من مادية تناطح الروحانية.

مشكلة الدراسة:

تمثلت مشكلة الدراسة بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

1. ما حقيقة تزكية النفس عند الشيخ القرضاوي من خلال مؤلفاته وعطائه؟
2. ما أسس التزكية وخصائصها عند الشيخ القرضاوي من خلال مؤلفاته وعطائه؟
3. كيف فعّل الشيخ القرضاوي معاني التزكية في المجتمع المسلم على مستوى الفرد والمجتمع والدولة؟

أهداف الدراسة:

جاءت الدراسة لتحقيق الأهداف الآتية:

1. بيان حقيقة التزكية عند الشيخ القرضاوي من خلال مؤلفاته وعطائه.
2. تتبع أسس التزكية وخصائصها عند القرضاوي من خلال مؤلفاته وعطائه
3. إبراز كيفية تفعيل الشيخ القرضاوي لمعاني التزكية في المجتمع المسلم على مستوى الفرد والمجتمع.

منهج الدراسة:

تقوم الدراسة على المنهجين الآتيين:

المنهج الاستقرائي: وذلك بتتبّع المباحث التي هي موضوع الدراسة من خلال مصنفات الشيخ القرضاوي والمراجع ذات الصلة، سواءً التي اعتمد عليها الشيخ القرضاوي أو التي صُنفت بعده.

المنهج التحليلي: وذلك بتحليل أقوال الشيخ القرضاوي حول موضوع التزكية، وتقسيمها تقسيماً موضوعياً، إضافة إلى إعادة تنظيم الأقوال وفق أسس علمية محددة.

الدراسات السابقة:

الدراسة الأولى: "**الأسس العقدية والعلمية في تزكية النفس**"، للباحثة منى ثابت[1]. وهدفت إلى بيان الأسس العقدية والعلمية للتزكية التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية من خلال المنهج الاستقرائي للآيات ومن ثم تحليلها حسب التقسيمات التي أوردها الباحث.

وهذه الدراسة تشبه دراستنا في أحد فصولها التي تتضمن أسس التزكية الإنسانية التي تقوم عليها، إذ إنّ كلا الدراستين تطرقتا إلى هذا المبحث، إلا أنّ دراستنا ترمي إلى بيان منهج الشيخ القرضاوي في تزكية النفس ونظرته المتكاملة للتزكية وكيفية تفعيلها في المجتمع المسلم.

الدراسة الثانية: "**تزكية النفس من خلال نصوص القرآن والسنة**"، للباحث محمد حنان فضل المولى[2]. وهدفت إلى جمع مواضع ورود أسس التزكية ووسائلها في القرآن والسنة.

[1] سمر، منى مصلح ثابت (2023م)، **الأسس العقدية والعملية في تزكية النفس**، بحث منشور، كلية التربية، جامعة الحديدة.

[2] محمد، حنان محمد فضل المولى(2019م) **تزكية النفس من خلال نصوص القرآن والسنة**، بحث منشور، مجلة معالم الدعوة الاسلامية.

والجديد في دراستنا أنّها لم تقتصر على تحديد مواضع وموضوعات ورود أسس التزكية، بل تعدت إلى تحليل الأسس والتي هي بالضرورة أسس تزكية النفس، من خلال النظرة الكاملة للشيخ القرضاوي في موضوع التزكية، إلى جانب مباحث أخرى في تطبيق معاني التزكية وتفعيلها في المجتمع المسلم.

الدراسة الثالثة: "**أسس تزكية النفس الإنسانية**"، للباحثة كريمة مجادبة[1]. وتهدف الدراسة إلى إبراز تزكية النفس المستفادة من القرآن والسنة وما كان عليه سلف الأمة.

وهذه الدراسة تشبه دراستنا في أساسها الذي تقوم عليه، إذ كلاهما تحدث عن تزكية النفس في ضوء القرآن والسنة لكن دراستنا ذهبت إلى تفعيل معاني التزكية بعد ذكرها في داخل المجتمع المسلم من خلال نظرة الشيخ القرضاوي للتزكية.

الدراسة الرابعة: "**تزكية النفس في نظرية المنهاج النبوي:** للباحث حماد الجيلاني[2]. وهدفت إلى عرض موضوع تزكية النفس من خلال نصوص القرآن والسنة النبوية.

الدراسة الخامسة: "**تزكية النفس في القرآن الكريم**" للباحث بدر الدين ناجي[3]. وهدفت إلى بيان المنهج القرآني في التزكية، وعرض الأساليب القرآنية في الحث على تزكية النفس، مع ذكر النماذج القرآنية.

وتتشابه هاتين الدراستين مع دراستنا فقط بكونهما تعرّضتا للنصوص القرآنية والنبوية التي تتحدث عن التزكية، بخلاف دراستنا التي شملت ذلك إضافة إلى كونها هدفت إلى تسليط الضوء على نظرية التزكية عند الشيخ القرضاوي.

الدراسة السادسة: "**مقصد تزكية النفس الإنسانية في الشريعة الإسلامية**"، للباحث محمد القياتي[4]. وقد هدفت إلى بيان العلاقة بين تزكية النفس ومقاصد الشريعة، إضافة إلى بيان الوسائل العملية والمعنوية

---

[1] مجادبة، كريمة (2018م) **أسس تزكية النفس الانسانية**، بحث منشور، مجلة البحث العلمي الاسلامي.

[2] حماد، السر الجيلاني الامين (2017) **تزكية النفس في نظرية المنهاج النبوي**، بحث منشور، مجلة المنبر.

[3] ناجي، بدر الدين عبده (2014) **تزكية النفس في القرآن الكريم**، دراسة موضوعية رسالة دكتوراه، كلية أصول الدين، جامعة أم درمان.

[4] محمد، محمد احمد القياتي (2013) **مقصد تزكية النفس الإنسانية في الشريعة الاسلامية**، جامعة ام درمان بحث منشور، الجامعة الاسمرية الإسلامية.

لتحقيقه. وهي تجتمع مع بحثنا في الغايات العامة لكنها لا تتطرق في الدلائل من خلال نظرة عالم معين إلى موضوع التزكية، بل من خلال استقراء آيات القران الكريم بشكل فردي.

الدراسة السابعة: "ألفاظ أحوال النفس وصفاتها في القرآن الكريم" للباحث زين ياسين. تناول البحث دراسة النفس الإنسانية وأحوالها دراسة دلالة، وفق المنهجين التاريخي والوصفي في استقراء ألفاظ النفس والروح في القرآن الكريم، وتلتقي مع هذه الدراسة في جانب من مطلب أحوال النفس لكنها لا تتفق من حيث المقصد الرئيسي لدراسة الباحث حول التزكية وطرق تفعيلها.

الدراسة الثامنة: "النفس والروح في القرآن الكريم": مجلة جامعة بابل للدراسات الإنسانية. تناولت الدراسة دلالات المفهومين وعلاقتهما بالوجود الإنساني، مبيّنةً حالات النفس (الأمارة، اللوامة، المطمئنة) وعلاقتها بالأخلاق، والفرق بين النفس والروح.

الدراسة التاسعة: "أحوال النفس الإنسانية في القرآن الكريم وكيفية التعامل معها"، للباحث حسام شوشه. هَدَفَ هذا البحث إلى الكشف عن معنى النفس الإنسانية وأحوالها في القرآن الكريم، كما يبرز منهج القرآن في وقاية النفس الإنسانية من أوهاقها، والأمراض التي قد تصيبها.

وكلا الدراستين الثامنة والتاسعة تتعرضان مفهوم النفس بالمقارنة مع مفاهيم أخرى والى أحوال النفس، لكن يغيب عن الدراستين التعرض لمفهوم التزكية بشكل منهجي فضلا عن تفعيل مبدأ التزكية.

حدود الدراسة:

جاءت حدود الدراسة فيما خطّه الشيخ القرضاوي من كتبٍ خاصة فيما يتعلق بموضوع تزكية النفس ومتعلقاتها، وقد جُمعت أخيراً مرتبة منظمة في الأعمال الكاملة للشيخ القرضاوي في المحور الثالث؛ فقه السلوك.

الفصل الأول

مدخل إلى مفاهيم الدراسة.

المبحث الأول: مفهوم النّفس وأنواعها في القرآن الكريم.

يهدف هذا المبحث إلى إلقاء الضوء على ماهية النّفس البشرية وأنواعها، فهي جوهر الإنسان ومصدر تصرفاته التي سيسأل عنها بين يدي الله عز وجل، وهذا ضروري لبيان خارطة الطريق في كيفية إخضاع النّفس البشرية وتهذيبها في ضوء القرآن الكريم، وبيان فهم القرضاوي لمجمل هذا الإيراد القرآني الشامل، وفي إطار القدرات البشرية لتصور النّفس ومكنوناتها وأسرارها.

تعريف النفس:

المطلب الأول: تعريف النّفس في اللغة والاصطلاح.

إنّ أول ما يجدر البدء به في دراسة مفهوم النفس، هو ذكر تعريفها في اللغة، وما يمكنّنا من فهم التعريف الاصطلاحي، وتصويب هذه المعاني نحو ما يتوافق مع هدف هذه الدراسة.

أولاً: النّفس في اللغة:

قال ابن فارس: "النَّفْس: النُّونُ وَالْفَاءُ وَالسِّينُ، أَصْلٌ وَاحِدٌ يدلّ عَلَى خُرُوجِ النَّسِيمِ كَيْفَ كَانَ مِنْ رِيحٍ وَغَيْرِهَا. وَذَلِكَ أَنَّ فِي خُرُوجِ النَّسِيمِ رُوحًا وَرَاحَةً. وَيُقَالُ لِلْعَيْنِ نَفْسٌ، وَأَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ. وَالنَّفْسُ: الدَّمُ، وَهُوَ صَحِيحٌ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا فُقِدَ الدَّمُ مِنْ بَدَنِ الإنسان فَقَدَ نَفْسَهُ"[1].

1 ابن فارس، أحمد بن زكرياء، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1979م. ج5، ص460.

وذهب ابن منظور إلى أنّ النَّفْس هي الرُّوحُ، ونقل عن ابْنُ خَالَوَيْهِ أنها مَا يَكُونُ بِهِ التَّمْيِيزُ، ونقل عن ابْنُ الأَعرابي أنّ النّفس هي العَظَمَةُ والكِبر العِزَّة والهِمَّة والْعَيْنُ الَّتِي تُصِيبُ المَعِين[1].

ثانياً: معنى النّفس والروح في الاصطلاح:

بعد التتبع وُجد أنّ معنى النّفس في الاصطلاح عند علماء المسلمين ورد وفق اعتبارات عدة، منها:

1. الروح: ذهب إلى القول بذلك ابن الجوزي، بأَنَّهَا جَوْهَر روحاني؛ لطيفا لَا يرد شُعَاع الْأَبْصَار، لأنّه مَخْلُوق من النُّور[2]. ويؤيد قوله قول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: 85] وبعد التتبع وجد أنّ النّفس والروح مترادفان، يشيران إلى المعنى ذاته، ويستدلون على هذا بتبادل اللفظين مع ثبات المعنى ذاته في نصوص القرآن والسنة، لكنّ منهم من ذهب إلى تغاير التسمية بعد الموت، وفي هذا يقول الإمام صدر الدين الحنفي أنّ النفس على الأغلب تطلق على الروح إذا كانت متصلة بالبدن، وقد تجرد منه[3].

2. النّفس بمعنى القوى المفكرة في الإنسان (العقل والقلب): ذهب الشنقيطي إلى القول بذلك، حيث بيّن أنّ النفس هي الْقُوَى الْمُفَكِّرَةِ التي تدرك مَنَاطَ الرَّغْبَةِ وَالِاخْتِيَارِ، وهي متساوية في خلقتها وتركيب أعضائها[4].

ويؤيد ذلك قوله تعالى في معرض ذكر جحود الكفار لآيات الله، رغم علمهم الراسخ الموصوف باليقين التام بصدق هذه الآيات: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

[1] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ)، **لسان العرب**، حواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط 3، دار صادر – بيروت، 1414 هـ، ج 6، ص 240.

[2] انظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ)، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط 1، مؤسسة الرسالة – لبنان/ بيروت، 1404هـ – 1984م، ص 495.

[3] انظر: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي (ت 792 هـ)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، ط 10، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1417 هـ – 1997 م، ج 2، ص 567.

[4] محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، لبنان، 1415 هـ – 1995 م، ج 8، ص 539.

ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤﴾ [النمل:14]. وقد فسر ابن عاشور: أنفسهم، على أنّها عقولهم، فقال: "أي تحققتها عقولهم"[1].

3. النّفس بمعنى القلب: ذهب مقاتل إلى أنّ النّفس تأتي بمعنى القلب، ويؤيد ذلك قوله تعالى:ۥ ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:53]. أي: "وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي؛ يعني قلبي من الهم؛ لقد هممت بها، إِنَّ النّفس؛ يعني القلب؛ الَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ للجسد"[2].

4. النّفس بمعنى الإنسان كله روحاً وجسداً: ذهب ابن الجوزي إلى أنّ النّفس بمعنى الإنسان كله روحاً وجسداً، حيث قال: "ومن قال: الروح عرض؟ فقد جحد البعث؛ لأن العرض لا يبقى، والأجساد تصير ترابًا؛ فإن وجد شيء، فهو ابتداء خلق. كلا والله، بل يعيد النّفس بعينها روحًا وجسدًا، بدليل إعادة مذكوراتها:ۥ ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾ [الصافات:51]. "[3].

والحق أنّ من ذهب إلى تفسير النّفس بالقلب، كان مقصده بذلك، القوة المفكرة–أي العقل، استناداً إلى قول الله:ۥ ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:179].. وفسّر الطبري: "لا يفقهون بها"، أي: "لا يتفكرون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلته على ووحدانيته"[4].

وفي ضوء ما سبق نجد أنّ معاني النّفس إذا أطلقت على الإنسان فإمّا أن يقصد بها الروح، أو القوى المفكرة، او القلب، أو يقصد بها ذات الإنسان بما تحويه من عقل وقلب ونفس، وجوارح، وروح، وجسد.

---

[1] محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1393ه)، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر – تونس، 1984 ه، ج 19، ص 232.

[2] أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت 150ه)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط 1، دار إحياء التراث – بيروت، 1423 ه، ج 2، ص 340.

[3] جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597ه)، **صيد الخاطر**، بعناية: حسن المساحي سويدان، ط 1، دار القلم – دمشق، 1425ه – 2004م، ص 378.

[4] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310ه)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار التربية والتراث – مكة المكرمة، (د. ت.)، ج 13، ص 278.

وخلاصة المعنى الاصطلاحي للنفس: أنّ الروح جوهرٌ نورانيٌّ حيٌّ متحرّكٌ من العالم العلوي، مباينٌ في طبيعته للجسد المحسوس، يتغلغل فيه تغلغلَ النار في الحطب. وهي لا تقبل التبدّل ولا التفرّق ولا التمزّق، وتمنح البدن الحياةَ ولوازمها ما دام صالحًا لقبول الإمداد وخاليًا من الموانع؛ فإذا اختلّت قابليته أو وُجد ما يمنع هذا السريان وقع الموت.

ثالثاً: معنى النّفس عند القرضاوي:

يرى القرضاوي أنّ النّفس متعددة المعاني، وذلك حسب السياق الذي وردت فيه، وقد تتبعها ووجد أنّها تحتمل المعاني الآتية[1]:

المعنى الأول: الكيان الإنساني: حينما يقول الله تعالى:ٌ ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٨٦﴾ [البقرة:286]. "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها"، أي لا يكلف الله شخصاً إنساناً إلا ما في وسعه، أو حين يقول تعالى:ٌ ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ١١١﴾ [النحل:111]. "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها"، و"توفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون"، هنا المراد بالنفس الإنسان من حيث هو، أي الإنسان بكامل أعضائه وما يحمل من مجمل الصفات والميزات البشرية التي فطره الله عليها.

المعنى الثاني: الروح الحيوانية: التي بها يحيى الإنسان ويموت، قال تعالى: "وتزهق أنفسهم"، أي تزهق أرواحهم.

[1] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. (29/3/2009) https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

المعنى الثالث: مركز المشاعر والأحاسيس والإرادة والوجدان: وهذا أشبه بما يسمى في عصرنا "الضمير" الذي يتغير من هيئة إلى أخرى، فأحياناً يكون حياً، وأحياناً يكون ميتاً، وأحياناً يكون ضميراً سليماً وأحياناً يكون ضميراً سقيماً وأحياناً يكون قوياً وأحياناً يضعف أمام المغريات[1].

ويرى القرضاوي أنّ الله سبحانه وتعالى ركب النّفس البشرية تركيباً معقداً، بخلاف الملائكة التي هي مخلوقات روحانية صرفة، وكذلك البهائم ذات غريزة صرفة، أما النّفس البشرية ففيها شائبة من الملاك، وشائبة من الحيوان، وشائبة من الشيطان، فأحياناً تهبط هذه النّفس حتى تصبح كالحيوان، وأحياناً ترقى حتى تصير كالملاك، وأحياناً تأخذ من الشياطين حظاً.

والنّفس ليست مجرد الروح، بل هي قوة الحياة والشعور والإرادة المتعلقة بالجسد؛ لذلك فالتركيبة الإنسانية قابلة للخير والشر، واستعدادها للشر أكثر، كما قال تعالى:ٌ ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾[الشمس:7-10]. فقدم الله الفجور على التقوى ما يدل على أنّ قابليتها إليه أكبر، على استعدادها للأمرين.

ومن هنا يمكن استقراء مفهوم النّفس عند الشيخ يوسف القرضاوي رحمه الله، على أنّها "تكامل الجوانب الروحية والمادية في الإنسان أي ذات الإنسان. الذي هو وحدة متكاملة من جسد وروح، وهي الإنسان، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بشكل كامل"[2].

مسألة: ورود النّفس ومرادفاتها في القرآن الكريم:

[1] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة.29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

[2] محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

تعددت دلالات لفظ **النفس** في القرآن الكريم وسياقاتها، فجاءت تارةً بمعنى الذات البشرية والروح، وتارةً أخرى لوصف أحوالها الشعورية والانفعالية بين الطمأنينة واللوامة والأمارة بالسوء.

وهذا التنوع اللفظي يعكس دقة البيان الإلهي في سبر أغوار النفس الإنسانية، حيث يُستخدم اللفظ الواحد في مواضع مختلفة ليشير إلى كينونة الإنسان أو خصائصه الأخلاقية والروحي، وذلك وفق السياق القرآني على النحو الآتي:

جدول 1

التنوع اللفظي في سبر أغوار النفس الإنسانية

معنى النّفس في القرآن الكريم	مثال لآية قرآنية	قول عالم يؤكد المعنى
الروح: الجوهر اللطيف الذي به حياة البدن وإدراكه وحركته.	﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:85].	"هي جسم لطيف أشبه بذات الإنسان طولاً وعرضاً، وأشبه بصفات الإنسان المرئية. ولكن هذا كلام قالوه والقرآن يخالفه، فقد سئل صلى الله عليه وسلم عن الروح كما يقول ربنا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:85]." [1].
الذات الإنسانية :الكيان الفردي المستقل، بما يشمل الروح والعقل والجسد.	﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر:38].	ذكر **الطبري** في جامع البيان أنّ الإنسان مرتهن بما عمل من خير أو شر عند الله[2].
العقل: قوة الإدراك والتفكير والتمييز.	﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل:12].	قال السيوطي: "وقد ثبت أن النبي "صلى الله عليه وسلم" قال "والله لولا الله ما اهتدينا، ولا تصدقنا، ولا صلينا". فهذه الدلائل دلت أنّ الله تعالى هو المعرف. إلا أنه إنما يعرف العبد نفسه مع وجود العقل، لأنّه سبب الإدراك والتمييز، لا مع عدمه، لأنّ الله تعالى قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾"[3].
القلب: موطن المشاعر والعواطف والإرادة.	﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق:37].	"من كان قلبه حاضراً مستقبلاً ما جاءه من الوحي بحسن الاستماع والتوجه إلى الله شاكرا لأنعمه[4].
النفس المطمئنة: النّفس المؤمنة المستقرة الراضية بقضاء الله.	﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر:27-28].	"(المطمئنة) بالإيمان، المؤمنة، الموقنة، المصدقة بما وعد الله، والطمأنينة: حقيقة الإيمان"[5].
النفس اللوامة: النّفس التي تلوم صاحبها على فعل الشر أو التقصير في الخير.	﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة:2].	"معنى النفس اللوامة النّفس التي تلوم صاحبها على تقصيره أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها في الدنيا أو في القيامة"[6].
النفس الأمّارة بالسوء: النّفس التي تميل إلى الشهوات والمعاصي وتأمر بها.	﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف:53].	عدّ الجنيد النفس الأمارة بالسوء بأنّها الداعية إلى المهالك المتبعة للهوى الموصوفة بصنوف الشرور والرذائل[7]

[1] محمد المنتصر بالله الكتاني، **تفسير القرآن الكريم**، دروس صوتية مفرغة، موقع الشبكة الإسلامية، متاح على الرابط(https://www.islamweb.net) :.

[2] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج29، ص177.

[3] جلال الدين السيوطي، **صون المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام**، تحقيق: علي سامي النشار وسعاد علي عبد الرازق، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، ص 233.

[4] انظر: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، **إحياء علوم الدين**، جـ1، ص 50.

[5] أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: عادل عبد الموجود وآخرون، (ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ – 1994م)، جـ 4، ص 486.

[6] أبو الطيب محمد صديق خان القنوجي، **فتحُ البيان في مقاصد القرآن**، مراجعة وتدقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1412 هـ – 1992 م)، جـ 14، ص 434.

[7] انظر: عبد الكريم بن هوازن القشيري، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف)، جـ 1، ص 283

مسألة: تحليل القائمة وربطها بموضوع النّفس في القرآن الكريم:

لم نجد للنّفس معنىً واحداً ومحدداً في القرآن الكريم، بل هي معانٍ متعددة وردت في سياقات قرآنية مختلفة ممّا يدلّ على أنّ النّفس في مراد الله عز وجل لها جوانب متعددة، وصور مختلفة، فهي تارة جهاز وعي وإدراك، وتارة جهاز موكل بالتفكير والتدبر، وفي أخرى جهاز مستقل شامل يضم مركز التحكم العاطفي، ويمر بأحوال معينة على النحو الآتي:

أ. النفس مصدر للحياة: فالآيات التي تفيد معنى الروح تؤكد أنّ النّفس مصدر للحياة والوعي والغموض؛ وذلك لأنّ الروح لم يرد في معناها حدود واضحة المعالم، لقوله تعالى:ٌ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء:85].

ب. النّفس كذات مستقلة: تشير النصوص إلى أنّ النّفس هي مجمل الذات الإنسانية بكل ما فيها من مصادر تحكم عقلية وعاطفية وحركية، وتؤكد معنى المسؤولية الفردية عن الأفعال في الدنيا، وهذا طبيعي؛ لأنّ كل أعضاء الإنسان الحسية والمعنوية معرضة للحساب يوم القيامة. ويؤكد ذلك قوله تعالى:ٌ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37].

ج. النّفس بين أحوالها الثلاث: أحوال النّفس التي تمر بها في صراعاتها الدنيوية من: مطمئنة، ولوامة، وأمّارة بالسوء، تبرز العرض القرآني للصراع النفسي للإنسان بين الخير والشر، ومنه يمكن فهم طبيعة النّفس البشرية ومراحل نموها الأخلاقي وسبل التعافي وثمراته من آفات النفس.

ويرى الشيخ القرضاوي أنّ المقصود بالنفس في القرآن الكريم هي ذات الإنسان. ويستشهد بالآية القرآنية: ٌ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران:185]، أي المقصود كل شخص

ذائق الموت[1]. وهو التعريف الأدقّ للنّفس البشرية في القرآن الكريم، وذلك من خلال استقراء ما ورد من آيات قرآنية ودلالاتها المختلفة، وهو المراد في هذه الدراسة.

المطلب الثاني: أنواع النّفس البشرية في القرآن الكريم.

يرى القرضاوي أنّ النّفس واحدة تكون على ثلاثة أحوال، وذلك متعلق بالضرورة ببنية النّفس الموجهة نحو أحد هذه الأنواع الثلاث: النّفس الأمّارة بالسوء أو النّفس اللوامة أو النّفس المطمئنة، وبمدى خضوعها للأهواء والشهوات أو إعراضها عنها.

ويرى أيضاً أنّ النّفس الإنسانية يمكن لها أن ترقى من حال لآخر، فتكون نفساً أمّارة بالسوء فترتقي لتصبح نفساً لوامة، ثمّ إن أريد لها الخير، ترتقي فتصبح نفساً مطمئنة، أي بالإيمان واليقين، وبذلك تكون قد عرفت طريقها فرزقت السكينة، وهي الغاية التي يسعى إليها الذين يجاهدون أنفسهم في سبيل الله[2].

لذا فإنّ قولنا أنواع النّفس نقصد به أحوالها التي تمر بها، وبيانها كالآتي:

النّوع الأول: النّفس الأمّارة بالسوء.

ويقصد بالنفس الأمّارة بالسوء: "النّفس التي تميل إلى فعل الشرور والشهوات، وتدعو صاحبها إلى اقتراف المعاصي والذنوب"[3]. وقد اختار الباحث البدء بهذه الحال من أحوال النّفس، كونها تلك النّفس المتروكة على حالها المجردة، دون شحنها بالطاعات ونهيها عن المنكرات، وورد ذكر هذا النّوع من الأنفس في القرآن الكريم على النحو الآتي:

---

[1] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

[2] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

[3] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

1. قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ [يوسف:53].

ويقرّر الطبري في تفسيره الآية –حكاية القول عن امرأة العزيز– بأنها لا تزكّي نفسها ولا تدّعي براءتها من الخطأ؛ لأن نفوسَ العباد بطبعها تدعو صاحبها إلى ما تشتهيه، ثم يستثني حالَ من شملته رحمة الله، فيوفّقه لمخالفة الهوى ويُنجيه من الانقياد للنفس وطاعتها فيما تأمر به من السوء[1].

وقال الواحدي في تفسيره الآية: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: "بالقبيح وما لا يحب الله، وذلك لكثرة ما تشتهيه وتنازع إليه"[2].

2. قصة قابيل: حيث دفعته نفسه الأمّارة بالسوء إلى قتل أخيه هابيل حسدًا وبغيًا، قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة:30]، قال الإمام السعدي في تفسيره: "أي: طَاوَعَتْهُ وَشَايَعَتْهُ وَعَاوَنَتْهُ."[3]

- أمراض النفس عند القرضاوي والحاجة إلى تطهيرها:

ذكر القرضاوي عدة أمراض للنفس، وذكر الحاجة الماسة إلى حياة ربانية وتربية إيمانية صادقة لتطهير النفوس والقلوب من هذه الأمراض النفسية المستعصية وكيفية تطهيرها على النحو الآتي:

- حب الدنيا وحب النفس، بتربية إيمانية صادقة تأخذ بأيدي العِباد إلى الله.
- العبودية للأشياء والأهواء والأوهام، بالاعتصام بالعبودية لله وحده.

[1] انظر: الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ج16، ص142.

[2] الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، **التفسير البسيط**، تحقيق: لجنة علمية من جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ، ج 12، ص 151.

3 البغوي، الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**. تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش. ط4. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م، ج 3، ص 43.

- الشرك، بتطهير العقول ممّا قد يعلق فيها اقتحام معتقدات شركية.
- النفاق، بتطهير القلوب منها بالتمسك بالحق والصدق مع النفس.
- الكذب والخيانة والرياء والغش والتناقض: باتباع طريق الحياة الربانية وتزكية النفس على كامل معالمها.
- الغلو: بالتمسك بالمنهج الوسطي دون إفراط ولا تفريط والرجوع إلى القرآن والسنة[1].

وقد بيّن القرضاوي طرق التعامل مع هذا النّوع من أنواع الأنفس، مثل: الاستعانة بالله والدعاء ومجاهدة الشهوات وتفعيل قيم المراقبة والمحاسبة ونحو ذلك. وسيأتي تفصيل ذلك، في مبحث أسس تزكية النفس.

ويجمل القرضاوي القول في ذلك: "أن النّفس الأمّارة بالسوء هي الأصل وذلك إذا تركت لغرائزها أو لدوافعها ونزعاتها وحدها ولم تهتد بهدى الله الذي بعث رسله وأنزل به كتبه ليهديها إلى الصراط المستقيم وإلى ربها وليربيها على المنهج القويم، ويوجه ما فيها من تطلعات ورغبات إلى الحق والخير ويحاملها بالترغيب والترهيب حتى تستقيم على الجادة وتقف عند حدود الله ولا تتعداها"[2].

ويفهم من قول القرضاوي أنّ النّفس الإنسانية بطبعها قابلة للانحراف والميل إلى الشهوات إذا لم يتم ترويضها وتهذيبها بالإيمان والعمل الصالح، وهذا يؤكد أهمية مجاهدة النّفس ومقاومة نزعاتها السيئة.

النّوع الثاني: النّفس اللوامة.

تُعد النّفس اللوامة تطبيقاً عملياً للضمير الحي الذي أقسم الله به في كتابه الكريم، وهي تلك النفس التي توبخ صاحبها على التقصير في حق الخالق وتدفعه دوماً نحو التزكية والإصلاح. إنّها المحرك الداخلي الذي يمنع المؤمن من الاسترسال في الخطأ بلا توقف.

أولاً: يقصد بالنفس اللوامة: تلك النّفس التي تكثر اللوم والعتاب وربما التوبيخ لصاحبها بدليل صيغة المبالغة فعّالة، أي النّفس اللوامة. فهي "في مقابلة الأمّارة بالسوء في الأخرى ولا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في

[1] انظر، القرضاوي، موسوعة الاعمال الكاملة، الحياة الربانيّة والعلم، ص 23.

[2] القرضاوي، يوسف، **فقه السلوك والأخلاق**، كتاب المراقبة والمحاسبة، الطبعة الأولى 1444 هـ، إسطنبول الدار الشامية، ج39، ص18.

الواجبات، بل تفريطه في المستحبات كما تلومه أشد اللوم على ارتكابه للمحرمات وتلومه بدرجة أقل على اقتحامه للشبهات أو تناوله للمكروهات"[1].

ووضح ابن القيم أنّ النّفس اللوامة هي التي تلوم صاحبها على الخير والشر، ولا تصبره عليهما[2]، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[3]. قال ابن القيّم: "فلو لم يقدر الذنوب والمعاصي فلمن يغفر وعلى من يتوب وعمن يعفو ويسقط حقه ويظهر فضله وجوده وحلمه وكرمه وهو واسع المغفرة"[4].

ثانياً: النّفس اللوامة في القرآن الكريم: على الرغم من أنّ الآية الكريمة:ٌ ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:2]، هي الآية الوحيدة التي ذكرت النّفس اللوامة صراحة إلا أنّ هناك العديد من الآيات القرآنية التي تصور حالات لنفوس بشرية اتصفت بصفات النّفس اللوامة، التي تلوم صاحبها وتندم، ممّا دفعها إلى التوبة والإصلاح، منها:

أ. آدم وحواء عليهما السلام بعد أن أكلا من الشجرة شعرا بالنّدم الشديد ولوم النفس، فتابا إلى الله تعالى، قال تعالى:ٌ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف:23]، ولا ينبع مثل هذا النّدم الا عن نفوس لوامة قوامة، مثل نفوس آدم وحواء.

ب. أصحاب الجنة: وقد وردت قصتهم في سورة القلم، حيث أقسموا على منع المساكين من نصيبهم من الثمر، فلما أصبحوا وجدوا جنتهم قد أصبحت كالصريم، ندموا ندماً شديداً ولاموا أنفسهم، وتراجعوا عن فعلهم. قال تعالى:ٌ ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ

---

[1] القرضاوي، **فقه السلوك والأخلاق**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص22.

[2] انظر: ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م، **ج 2، ص 9**.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب التوبة، باب سقوط الذنب بالاستغفار توبة (2105/4) (2106)

[4] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**. بيروت: دار المعرفة، 1398هـ/1978م، ص 223.

إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ [القلم:30-32]. هذا التلاوم هو تعبير صريح عن عمل النّفس اللوامة، لقوله تعالى:ُ ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر:56].

ثالثا: النّفس اللوامة عند القرضاوي: فحين تدخل على النّفس الأمّارة بالسوء نفحات إيمانية تنتقل إلى نوع آخر أو إلى حالة أخرى من أحوال النّفس وهي النّفس اللوامة التي لا تذر الإنسان على حاله من الاندفاع نحو نوازع الشر والانقياد نحو الأهواء والشهوات وهي تلك النّفس التي أقسم الله تعالى عز وجل بها فقال: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة:2].

ومن تسميات النّفس اللوامة عند القرضاوي (الضمير الحي)[1]، الذي إمّا أن يكون حياً أو يكون ميتاً، فصحوة هذا الضمير تعادل حالة اللوم التي تمر بها النّفس في مراحل ترقيها في الحياة؛ فاللوم يضفي صفة الحياة للنّفس.

وذكر القرضاوي صفات عملية للنفس اللوامة منها: اليقظة والضمير الحي بالندم، والتوبة والمحاسبة والتقويم، والعمل الدؤوب للارتقاء إلى الأفضل[2]. ثمّ ذكر بعض السبل العمليّة لكيفية التعامل مع النّفس اللوامة، منها الاستجابة للومها، والتوبة والاستغفار، والإصلاح والتقويم، ونحو ذلك ممّا سيأتي تفصيله لاحقاً[3].

ويرى الباحث استثمار هذه الميزة الإيجابية في تحويل اللوم إلى تنمية جوانب الخير بعيداً عن الإحباط واليأس. والقرآن الكريم مليء بنماذج النّفس اللوامة، فكل آية فيها تصريح بالندم على معصية أو ظلم النّفس والاستغفار منه تحمل في داخلها مقومات النّفس اللوامة. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ

[1] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

[2] انظر: القشيري، **الرسالة القشيرية** ، ص30.

[3] انظر: محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة 29/3/2009
https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ [آل عمران:135][1].

ويؤيد القرضاوي في هذا أبا حامد الغزالي عندما ذهب إلى أنّ أشدّ ما يورث الغمّ هو سرورٌ يوقن المرءُ بزواله وانتقاله؛ ولذلك يؤكّد على كلّ عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر ألّا يغفل عن محاسبة نفسه، وأن يُحكِم رقابتَه عليها ويضيّق مجاريها في حركاتها وسكناتها وخواطرها وخطواتها، ويعلّل ذلك بأن كلَّ لحظةٍ من العمر نفيسةٌ لا عِوَض لها، ويمكن أن تُستثمر فيما يُحصَّل به منافعُ عظيمةٌ باقيةُ الأثر؛ أمّا تضييع هذه الأنفاس أو صرفُها فيما يفضي إلى الهلاك فخسرانٌ جسيمٌ لا يليق بعاقل[2]، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ [آل عمران:30].

النّوع الثالث: النّفس المطمئنة:

أولاً: يقصد بالنفس المطمئنة: "النّفس الزكية المطمئنة وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق"[3]. وذكر القرضاوي عن النّفس المطمئنة قوله: "فهي نفس اطمأنت بربها وإلى ربها"[4].

ثانياً: النّفس المطمئنة في القرآن الكريم: ورد ذكر "النفس المطمئنة" بشكل صريح في سورة الفجر، في خطاب الله تعالى للمؤمن الذي اطمأن قلبه بالإيمان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر:27-30]. يقول الزمخشري في

---

[1] القرضاوي، **الإيمان والحياة**، ص179-185.

[2] انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار المعرفة، **ج 4، ص 394**.

[3] ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: حكمت بن بشير بن ياسين ط1. السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1431هـ، **ج 7، ص 564**.

[4] القرضاوي، **فقه السلوك والأخلاق**، ص24.

تفسيره للنفس المطمئنة: "والْمُطْمَئِنَّةُ الآمنة التي لا يستفزها خوف ولا حزن، وهي النّفس المؤمنة أو المطمئنة إلى الحق التي سكنها ثلج اليقين فلا يخالجها شك"[1].

وورد ذكر صفات الذين اطمأنت قلوبهم في القرآن الكريم على النحو الآتي: قال تعالى:ٌ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:28]. حيث ربط الواحدي الطمأنينة بالذكر الذي هو من قبيل العلم بقوله في تفسير الآية: "يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت، وإذا سمعوا ذكر الله أحبوه واستأنسوا به"[2]

ثالثا: النّفس المطمئنة عند القرضاوي: للنفس المطمئنة عند القرضاوي عدة صفات منها: الرضا والتسليم والسكينة واليقين، والتوكل على الله، وذكر الله، وقراءة القرآن، والصبر، والثبات. وبناءً على هذه الصفات ذكر القرضاوي عدة سبل لبلوغ هذا النّوع من الأنفس مثل: الإيمان الصادق والعمل الصالح والإكثار من ذكر الله والتفكر في خلق الله وآياته، ومجاهدة النّفس الأمّارة بالسوء والصحبة الصالحة.

وقال القرضاوي في معرض حديثه عن النّفس المطمئنة: "هذه النّفس لا يعتريها شك، ولا يصيبها قلق، ولا يمسها اضطراب، ولا تدخلها حيرة، ولا تزلزلها مصيبة، ولا تستخفها نعمة، ولا يسحقها عدو، ولا يلعب بها صديق، ولا تغرها طاعة، ولا توئسها معصية، بل هي أبداً مع الله وبالله ولله ومن الله وإلى الله، ولا بد لهذه النّفس من محطات لتهذيبها وكيفية ترويضها وتدريبها"[3].

وفي ضوء ما سبق يرى القرضاوي أنّ النّفس المطمئنة هي ثمرة الإيمان الصادق والعمل الصالح، وأنّها تتحقق بذكر الله والتسليم لأمره، ممّا يؤدي إلى السعادة الحقيقية في الدنيا والنجاة في الآخرة[4].

---

[1]. الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد. ط3. القاهرة وبيروت: دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م، **ج 4، ص 752**.

[2] **الواحدي، علي بن أحمد**. التفسير البسيط. تحقيق: لجنة علمية. ط1. الرياض: عمادة البحث العلمي – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ، **ج 12، ص 345**.

[3] القرضاوي، فقه السلوك والأخلاق 25.26

[4] انظر: القرضاوي، أمراض النّفس، 2025/09/19م.
https://youtu.be/-v8Yf3mzlyI?si=wGGSZpXlg4OmvC6h

المبحث الثاني: مفهوم التزكية وورودها في السياق القرآني والألفاظ ذات الصلة بها عند العلماء

المطلب الأول: معنى التزكية في اللغة والاصطلاح.

أولاً: التزكية في اللغة:

ذكر ابن فارس المعنى الاشتقاقي للتزكية يدور حول معنيين اثنين، هما: النماء أو الزيادة، والطهارة، فزكاة المال ممّا يرجى زيادته وتطهيره، وحجة ذلك قوله جل ثناؤه: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة:103]. والأصل في ذلك راجع إلى النماء والطهارة[1].

ويتضح ممّا سبق أنّ المعنى اللغوي للتزكية يدور حول معنيين أساسيين: النماء والزيادة سواءً في المال أو الخير، والمعنى المراد هو التطهير الخلقي والمعنوي والمادي.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للتزكية

عرّف ابن تيمية التزكية بأنّها: جعل الشَّيْء زكيا إِمَّا فِي الذَات أو الاعتقاد، قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ ٣٢﴾ [النجم:32]، أي لا تخبروا بتزكيتها، سواءً في النفس أو نشر ذلك بين الناس[2].

وذهب الغزالي إلى القول بأنّ التزكية العملية للنفس هي التي تتقبل مبدأ تزكيتها وتطهيرها من أدران الخبث وكدوراتها، تماما كالصورة القابلة للانطباع لا يمنعها في ذاتها أن تنطبع في الحديد، وإنما المانعُ ناشئٌ من جهة الحديد نفسه حين يعتريه الصدأ والخَبَث، لافتقاره إلى صقلٍ يجلّيه ويزيل عوائقه. وعلى هذا القياس ينبغي أن يُفهم أنّ المنع إنما هو من جهة العبد وقابليته واستعداده، لا من جهة الرحمة الإلهية في أصلها وسَعَتها[3].

---

[1] انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج3، ص18.

[2] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. **مجموع الفتاوى**. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ج 10، ص 98.

[3] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (1964 م). **ميزان العمل**. تحقيق: سليمان دنيا. الطبعة 1. مصر: دار المعارف، ص 208.

ونرى أنّ العلماء عرفوا التزكية إمّا بذكرهم معناها الاصطلاحي المجرد كما ورد في تعريف ابن تيميّة، أو باستحضار صور ذهنية تقريبية كما فعل الغزالي باستحضار حالة صقل الحديد، لكنّ القرضاوي ذهب إلى تعريف التزكية من عدة جوانب على النحو الآتي:

يبدأ القرضاوي بنقل تعريف سعيد حوى للتزكية لما يحمل من تحقيق للأخلاق على أسس ربانية، فالتزكية عنده: تطويع النّفس البشرية بتطهيرها من الذنوب، إلى تحقيق الأخلاق العالية على أسس ربانية وفق القرآن والسنة؛ فهي تطهر من أمراض وآفات، وتخلق بأسماء وصفات وتحقق بمقامات[1].

ويحرر القرضاوي معنى التزكية في الاصطلاح بمزيد من التفصيل والتطبيق حيث يقول: "التزكية في الاصطلاح الشرعي تطلق على معنيين أساسيين :الأول: التطهير من الذنوب والمعاصي والآثام، وذلك بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح. الثاني: النماء والزيادة في الخير والفضائل، وذلك بالاجتهاد في الطاعات والعبادات، وتحسين الأخلاق والمعاملات"[2].

[1] انظر: حوى، **المستخلص في تزكية الأنفس**، ج1، ص25.

[2] القرضاوي، **فقه الزكاة**، ج1، ص36.

المطلب الثاني: ورود لفظ التزكية، بالمعنى المختار، في القرآن الكريم:

جدول 2

لفظ التزكية، بالمعنى المختار، في القرآن الكريم

الكلمة	الآية	مكي\ مدني
زكى	﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢١﴾ [النور:21].	مدنية
زكاها	﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩﴾ [سورة الشمس:9].	مكية
تزكيهم	﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٠٣﴾ [التوبة:103].	مدنية
يزكون	﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء:49].	مدنية
يزكي	﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾ [النساء:49].	مدنية
يزكيكم	﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:151].	مدنية
يزكيهم	﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة:129].	مدنية
	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة:174].	مدنية
	﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران:77].	مدنية
	﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:164].	مدنية
	﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة:2].	مدنية
تزكى	﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ٧٦﴾ [طه:76].	مكية
	﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:18].	مكية
	﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ [الأعلى:14].	مكية
	﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾ [النازعات:18].	مكية
يتزكى	﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [فاطر:18].	مكية
	﴿ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ [الليل:18].	مكية
يزكى	﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣﴾ [عبس:3].	مكية
	﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾ [عبس:7].	مكية
أزكى	﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢٣٢﴾ [البقرة:232].	مدنية
	﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨﴾ [النور:28].	مدنية
	﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠﴾ [النور:30].	مدنية
الزكاة	﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ٨١﴾ [الكهف:81].	مكية
	﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣﴾ [مريم:13]	مكية

تحليل جدول الآيات باعتبار الآيات المكية والمدنية وارتباطها بمعنى التزكية عند القرضاوي

أ. الآيات المكية: تركز الكلمات المشتقة من "زكى" في الآيات المكية، مثل سورة عبس والليل وفاطر، على التطهير من الشرك وفساد العقيدة والأخلاق، ونماء الإيمان في نفوس المسلمين حديثي العهد بالإسلام كأفراد، وهذا يتماشى مع طبيعة المرحلة المكية التي كانت تركز على ترسيخ قيم التوحيد والأخلاق الأساسية قبل تشريع الأحكام الشرعية.

ب. الآيات المدنية: تتوسع دلالة الكلمات المشتقة من "زكى" في الآيات المدنية، مثل سورة البقرة والنساء والنور والتوبة، لتشمل التطهير من الذنوب والعيوب، ونماء الأعمال الصالحة والبركة في المال والنفس والمجتمع. كما تظهر دلالة التزكية كتطهير اجتماعي، وكجزء من وظيفة الرسول في تعليم الأمة وتزكيتها، وغالباً ما يأتي الفعل بصيغة الجمع دلالة على الانتقال للعمل الجماعي المؤسساتي وهو ما يتناسب مع بناء الدولة الإسلامية وتشريع الأحكام التي تنظم حياة المجتمع.

المطلب الثالث: الألفاظ ذات الصلة بالتزكية عند العلماء

لا بدّ من الوقوف على الألفاظ التي استخدمها العلماء ويقصدون بها التزكية لكي يتحقق هدف الدراسة؛ لأنّ القرضاوي لم يلتزم مصطلح التزكية في الغالب، فكثيراً ما كان يستعمل مصطلح الأخلاق أو الحياة الربانية، من الألفاظ ذات الصلة ما يلي:

الفرع الأول: الإحسان: ويقصد بالإحسان، إتقان العمل الظاهر مع استحضار مراقبة الله تعالى، وهذا الاستحضار هو جوهر تزكية النفس، يقول الغزالي في تعريفة للإحسان: "هو إتقان العبادة واستكمال شروطها وآدابها مع حضور القلب، وهو أعلى درجات التقى، وفيه تكمن تزكية النّفس وتنقية الباطن"[1].

1 الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص285.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإحسان بصور كلها تصب في الهدف ذاته، وكثيراً ما يُذكر الإحسان مقروناً بالإيمان والتقوى، ممّا يدلّ على العلاقة الوثيقة بينها وبين تزكية النفس. قال تعالى:ٌ ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:195]. وتُبين هذه الآية أنّ الله تعالى يُحبّ من يتصف بالإحسان، والإحسان يكون على مرتبتين ثنتين: أعلاهما أن يعبد العبدُ ربَّه على وجه المشاهدة؛ أي باستحضارٍ قلبيّ يشرق فيه نور الإيمان وتنفذ به البصيرة في المعرفة حتى يقارب الغيبُ عنده منزلةَ العيان، فيجري عمله على مقتضى هذا الحضور، وثانيها المراقبة؛ بأن يعمل العبد مع استدامة استحضار اطلاع الله عليه وقربه منه، فيثمر ذلك إخلاصًا يحجزه عن الالتفات إلى غير الله في القصد والعمل. ويتفاوت أهل هاتين المرتبتين بحسب قوة البصيرة وعمق اليقين[1].

وجاء بيان الإحسان في الحديث المشهور الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[2].

أولا: علاقة الإحسان بالتزكية

من الواضح أنّ الحديث المذكور يربط الإحسان ربطًا وثيقًا بالمراقبة والإخلاص. وهذا الارتباط هو بذاته غاية تزكية النفس؛ لأنّ تزكية النّفس هي أن يصل العبد إلى درجة يطهر فيها باطنه وظاهره، فيكون عمله كله لله، وكأنّه يرى الله تعالى.

وذهب ابن القيم إلى اعتبار الإحسان بمثابة تزكية للنفس، أو أنّه يحقق غاية تزكية النفس، عندما قال بأنّ كمال الإيمان بالله وأسمائه وصفاته يقتضي التوجه إلى الله بخالص العبادة كأنك تراه، وكأن الأمر ينزل من عنده، وتصعد الأعمال إليه[3].

---

1 انظر: الحكمي، حافظ بن أحمد، **أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة**، تحقيق: حازم القاضي، ط2 (المملكة العربية السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، 1422هـ)، ص 96.

2 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم 50 (1/ 19).

3 ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**، ضمن :آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال(5) . تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر. الطبعة الخامسة. الرياض وبيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ – 2019 م، ص 44.

ثانيا: علاقة الإحسان بالتزكية عند القرضاوي

يذكر الشيخ القرضاوي أنّ الإحسان هو: "القمة التي يصل إليها المؤمن بعد الإيمان والإسلام، وهو أن يستحضر المسلم وهو يُؤدي عبادته، أو يُمارس عمله، أو يُعامل الناس، أنّ الله يراه، وأن الله مُطلع عليه، وهذا الاستحضار هو الذي يُحقق تزكية النّفس الحقيقية، ويُطهرها من الرياء والنفاق وسائر الآفات"[1]. ثمّ يؤكد في موضع آخر على أنّ: "تزكية النّفس لا تتم إلا بالإحسان، فالإحسان هو الذي يَجعل العبد يطهر قلبه ويُنقّي سريرته، ويُحاسبه نفسه على كل صغيرة وكبيرة، وهذا هو جوهر التزكية"[2].

ويُمكن القول أنّ الإحسان وتزكية النّفس مصطلحان متكاملان ومتداخلان، فتزكية النّفس هي نتاج تحقيق الإحسان في حياة المسلم الذي بدوره سبيل وغاية لتحقيق نقاء قلب العبد وأعماله وجعلها خالصة لوجه الله تعالى. وقد ورد ذلك، كما رأينا، في أقوال بعض العلماء، وإن اختلفت تعبيراتهم.

ويرى ابن القيّم أنّ الاحسان الذي يجسّد مشهد المراقبة المتبادلة (بين العبد وربّه)، يفضي إلى إبطال التوجيهات النفسية الباطلة (التي سماها أحكام النّفس وهي التخلية)، وينشئ مكانها "نشأة أخرى" هي (التحلية): فإذا غلبَ قلبَ العبد مشاهدةُ معبوده كأنّه يراه، صار له ملكةً تُخمد أحكامَ نفسه، وتَبدَّل بها أحكامًا أُخَر، حتّى كأنّه أُنشِئ نشأةً أخرى غير النشأة الأولى[3].

الفرع الثاني: فقه أو علم الباطن

أطلق بعض العلماء، ومنهم ابن تيمية، اصطلاح علم الباطن أو فقه الباطن على تزكية النفس، وعرفه رحمه الله بأنّه: "علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها وهو علم بحقائق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة"[4].

وقد وردت إشارات لهذا المصطلح في الحديث النبوي: فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

---

1 القرضاوي، **السنّة مصدرًا للمعرفة والحضارة**، ص125.

2 القرضاوي، **الإيمان والحياة**، ص198.

[3] انظر: ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (659 – 751ه). **مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين.** [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال (31)]. تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي وآخرون، تخريج: سراج منير محمد منير وآخرون. مراجعة: سليمان بن عبد الله العمير وآخرون. الطبعة الثانية. الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، 1441 هـ / 2019 م. (ج 3، ص 458).

[4] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج11، ص225.

"أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[1]. ولا شكّ أنّ القلب هو محل الباطن عند كل إنسان؛ فصلاحه يقتضي صلاح باقي الجسد، وفساده يقتضي فساد باقيه[2].

مسألة: أصل مصطلح فقه الباطن:

يعود أصل استخدام مصطلحي "فقه الباطن" و"علم الباطن" كمرادفين لتزكية النّفس إلى المراحل الأولى لنمو التصوف الإسلامي كعلم مستقل، والذي سعى إلى تنظيم الجانب التزكوي؛ وكان الغزالي من أوائل من أسس لهذا المصطلح في كتابه "إحياء علوم الدين"[3]، للدلالة على علوم السلوك والأخلاق وتزكية النفس، لكن بعض الفرق الباطنية استخدمت هذه المصطلحات لتأويلات خاصة للنصوص الشرعية، وهو ما أدى إلى الحذر الشديد عند أهل السنة من هذه المصطلحات. ولذلك فإنه عند الحديث عن "فقه الباطن" و"علم الباطن" كمرادفين لتزكية النفس، فإنّ المقصود هو المعنى الذي قصده الغزالي ومن سار على نهجه في تهذيب القلوب والأخلاق.

ويقول الغزالي: "وعلم الباطن، أعني علم القلب وتطهيره عن الأخلاق الذميمة"[4]، فهو علم أحوال القلب وما يترتب عليها من الأمراض كالرياء والعجب والكبر والحسد، وما يضادها من الصفات المحمودة كالإخلاص والتواضع والقناعة والصبر والشكر والخوف والرجاء، وكيفية التخلص من المذموم والتحلي بالمحمود.

علاقة فقه الباطن بالتزكية عند القرضاوي

يؤكد القرضاوي على هذه العلاقة بقوله عن فقه الباطن كأحد أركان الفقه: "إنّ الفقه يشمل أيضاً فقه القلوب وفقه المقاصد وفقه المآلات، ففقه الباطن هو معرفة أمراض القلوب وكيفية علاجها، وكيفية بناء الأخلاق الفاضلة، وهو جزء لا يتجزأ من الفقه الشامل الذي نريده"[5].

---

[1] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (52 حديث رقم (1 / 20)

[2] انظر: **النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف**. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392 هـ. ج 11، ص 27.

[3] انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج1، ص22.

[4] **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد**. المستصفى من علم الأصول. تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1413 هـ - 1993 م. ص 116.

[5] عبد القادر الحسين، **الفقه المقارن من حسن البنا إلى سيد سابق والقرضاوي وإفساد مناهج الفقه في الجامعات الإسلامية**-محاضرة على اليوتيوب، تاريخ الرجوع، 2025/09/19، https://www.youtube.com/watch?v=srMvjwkuOm8.

وقد برزت ضرورة استخدام هذه المصطلحات بالتزامن مع تطور العلوم الشرعية؛ وذلك رغبةً في الفصل بينها وبين العلوم المعنية بالأحكام الظاهرة، وحمايةً لها من الانحرافات التي شابتها لدى الفرق الباطنية، فضلًا عن إيجاد عنوان دقيق للعلم المختص بتزكية النفوس.

وفي هذا السياق، يرى الندوي "أن المصطلحات الأنسب لوصف هذا العلم الذي يعنى بتهذيب النفس وتحليتها بالفضائل وتنقيتها من الرذائل، هي التزكية أو الإحسان أو فقه الباطن؛ كونها حقائق شرعية أصيلة استُمدت مفاهيمها من الكتاب والسنة، ويجمع على قبولها المسلمون كافة"[1].

الفرع الثالث: الزهد

عرّف سفيان الثوري الزهد في الاصطلاح على أنّه: "قِصَر الأمل"[2] في الدنيا، وبيّن الغزالي تحققه بأن نترك الدنيا لنفاسة الآخرة وحقارة الدنيا[3].

ولم يرد مصطلح الزهد في القرآن والسنة الصحيحة، وقد نبّه القرضاوي على ذلك بقوله: "ورغم أن القرآن والسنة غير حافلات بكلمة الزهد إلا أنّهما حافلات بالتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة"[4]، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم ما رواه عبد الله بن عمر: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[5]. وقد عدّ ابن رجب هذا الحديث أصلًا في ترسيخ خُلُق قِصَر الأمل في الدنيا، وفي تقرير أن المؤمن لا يليق به أن يجعل الدنيا موطنَ استقرارٍ وسكنٍ دائم يطمئن إليه، بل يتعامل معها بمنطق العابر المُرتحل، فحاله كحال المسافر الذي يتهيّأ للرحيل ويُعدّ زاده، دون انغماسٍ يُفضي إلى الغفلة أو التعلّق[6].

---

[1] أبو الحسن الندوي، ربانية لا رهبانية، صفحة 11 – 12.

[2] **وكيع بن الجراح، أبو سفيان**. الزهد. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار. ط1. المدينة المنورة: مكتبة الدار، 1404 هـ. ص221.

[3] انظر: **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد**. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة. ج 4، ص 219.

[4] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج38، ص479.

[5] **البخاري** الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ كن في الدنيا كأنك غريب، برقم (6416).

[6] ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. ط2. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 1424 هـ – 2004 م. ج 3، ص 1124.

أما بعد عهد النبوة فمالَ بعض الصحابة والتابعين إلى العزلة والابتعاد عن مظاهر الاحتفال بالدنيا واتخذوا الزهد سلوكاً اجتماعياً، إلى أنّ انتهى ما كان يعرف بالزهد إلى ما عرف بالتصوف. يقول عبد الرحمن بدوي: "إن التصوف في أول أمره، وفي القرنين الأول والثاني بصفة خاصة، لم يكن إلا زهداً. والزهد هو القشف في العيش، والتقلل من الدنيا، والاعتماد على العبادة، والخوف من عذاب الله في الآخرة، والرغبة في ثوابه. وهذا النوع من الزهد هو الذي نراه عند الصحابة والتابعين، وهو مستمد مباشرة من روح الإسلام كما صوره القرآن والسنة"[1].

ثانياً: علاقة الزهد بتزكية النفس

جعل العلماء الزهد ركناً من أركان التزكية أو أصلاً فيها، ورأوا أنّ من لا يزهد في الدنيا لا يحقّق مراد التزكية بالكامل.

وربط ابن تيمية الزهد بعدم الانشغال بما لا ينفع في الآخرة، وهو ما يدخل في باب تزكية النّفس وترتيب الأولويات السلوكية، فالزهد المشروع عنده هو ترك ما لا ينفع في الدار الآخرة؛ كفضول المباح التي لا يستعان بها على عبادة الله، والورع المشروع هو الابتعاد عن كل ما يضر بالآخرة؛ بترك المحرمات والشبهات وتمكين الواجبات[2].

وقال الجنيد في الربط بين الزهد – كحالة قلبية – وبين تصفية القلب ممّا ليس له، أي جانب من التزكية الداخلية: "الزهدُ خُلُوّ القلب عما خلت منه اليد"[3]. أي سكون القلب ممّا خلت منه اليد أي عدم الحزن على المفقود أو الفرح المفرط بالموجود.

ويرى الغزالي أنّ الزهد هو لباب الدين، وهو أصل تزكية النفس، فمن لم يزهد في الدنيا لم تصفُ نفسه، ولم تخلص نيته، ولم يتفرغ لخدمة ربه[4].

---

[1] بدوي، عبد الرحمن، **تاريخ التصوف الإسلامي: من البداية حتى نهاية القرن الثاني** (15-16).

[2] انظر: **ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم**. مجموع الفتاوى. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425 هـ - 2004 م. ج 10، ص 22.

[3] **ابن قيم الجوزية**. مدارج السالكين في منازل السائرين، ج 2، ص 221.

[4] انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص249.

أمّا سفيان الثوري فقد أكد على ترسيخ قيم الحرية من خلال الزهد في الدنيا، فقال: "من زهد في الدنيا مَلَكَها، ومن رغب في الدنيا خَدَمَها"[1].

ثمّ أكد القرضاوي على ضوابط الزهد، وحذر من المغالاة فيه، حيث قال: "الزهد ليس تحريمًا لما أحل الله من الطيبات، ولا إهمالاً للدنيا ومطالبها، ولا قعوداً عن الكسب والعمل. إنما الزهد هو ألّا تملكك الدنيا، بل أن تملكها أنت، وأن تكون في يدك لا في قلبك"[2].

فالقرضاوي يربط الزهد بمفهوم الوسطية والاعتدال في الإسلام، مؤكدًا على أنّ الزهد الحقيقي هو زهد القلب، وهو أصل التزكية.

الفرع الرابع: التصوف

ويقصد بالتصوف: "الأخذ بالحقائق واليأس ممّا في أيدي الخلائق"[3]. وعُرّف أيضاً بأنّه: "الخروج عن كل خُلق ذميم، والدخول في كل خُلق حميد"[4].

ومفهوم التصوف يدور حول الزهد وتزكية النّفس والإقبال على الطاعات. "وقد ظهر مصطلح "الصوفية" أو "التصوف" في أواخر القرن الثاني الهجري أو أوائل القرن الثالث الهجري. وقبل ذلك كان يُشار إلى هذه الفئة من الناس بـ "العبّاد"، "الزهّاد"، "البكّاؤون"، أو "النساك". وذكر أنّ أول من سمي الصوفي في الإسلام أبو هاشم الكوفي"[5].

---

[1] ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد. **الزهد**. ط1. دمشق: دار ابن كثير، 1420 هـ – 1999 م. ص 274.

[2] القرضاوي، **فقه الزكاة**، ج1، ص45.

[3] القشيري، **الرسالة القشيرية**، ج1، ص19.

[4] القشيري، **الرسالة القشيرية**، ج1، ص13.

[5] الكلاباذي، **التعرف لمذهب أهل التصوف**، ص 14.

العلاقة بين التصوف وتزكية النفس

لم ينكر القرضاوي أنّ التصوف الحق هو والتزكية سواء، حيث يقول: "نحن ندعو إلى التصوف الحقيقي، الذي يحاول أن يخرج الإنسان من ظلمات الكثافة المادية الطاغية التي تخنق الإنسان في ساعاته الحضارية، وتنقذه من مآسي المادة، ومن ضيق الدنيا، ومن آثار شياطينها الذين يريدون تزيينها للناس بما في أيديهم من غوايات وأساطير"[1].

تزكية النّفس هي جوهر التصوف وهدفه الأساسي عند غالبية المتصوفة والعلماء الذين تناولوا التصوف بالدراسة، ويرى بعض أهل العلم أنّ التصوف النقي والملتزم بالضوابط الشرعية، هو التطبيق العملي لتزكية النّفس من تطهير للقلب وتحسين الأخلاق.

الفرع الخامس: الربانية

والرباني في اللغة هو المنسوب إلى الرَب، فهو المُتَأَلِّهُ كقولهم إلهيّ[2]، وبالنّظر إلى الأحوال القلبية لصاحب النّفس الزكية، وكذلك البيئة التي ينبغي لنفسه أن تسمو في فضائها، فإنّ القرضاوي يرى أنّ الربانية هي: "سمو الروح وطهارة القلب ومحاسبة النّفس وصدق الصلة بالله تعالى وسلامة الصدر من الأحقاد والحب في الله والبغض في الله"[3].

ومن أوائل من أطلق مصطلح (الربانية) كتعبير مرادف لتزكية النّفس في كتابه (ربانية لا رهبانية) أبو الحسن الندوي، حيث قال: "هذه هي الأجزاء المفردة، والفضائل المشتتة، والمقاصد الشرعية، تتكون من مجموعة يطلق عليها اسم التزكية أو الإحسان أو الربانية"[4].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص360.

[2] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، ط8 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1426هـ – 2005م)، ص 87.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الحياة الربانية والعلم، ج39، ص12.

[4] أبو الحسن الندوي، **ربانية لا رهبانية**، ص17.

العلاقة بين الحياة الربانية وتزكية النفس عند القرضاوي

تبع القرضاوي الشيخَ الندوي فيما ذهب إليه من الربانية، حيث ألّف كتاباً بعنوان: الحياة الربانية والعلم أسوة بما سماه أبو الحسن الندوي ربانية لا رهبانية، تحدث فيه عن الجانب الروحي، أو الرباني، أو الإيماني، أو الأخلاقي، منطلقاً من القرآن والسنة، مستفيدا من سلف الأمة، متصلاً بقيم الإسلام الشاملة المتوازنة، جامعاً بين الأصالة ولغة العصر[1].

وهنا يذكر الشيخ القرضاوي أنّ الحياة الربانية هي جوهر تزكية النّفس؛ ذلك لأنّ الجوانب التي ذكر أنّه أحبّ الكتابة فيها ما هي إلا أوجه تزكية النفس، بل وجوهرها وتطبيقاتها العملية وهي مرادفاتها أيضاً.

الفرع السادس: الأخلاق

عرّف الغزالي الأخلاق بأنّها صفةٌ راسخةٌ مستقرةٌ في النفس تنشأ عنها الأفعال تلقائيًا وبيسرٍ من غير حاجةٍ إلى تفكيرٍ أو تروٍّ، فإن كانت هذه الصفة تُنتج أفعالًا جميلةً محمودةً عقلًا وشرعًا عُدّت خُلُقًا حسنًا، وإن أفضت إلى أفعالٍ قبيحة سُمّيت خُلُقًا سيئًا، ولا يثبت وصفُ الخُلُق بمجرد فعلٍ عارضٍ نادرٍ أو سلوكٍ متكلّفٍ يحتاج إلى مجاهدةٍ وروية؛ لأن المعتبر رسوخُ الصفة وسهولةُ صدور الفعل عنه[2].

فالأخلاق مَلَكة باطنة لا مجرد سلوك عابر؛ ويتصف بالرُّسوخ الذي يجعل الفعل يصدر بتلقائية وعفوية دون تكلّف أو تردّد، وبناءً على ذلك فإن المجاهدة في فعل الخير تُعد مرحلة تَخَلُّق، بينما الخُلق هو الثمرة النهائية للتزكية التي يستوي فيها الظاهر والباطن، وتُحكم بميزان الشرع.

أصل مصطلح الأخلاق

ورد مصطلح الأخلاق واشتقاقاته في القرآن الكريم والسنة المشرّفة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:4]. وقوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[3].

---

[1] انظر: القرضاوي، موسوعة الاعمال الكاملة، **الحياة الربانية والعلم**، ج 37، ص12.

[2] انظر: **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد**. ميزان العمل. تحقيق: سليمان دنيا. ط1. مصر: دار المعارف، 1964 م. ص 251.

[3] مالك، **موطأ الإمام مالك**، كتاب "حسن الخلق"، باب "ما جاء في الأخلاق. ابن حنبل، **مسند الإمام أحمد**،ج2، ص381،423. **سنن البيهقي الكبرى**، كتاب البيوع، باب الشفعة، ج6، ص151.

ثمّ تطور مصطلح الأخلاق ليكون منهجاً عملياً وركناً أساسياً في طريق الحياة الربانية وتزكية النفس، وقد اهتم العلماء المسلمون مبكراً بالأخلاق، وتركوا تراثاً غنياً في هذا المجال.

علاقة الأخلاق بالتزكية عند القرضاوي

يذكر القرضاوي قول الغزالي في علاقة التخلق بالأخلاق الحميدة والتزكية، حيث يرى أنّ اعتياد الأفعال الصادقة من النفوس الزكيّة هو الطريق إلى التزكية، فإن اعتاد على ذلك بالتكرار أصبح هيئة راسخة للنفس، حتى تصبح العادة كالطبع[1].

ثمّ يطرح القرضاويُّ الغزاليَّ مثالاً حياً لتوظيف الأخلاق للارتقاء بالنفس نحو التزكية، حيث يذكر قول الغزالي: بأنّ تزكية النفس تُنال عمليًا باكتساب الأخلاق عبر المجاهدة والاعتياد؛ فمن أراد خُلُق الجود يُلزم نفسه ببذل المال ويُداوم عليه حتى يصير ذلك سجيةً يسهل صدورها، وكذلك من طلب التواضع مع غلبة الكِبر عليه، فطريقه أن يثابر على أفعال المتواضعين بتكرارٍ متقاربٍ حتى تستقرّ الصفة في النفس[2].

ثمّ رأى القرضاوي أنّ الحاجة أصبحت ملحة للتأليف في هذا النّوع من الفقه، لأنّ خلاصة تجربته العملية ومتابعاته الميدانية، وضعته أمام حقيقة مفادها: حاجة الجميع إلى تربية إيمانية صادقة تغسل قلوبهم من حب أنفسهم والتعلق بالدنيا، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى، فتحررهم من العبودية لغير الله، وتجعلهم يعتصمون بعبودية الله وحده[3].

ثمّ يربط القرضاوي بين الأخلاق وبين التزكية ويذكر جوهر العلاقة بينهما فيقول: "وبعبارة أخرى، هم في حاجة إلى التزكية للنفوس، التي لا فلاح بغيرها، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ

[1] أبو حامد الغزالي، **ميزان العمل**، تحقيق: سليمان دنيا، القاهرة: دار المعارف، ط1، 1964م، ص 251.

[2] انظر: الغزالي، **ميزان العمل**، ص251.

[3] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص14.

فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ [آل عمران:164][1].

وخلاصة الأمر، فإنّ النظرة المعاصرة للتزكية وضرورة تطبيقها عند القرضاوي يؤكد على أنّ الحاجة إلى التزكية وتطبيقاتها الأخلاقية ليست مجرد ترف فكري، بل هي ضرورة وجودية لتطهير المجتمع من أمراض القلوب، كالرياء، والنفاق، وحب الدنيا، وتحقيق الحياة الربانية التي توازن بين العلم والعمل، وبين استقامة الظاهر وطهارة الباطن، التزاماً بالمنهج النبوي الذي جعل تتميم مكارم الأخلاق غاية للبعثة.

المبحث الثالث: التعريف بالشيخ القرضاوي وتجربته مع الصوفية.

المطلب الأول: تعريف بالشيخ القرضاوي:

أولاً: نشأته ومؤهلاته:

وُلِدَ الشيخُ الدكتور يوسف القرضاوي في قرية صفط تراب[2] ، التابعة لمركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية في مصر، وهي قريةٌ عُرفت بقدمها، ويُنسب إليها دفنُ الصحابي عبد الله بن الحارث بن جَزء الزبيدي[3] الذي يُذكر أنه آخرُ من تُوفي من الصحابة بمصر. وكان مولده في 1926/9/9م، وقد أتمّ حفظ القرآن الكريم وأتقن أحكام التجويد قبل بلوغه العاشرة.

التحق بمعاهد الأزهر الشريف، فأتم فيها المرحلتين الابتدائية والثانوية، ثم واصل دراسته الجامعية بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر وتخرّج فيها حاصلاً على شهادة «العالِمية/العالية» سنة 1953م. ثم نال

---

[1] القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص14.

[2] تقع قرية صفط تراب بين مدينة طنطا عاصمة مديرية الغربية ومدينة المحلة الكبرى أشهر مراكز مديرية الغربية، يوجد فيها قبل الصحابي الجليل عبد الله ابن حارث ابن جزء عبد الله بن معد يكرب الزبيدي، أبي الحارث، تنزيل مصر، الذي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث أخرجها له الإمام أحمد وأبو داوود والترمذي وابن ماجة. القرضاوي، ابن القرية والكتاب، الجزء الأول ص 4.

[3] **عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي** :صحابي جليل، سكن مصر ويُعدُّ من المعمرين بها، وهو آخر من مات بمصر من الصحابة. اشتُهر بروايته لحديث: "ما رأيت أحداً كان أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ"، توفي بقرية (سفط القدور) سنة 86 هـ. انظر: ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415هـ، ج 4، ص 45، ترجمة رقم4585 .

«العالِمية مع إجازة التدريس» من كلية اللغة العربية سنة 1954م، وتابع تحصيله فحصل عام 1958م على دبلوم معهد الدراسات العربية العالية في اللغة والأدب، ثم نال عام 1960م الدراسةَ التمهيديةَ العليا (المعادلة للماجستير) في شعبة علوم القرآن والسنة من كلية أصول الدين

وفي سنة 1973م حصل على درجة الدكتوراه بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى من كلية أصول الدين، وكانت أطروحته بعنوان: الزكاة وأثرها في حلّ المشاكل الاجتماعية.

وأسس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، وشغل منصب الرئيس فيه، وشغل منصب رئيس المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، ويعدّه البعض الزعيم الروحي لتيار الإخوان المسلمين حول العالم ومنظرهم الأول. توفي الشيخ القرضاوي بتاريخ 26-9-2022م عن عمر يناهز 96 سنة في مدينة الدوحة[1].

ثانياً: مجالات عمل القرضاوي:

أ. التأليف العلمي:

استند الشيخ القرضاوي بصفة أساسية إلى أصول التراث العلمي الإسلامي المعتمد على الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، إضافة إلى ربط كل ذلك بالعصر الذي يعيش فيه فجمع بين الأصالة والمعاصرة. وتميز أسلوب كتابته بالسهل الممتنع، وقد جُمعت جميع مصنفاته في موسوعة واحدة سُميت: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام يوسف القرضاوي، ومن أهم كتبه التي اعتنت بموضوع التزكية: كتاب الحياة الربانية والعلم، وكتاب النية والإخلاص، وكتاب التوكل، وكتاب التوبة إلى الله، وكتاب الورع والزهد، وكتاب المراقبة والمحاسبة، وكتاب الصبر والشكر والخوف والرجاء، وكتاب الأذكار والأدعية المستحبة للمسلم وابتهالات ودعوات، وكتاب أخلاق الإسلام. وتعد هذه الموسوعة تتويجاً لجهوده العلمية، وقد صدرت في (105) مجلدات كبيرة، وتضم حوالي 72 ألف صفحة[2]. وقد قُسمت هذه الموسوعة إلى 13 محورًا رئيسياً، ممّا يعكس

[1] موقع الشيخ القرضاوي على الانترنت.

[2] (الجزيرة نت، "الأعمال الكاملة للقرضاوي.. الموسوعية العلمية والآفاق المرجوة"، 4 يوليو 2023).

شمولية فكره وإنتاجه. وقد جاءت موضوعاتها في الفقه والفتاوى والعقيدة والفكر والقرآن والسنّة وفي قضايا الأمة،

المطلب الثاني: تجربة الشيخ القرضاوي مع الصوفية

كان للقرضاوي منذ جيل الخامسة عشر من عمره نهم القراءة، وكانت الصوفيّة هي المتوفرة في قريته لعدم وجود دار كتب فيها. وأول كتابين قرأهما القرضاوي في باب التصوف هما: "منهاج العابدين" و"إحياء علوم الدين"، للإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله.

وكان سبب توفر مثل هذه الكتب في أول حياة القرضاوي رحمه الله شيوع مجالس الصوفية وانتشار مشايخها، الذين ذكر منهم: الشيخ محمد أبو شادي، الذي عرفه القرضاوي "بأنّه كان خليلياً ثمّ استقل بطريقة قوامها العبادة والذكر، ثمّ قراءة الإحياء، وشعارها الذي يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده فإن كان ولا بد من ذكر غيره، فليذكر الآخرة، وليذكر الصالحين"[1].

وكان هذا التوجه من قبل مشايخ الصوفية في إفراد ذكر الآخرة عن ذكر الله ممّا أثار حفيظة الشيخ القرضاوي؛ "لأنّ ذكر الآخرة يعني، ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه"[2].

ومن خلال هذا نرى أنّ القرضاوي كان يأخذ من كتب الصوفية ما يمكن أن يرد إلى الجذور الإسلامية ويردّ ما لا يتفق مع ما جاء في النصوص الشرعية.

وعلى الرغم من أنّ كتاب الإحياء للغزالي كان قِبلة أهل التصوف وفاكهتهم، إلا أنّ القرضاوي كان يتحفظ على ما فيه من غلو، إلى جانب تأثره بما فيه من رقائق[3].

[1] القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص8.

[2] المرجع السابق.

[3] المرجع السابق، ص3.

وإلى جانب اتساع دراسة القرضاوي للتصوف فإنّه اتصل اتصالاً أعمق بالمدرسة السلفية وإماميها المجددين: ابن تيمية وابن القيم، فيقول أنّه أُعجِب بالنظرة الشمولية المتوازنة، وما فيها من جدة وتجديد، إضافة إلى مقاومتها لكل ما دخل على الإسلام من التحريف والانحراف سواءً على المستوى الفكري أو السلوكي[1]. فهو بذلك يقبل المنهج الصوفي وفق ضوابط السلف، والذي أطلق عليه: تسليف الصوفية؛ وذلك من خلاله جعل التصوف فكراً وروحاً وخلقاً لا التزاماً بطريقة صوفية أو اتباعاً لأحد مشايخها دون تحقيق لما قد يطرأ عليهما من خلل.

وبهذا ينأى بنفسه عن الالتزام بطرق الصوفية التي أصابها الاضطراب في الفكر والسلوك، وقلة أهل الصدق والإخلاص في أتباعها، بسبب انتشار الشركيات في العقيدة، والبدع في العبادة، وسلبية الأخلاق والشكلية في الذكر والتسيب في الفكر[2].

ويلخص القرضاوي تجربته مع الصوفية بأنّها أفضت إلى هدايته إلى الموقف الوسط بين الإفراط والتفريط من دون التعرض إلى المبالغة في قدحه؛ لما للتصوف من أثر حسن في المجتمع المصري آنذاك من تزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ومن توبة للعصاة، تأسياً بابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، اللذين اتخذا منهج الوسط في التعامل مع الصوفية والتصوف بين من قال إنّهم مبتدعة وخارجون عن السنة وبين من غلا في شأنهم حتى ادعوا أنّهم من أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء. والصواب كما يقول القرضاوي: "بأنّهم مجتهدون في طاعة الله، واجتهادهم جعلهم على قسمين: قسم فيه السابقون المقربون، وقسم آخر فيه المقتصدون الذين هو من أهل اليمين، وفي كل منهما من يجتهد فيصيب أو يخطيء[3].

ومن خبرة القرضاوي في العيش مع الصوفية وَضَعَ مبادئ عامة للتعامل من خلالها مع التصوف، ممثلة بالآتي:

---

[1] القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص13.

[2] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص15.

[3] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص19.

أولاً: أن تكون عمدة الداعية القرآن الكريم، كونه المصدر الأول للملة والينبوع الأول للعقيدة والشريعة والتربية والسلوك، ثمّ السنة النبوية المشرفة والاعتماد على الصحيح منها والحسن. ويقول القرضاوي: "عندنا من الأحاديث المقبولة ما يغنينا عن الأحاديث الواهية وإذا ذكر الضعيف فذلك للاستئناس به لا للاحتجاج والاستشهاد"[1].

ثانياً: عدم الاستشهاد بالإسرائيليات إلا ما أيد منها ما ورد في القرآن والسنة.

ثالثاً: الأخذ عن كبار الصوفية المعروفين بالاستقامة فقط، ومنهم سيد الطائفة الجنيد والحسن البصري والفضيل ومالك بن دينار وغيرهم. ومن المصنفات الصوفية، "سنأخذ ما يكشف الغوامض وينير العقول ويوقظ القلوب ويحرك العزائم مثل كتب الحارث المحاسبي والقشيري وأبي طالب المكي والغزالي وغيره"[2].

رابعاً: الحرص على الابتعاد عن المصطلحات المشتبهة التي تفرق ولا تؤلف، وتلك المثيرة للجدل وذلك لتحري السهولة والتيسير[3].

[1] القرضاوي، فقه السلوك والأخلاق 37\32.

[2] القرضاوي، فقه السلوك والأخلاق 37\32.

[3] القرضاوي، فقه السلوك والأخلاق 33،32\37.

الفصل الثاني

أسس تزكية النّفس وخصائصها عند الشيخ القرضاوي.

المبحث الأول: أسس تزكية النّفس عند الشيخ القرضاوي.

لقد جعل القرضاوي أسس التزكية قائمة على العلم الذي يصحح الفهم، والنية والإخلاص اللذين يوجهان العمل منذ نشأته الأولى ليكون خالصاً لوجهه تعالى، والتوكل على الله الذي يمنح العبد الثقة بربه في مسيرة التزكية، ثمّ التوبة والورع والزهد التي تشكل سياج التزكية وصون النّفس من اتباع الهوى.

وقد جاء ترتيب هذه الأسس على هذا النحو لحكمة تربوية ربانية عميقة؛ فالعلم هو البداية؛ لأنّه يضيء الطريق ويهدي إلى الصواب بعيداً عما ذهب إليه غلاة المتصوفة والمنحرفين منهم من إهمال للعلم واتباع للهوى، وقد رتب الغزالي رحمه الله أسس التزكية ابتداءً من العلم، بقوله: كيف يستقيم تصحيح النية لمن لم يتحقق بمعناها، أو يتحقق الإخلاص لمن يجهل حقيقته، أو تُطالَب النفس بالصدق قبل استبانة مفهومه وضوابطه؟ لذلك فإن أول واجبٍ على من قصد طاعة الله تعالى أن يبتدئ بتعلّم باب النية علمًا وفهمًا لتقوم المعرفة على أساسٍ صحيح، ثم ينتقل إلى تصحيحها بالممارسة العملية في ضوء إدراك حقيقة الصدق والإخلاص؛ إذ بهما تقوم أصول تهذيب السلوك وتزكية النفس[1].

ثم تأتي النية والإخلاص لتصحيح المقاصد وتجريد البواعث، فلا قيمة لعلم بلا إخلاص. ثمّ يأتي دور التوكل، ليستبعد عن السالك لمسيرة التزكية شعور الوحشة، واستحضار الشعور بالثقة بالله وعونه والاطمئنان لمعيته. ثمّ تأتي التوبة لتطهير القلب من أدران المعاصي والموبقات، ثم الورع ليكون سياجاً يحميه من الوقوع في الشبهات، ثم الزهد لينتشله من الوقوع في ملذات الدنيا دون ضوابط.

[1] انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص361.

وهذا تدرج غاية في الضرورة لتحقق البناء التزكوي الإنساني المبني على العلم الصواب والمفضي إلى سمو النّفس وتعلقها الكامل ببارئها، وهو جوهر التزكية.

المطلب الأول: العلم، الأساس الأول من أسس تزكية النّفس عند القرضاوي.

المسألة الأولى: مفهوم العلم وأثره في تزكية النّفس في القرآن والسنة:

ويقصد بالعلم في سياق التزكية: أنه العلمُ المتعلّق بعمل الإنسان ظاهرًا وباطنًا؛ فهو من جهةٍ يتناول ما يجري على الجوارح من أفعالٍ تُصنَّف إلى عاداتٍ وعبادات، ومن جهةٍ أخرى يتناول ما يَرِدُ على القلب– لخفائه عن الحواس واتصاله بعالم الغيب – ممّا يُحكم عليه بالمدح أو الذم، وبناءً على هذا الاعتبار ينقسم هذا العلم بالضرورة إلى شطرين: شطرٍ ظاهرٍ موضوعُه أعمال الجوارح (عادةً وعبادةً)، وشطرٍ باطنٍ موضوعُه أحوال القلب وأخلاق النفس محمودًا ومذمومًا[1].

ويرى القرضاوي أنّ العلم الحقيقي هو العلم الذي يجلب الخشية من الله، مستدلا بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ ٢٨﴾ [فاطر:28]، فيقول مبيناً معنى الآية أن العلماء هم الذين يخشى الله، لمعرفتهم إياه حق المعرفة، وتقديرهم عظمته حق تقدير؛ لأنّ العلم الحقيقي هو الذي يجلب الخشية[2].

وللعلم أثر واضح في تزكية النفس، وهذا ما نجده في كتاب الله وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج:54].

[1] انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج1، ص4.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الحياة الربانية والعلم، ج37، ص87.

يقول القرضاوي معلّقا على الآية: أنّ المعرفة تسبق الإيمان وتفضي إليه؛ إذ عُلِّق الإيمان على العلم، فجاءت الفاء دالّةً على الترتيب والتعقيب، وعلى هذا الأساس يُفهم أنّ الإخبات ثمرةٌ لاحقة للإيمان، وأن الإيمان بدوره أثرٌ مترتبٌ على العلم؛ أي إنّ البناء التربوي في الآية يسير من العلم إلى الإيمان ثم إلى إخبات القلب وخضوعه[1].

يقولُ الطبري في تفسيره: فتخبت له قلوبهم: "فتخضع للقرآن قلوبُهم، وتُذعن بالتصديق به والإقرارِ بما فيه"[2] وهي لبنات التزكية التي عليها مدارها.

وأكد على هذا التماسك بين العلم والتزكية، الأصبهاني[3] بقوله: "لا ينفك جانب العمل والتزكية عن العلم في سير أسلافنا العلماء، بل كان لحرصهم على صلاح سرائرهم، وعنايتهم بتبتلهم وإخلاص أعمالهم، واجتهادهم في ترويض أنفسهم على التحلي بالأخلاق الفاضلة العلية، والتأسي بالآداب المرعية السنية، وتجافيهم عن الظهور والإعجاب بالنفس أثر كبير في حياتهم العلمية، وشواهد هذا أكثر من أن تحصى، وأكبر من أن تستقصى، وقد ضرب إمامنا المصنف قوام السنة أبو القاسم التيمي[4] رحمه الله من ذلك بحظ وافر، فزيادة على إمامته في العلم والمعرفة واتساع الرواية؛ عرف رحمه الله بتعبده وورعه وعبادته، وقد تناقل علماء عصره وصف حاله، وحمدوا سريرته، ووقع في شهاداتهم ما يجلي ذلك، فحلوه بالأخلاق الحسنة، وزكوه بالصفات الحميدة، مع نسك وتبتل وحسن عبادة، فكان رحمه الله ممن يضرب به المثل في الفلاح والرشاد"[5]. وهذا

---

[1] انظر: القرضاوي، الأعمال **الكاملة**، ج37، ص98.

[2] الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القران**، ج16، ص 613.

[3] **أبو نُعيم الأصبهاني (336 – 430 هـ)** :هو أحمد بن عبد الله بن أحمد المهراني الأصبهاني، حافظ، ومؤرخ وعالم بالزهد والرقائق. من أشهر مصنفاته كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، الذي يُعد موسوعة في تراجم الزهاد والعباد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وكتاب "دلائل النبوة". انظر: شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ، ج 17، ص 453.

[4] **أبو القاسم التيمي (457 – 535 هـ)** :هو إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي التيمي الأصبهاني، الملقب بـ **"قوام السنة"**، إمام حافظ، وعالم بالتفسير، واللغة والحديث. من أبرز مؤلفاته كتاب **"الحجة في بيان المحجة** "وكتاب **"الترغيب والترهيب"**، عُرف بشدة اتباعه للسنة والزهد، وكان يُلقب بناصر السنة في عصره. انظر: شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط3، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1405هـ، ج 20، ص 80.

[5] **الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد. شرح صحيح البخاري**. تحقيق: عبد الرحيم بن محمد العزاوي. ط1. الكويت: دار أسفار، 1442 هـ – 2021 م. ج 1، ص 224.

يعني أنّ العلم عامل مباشر لتطهير القلب من قسوته، ممّا يتيح له بتقبل الهداية، فالنتيجة المباشرة لإتيان العلم هو تذليل القلب وإخضاعه ليسلك سبيل التزكية.

وبينت السنة النبويّة أثر العلم في تزكية النفس، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له"[1].

ما يؤكد أنّ الثمرة الأخلاقية هي المعيار الوحيد لصدق العلم؛ فالعلم الحقيقي ليس تخزيناً للمعلومات، بل هو نورٌ يفيض على النفس بالسكينة والتواضع. إن ربط "العلم النافع" بالرفق وحسن الخلق يعكس تطبيقات التزكية فالطباع التي لا تُهذب صاحبها وتكسر كبره هي حجة عليه لا له.

وألّف القرضاوي كتابه الربانية والعلم، ولم يكتف فيه بجعل العلم أولى أساسات الحياة الربانية والتزكية، بل نصّ في عنوانه على: العلم مع الحياة الربانية؛ ليكون جزءا أصيلاً منه، بغية أن يرسخ مبدأ العلم ودوره المحوري في الحياة الربانية والتزكية، وبه يردّ على غلاة الصوفية الذين ابتدعوا من الدين ما ليس فيه، ولأنّه يرى أنّ العلم كقيمة أساسية في تزكية النّفس، لا ينبغي أن يشوبها شائب من انحرافات القوم.

المسألة الثانية: دور العلم في تزكية النّفس كما يراها القرضاوي.

يوضح القرضاوي أنّ للعلم دورًا هامًا في تزكية النفس، وتهذيبها، وتقربها إلى الله، وأنّ العلم الصحيح سواء كان شرعياً أو كونياً ينبغي أن يلقي في النّفس الخصال التي تفضي إلى التزكية وبلوغ أعلى درجات السموّ الروحي والرباني[2]، ودور العلم في تزكية النّفس يظهر في الآتي:

أولاً: يقود العلمُ الإنسان إلى معرفة الله، وإدراك عظمته، والخشية منه وتقواه، ثمّ يذكر القرضاوي بعض أوجه دور العلم في تزكية النّفس منها:

[1] مسلم، **صحيح مسلم**، الوصية، حديث رقم 1631.

[2] انظر: القرضاوي، موسوعة الاعمال الكاملة، كتاب **الحياة الربانية والعلم**، ج 37 ص39.

1. تعزيز التوحيد: يعمق العلم الشرعي فهم الإنسان للدين، ويزيد معرفته بأسماء الله وصفاته، وأوامره ونواهيه، وهذا بدوره يؤدي إلى تعزيز الإيمان، وتزكية النّفس بالتقوى والعمل الصالح.

ويرى القرضاوي أنّ اكتمال العناصر الأربعة وهي: ابتغاء غير ربوبية وولاية وحاكمية الله وعدم ابتغاء رضا أحد غيره، كل ذلك "يحقق التوحيد الذي هو أصل روح الوجود الإسلامي كله وحياته الروحية، فالإسلام جاء ليحرر النّاس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد[1].

واستشهد القرضاوي بما يؤكد أنّ التوحيد هو أساس الحياة الروحية، في قوله تعالى: "إياك نعبد وإياك نستعين: حيث قال: "ومعنى التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة فلا يحب إلا الله ولا يستعان إلا بالله"[2]. ومن قبيل الاستعانة أن يستعين العبد بالله وحده على التخلص ممّا علق بالقلب من ذنوب وتحليته بالطاعات، وهو ربط مباشر بين الاستعانة التي هي تحقيق التوحيد وبين التزكية.

والتخلية هي شق التزكية الأول وهي أولى خطواتها قبل تحليتها بالطاعات وفيها خلاص القلب من الشرك، وهذا جوهر التوحيد.

ومعرفة الله التي تحقق التوحيد تكسب القلب معالم التزكية الكبرى كالتوكل وتجريد الإخلاص لله. ويؤكد ابن القيّم ذلك بأنّ صحةَ التوكّل مرهونةٌ بمدى صفاء التوحيد وتجريده في القلب؛ فبقدر ما يرسخ التوحيد يعظُم التوكّل، فإذا صرف العبدُ التفاتَه إلى غير الله، فإنّ هذا الالتفات يسلب مساحةً من تعلّق القلب الصادق، وينتقص من كمال توكّله على الله بمقدار ما صُرف من تلك الوجهة نحو الأسباب أو المخلوقين[3].

2. يكشف العلم الكوني الوارد في القرآن الكريم عظمة خلق الله، ودقة صنعه، واتّساع ملكوته، وهذا يجعله يدرك ضعفه وعجزه أمام قدرة الله، فيتواضع له، ويذعن لأوامره.

---

[1] القرضاوي، موسوعة الأعمال **الكاملة**، كتاب الربانية والعلم، ج37، ص38-39.

[2] القرضاوي، الأعمال **الكاملة**، ج37 ص39.

[3] انظر: ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج2، ص395.

ويرى القرضاوي أنّ العلم الحقيقي لا يؤدي إلى الكِبْر، بل على العكس، يزيد الإنسان تواضعاً؛ لأنّه يكشف له عن مدى قصوره أمام عظمة الله، ويقول القرضاوي مؤكداً هذا المعنى: "إنّ العلم الطبيعي الذي يكشف للإنسان عن عظمة خلق الله ودقة صنعه، واتساع ملكوته، لا يجعله يتعالى، بل يجعله يزداد تواضعاً، لأنّه كلما ازداد علماً، ازداد علماً بجهله، وازداد إدراكاً لضعفه وعجزه أمام قدرة الله اللامتناهية، وهذا الإدراك هو الذي يورث في النّفس خشية الله، والحياء منه، ويقودها إلى الأخلاق الفاضلة"[1].

وبيّن الإمام ابن كثير مقصد الآيات القرآنية التي تتحدث عن عظمة خلق الله بأنّها دعوة للتفكر والاعتبار، وأنّ هذا التفكر هو مفتاح الخشوع والتزكية، وذلك في تفسيره قوله تعالى في سورة (ق): ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق:6]، حيث يقول: "يقول تعالى منبهاً عباده على قدرته العظيمة التي استدل بها على وقوع المعاد، بقوله :أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا أي: كيف رفعناها بغير عمد، وجعلناها سقفًا محفوظًا، وَزَيَّنَّٰهَا أي: بالنجوم، وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ أي: صدوع وشقوق. ثمّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ۝٧﴾ [ق:7]. أي: بسطناها وفرشناها، ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [ق:7] وهي الجبال الشامخات، ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:7] أي: من كل صنف من النبات ممّا يُبصر فيبهج ويُعجب الناظرين. ثمّ قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [ق:8]. أي: وهذا الذي ذكرناه من خلق السماوات والأرض وما فيهما، بصيرة لمن تأمل فيه، وذكرى لمن كان له قلب منيب إلى ربه، يرجع إليه في كل أموره"[2].

ويقول ابن القيم واصفاً ما يفضي إليه التدبر في آلاء الله: "نعم، إذا حَصَلَ الْعِلْمُ فِي الْقَلْبِ تَغَيَّرَ حَالُ الْقَلْبِ، وَإِذَا تَغَيَّرَ حَالُ الْقَلْبِ تَغَيَّرَتْ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ، فالعمل تابع الحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر

[1] القرضاوي، **الإيمان والحياة**، ص115.

[2] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج7، ص363.

فَالْفِكْرُ إِذَنْ هُوَ الْمَبْدَأُ وَالْمِفْتَاحُ لِلْخَيْرَاتِ كُلِّهَا وهذا هو الذي يكشف لك فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر لأنّ الفكر ذكر وزيادة"[1].

3. يعزز العلم الخشية من الله، ويرفع درجتها: يرى القرضاوي أنّه كلما ازداد علم الإنسان بالله وخلقه ازدادت خشيته منه. فالخشية هي ثمرة المعرفة، وهي دليل على حياة القلب ونقاء النفس. ويسوق القرضاوي الآية من سورة فاطر كألصق الأدلّة القرآنية على العلاقة المباشرة بين الخشية والعلم والتزكية، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر :27-28].

ويُقرّر السعدي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر :28]. قاعدةً تلازميةً بين العلم والخوف من الله؛ فكلّما ازداد العبد معرفةً بربه، عظمت خشيته له، وتُثمر هذه الخشية أثرين عمليّين هما: الكفّ عن اقتراف المعاصي، والتأهّب للقاء الله، ويستنبط السعدي من هذه الآية دليلًا جليًّا على شرف العلم وفضيلته، لكونه الباعث الأكبر على الخشية التي تُبلّغ أهلَها منازلَ الكرامة والرضوان[2].

وهذه سلسلة ربانية مكوّنة من عدة حلقات عظمة الله، وتقواه، وخشيته ومعرفة قدرته، تقضي بترابطها إلى تزكية النفس؛ وهو ما يفهم من كلام السعدي، فكلما كان القلب أتمّ في معرفة الله، كان أتمّ في خشية الله، وخشية الله هي أساس كل خير، فبها يزكو القلب، وتستقيم الأعمال، وتتطهر الاخلاق.

4. العلم الصحيح يقتضي العمل الصالح: يرى القرضاوي أنّ العلم الصحيح الذي يقود إلى معرفة الله يدفع الإنسان إلى العمل الصالح، وإلى المسارعة في الخيرات. فهو يدرك أنّ العلم بلا عمل لا ينفع، وأنّ العمل

[1] الغزالي، **احياء علوم الدين**، ج4، ص426.

[2] انظر: السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ص 688

الصالح هو ثمرة العلم، ودليل على صدق الإيمان، فيقول: "لا قيمة للعلم إذا لم يترجم إلى سلوك وعمل، فالإنسان الذي يعرف أن الله هو السميع البصير، وأنّ كل ما في الكون خاضع لإرادته، لا بد أن ينعكس هذا الإيمان في سلوكه، فيبتعد عن المعاصي، ويُقبل على الطاعات، وهذا هو أساس تزكية النفس"[1].

وورد في القرآن الكريم ما يؤكد قول القرضاوي، وهو قوله تعالى:ُ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ٢٨﴾ [الكهف:28]؛ حيث تربط الآية بين الغفلة عن ذكر الله (وذكر الله هو العلم به)، وبين اتباع الهوى الذي يؤدي إلى الانحراف في السلوك القوي وطريق التزكية، وهذا يدلّ على أنّ العلم الذي لا يقود إلى الذكر (العمل) لا يزكي النفس.

يقول ابن كثير في تفسيره للآية: "وقوله:ُ ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:28]. أي: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ أي: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه"[2].

ويتفق العلماء ومنهم القرضاوي على أنّ العمل الصالح هو ثمرة العلم الصحيح، وأنّه لا يمكن تزكية النّفس إلا بالجمع بين العلم والعمل، فالعمل ليس مجرد حركة جسدية، بل هو تجسيد للإيمان والعلم الذي وقر في القلب. فعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق"[3].

والإيمان ليس مجرد قول باللسان (لا إله إلا الله)، بل إنّه ذو أبعاد كثيرة تشمل الأعمال الظاهرة مثل إماطة الأذى عن الطريق، ممّا يشير إلى أنّ العمل ركن أساسي في الإيمان، وأنّ التزكية لا تكون واقعاً عملياً إلا

[1] القرضاوي، **العقل والعلم في القران والسنة**، ص105.

[2] ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج 5 ص 154.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان- باب شعب الإيمان، حديث رقم 35، (63/1)

به. والإمام الغزالي ربط الأركان الثلاثة ببعضها وهي (العلم، الخشية والعمل) ذلك بأنّ العلم هو الخشية والخشية ثمرته؛ لذا فإنّ العالم هو من يخشى الله تعالى[1].

التخلية من الأخلاق الذميمة: ثمرة العلم ومعيار الإيمان:

ومن جملة العمل الصالح أن يتخلص الإنسان من الأخلاق الذميمة، ويرى القرضاوي أنّ العلم الذي يقود إلى معرفة الله، يساعد الإنسان على التخلص من الأخلاق الذميمة، مثل الكبر، والعجب، والحسد، والبغضاء، فهو يجعله يدرك مساوئ هذه الأخلاق، وعواقبها الوخيمة، فيجاهد نفسه لتطهيرها منها.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[2]. والحديث يربط بين الصفات الذميمة (الكذب، الخيانة، الغدر) وبين النفاق، وهو عدم تزكية النفس. وهذا يدلّ على أنّ الأخلاق السيئة هي دليل على نقص الإيمان، وأنّ تزكية النّفس تتطلب تجنب هذه الأعمال.

ثانياً: العلم يعزز اليقينَ ويقود إلى الطمأنينة.

يقصد باليقين: العلم الراسخ في القلب الذي لا يعتريه شك ولا تغيير. وإشارة إلى ما يضفيه اليقين من قيم الثبات على التزكية، ذكر القرضاوي تعريف الجنيد لليقين بأنّه: "استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب"[3].

ويربط القرضاوي ربطاً مباشراً بين العلم واليقين مستدلاً على دور اليقين في التزكية فيقول: "ومن فضل العلم أنّه يثمر اليقين، الذي به حياة القلوب وطمأنينتها، وبه مدح الله المتقين المهتدين بكتابه، حيث قال: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ

[1] انظر: الغزالي، احياء علوم الدين، الجزء 1 ص 86.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان- باب علامة المنافق، حديث رقم 34، (16/1)

[3] ابن القيّم، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، ج 1 ص 154.

هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة:4]، وهم الذين فصّل الله لهم الآيات، سواء كانت آيات تنزيلية مسطورة أم آيات تكوينية منظورة، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام:97][1].

ثم يشير إلى النتيجة الأخرى لتفصيل الآيات وهي العلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد:2].

ويضيف مزيداً من التفصيل في البعد العلمي المتمثل بالخلق وأثره في اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية:4]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام:75].

فيذكر قول ابن القيم معلقاً على الآية: "وَكَذَلِكَ، حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه، ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام:75]، أي: ليرى بصيرته، ما اشتملت عليه من الأدلّة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام:75]فإنّه بحسب قيام الأدلّة، يحصل له الإيقان والعلم التام بجميع المطالب"[2].

أثر اليقين في دفع الشبهات:

ولليقين الذي هو ثمرة العلم دوره في دفع الشبهات، لذا فإنّ القرضاوي يرى أنّ استقرار اليقين في القلب دلالة على قوة الإيمان، وفي ذلك دلالة على رسوخ العلم فيه، فلا يتزعزع القلب ولا يقف كالريشة في مهب رياح الشبهات، حتى وإن "وردت عليه من الشبهات بعدد أمواج البحر"[3]، وللتأكيد على ما ذهب إليه، يسوق

[1] القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ج37، ص112.

[2] ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج1، ص45.

[3] القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ج37، ص112.

القرضاوي قول ابن القيّم: "ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكاً لأنّه قد رَسَخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إذا وَرَدَت عليه رَدَّها حَرَسُ العلم وجيشُه مغلولة مغلوبة"[1].

واستدل القرضاوي على فاعلية العلم واليقين في تحصين النفس من الشبهات ببيان أنّ من آتاه الله علمًا راسخًا ويقينًا جازمًا، وبصيرةً تُميّز الحق من الباطل، لا تستهويه الشهوات ولا تتطلي عليه الشبهات، ويوضّح ذلك بأنّ هذا العالِم يتسلّح في مواجهة الباطل بأداتين متلازمتين: سلاحِ الصبر الذي يصدّ به سطوة الشهوات، وسلاحِ اليقين الذي يدفع به هجمات الشبهات، ويستند في تقرير هذه القاعدة التربوية إلى الآية الكريمة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: 24]، التي قرنت بين الصبر واليقين كشرطين لبلوغ الإمامة في الدين[2].

وفيي النتيجة فإن اليقين بعظمة الله وقدرته هو الذي يدفع النّفس إلى طاعته والتحلي بالأخلاق الحسنة.

ثالثا: العلم يرسّخ محبة الله ومحبة ما يحبه الله:

المحبة عند القرضاوي ركن الإيمان، وهي على حالها هذا ركن الإحسان الذي هو أحد معاني تزكية النّفس فمن البديهي ألا يخالف المحب محبوبه، بل أنّه يرى في اتباع تعاليمه أسمى ما يمكن أن تناله نفسه في الدنيا.

وإنّ تحقيق هذا المراد لا يكون إلا باتساع مجال العلم في القلب، بل وارتقائه إلى درجة اليقين ليصبح كل من اليقين والمحبة، الأرض الخصبة التي ينمو فيها ذلك الزرع اليانع النقي المتمثل بالنفس التي تحرت اتباع الخير ونأت بنفسها عن مسالك الباطل.

[1] ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج2، ص401.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص115.

وقد ذهب القرضاوي إلى القول بأنّ فكمال العبد لا يكون إلا بأن تكون كل حركاته موافقة لما يحبه الله ويرضاه، لذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبته. قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:31][1].

ويشير القرضاوي أنّ المحب ينتقل إلى حالة الخضوع والاستسلام لمحبوبه في حركاته وسكناته فهو دائم الشكر على السراء، ودائم الصبر على الضراء، فهو على اتصال دائم مع الله في نومه ويقظته[2].

ويذكر القرضاوي الآية الأصل التي تحمل الإشارة إلى العلاقة المباشرة بين المحبة وبين الاتباع، الذي هو أحد خصائص التزكية المحورية الرئيسة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:31][3].

وفي تعليقه على الآية، يبرز القرضاوي الأبعاد النفسية والسلوكية لرسوخ المحبة، فيقرر أنّ المحبَّ الصادق يعدّ مخالفةَ مراد محبوبه نوعًا من الخيانة، فلا يقدم على فعلٍ اختياري خارج دائرة مرضاته، وإن صدر منه ما أُبيح له بدافع الطبع أو الشهوة استغفر وتاب منه توبةَ من يستشعر التقصير، ثم يتدرّج هذا المعنى في قلبه حتى تتحول المباحات إلى طاعات بالنية والاحتساب؛ فيجعل نومه وفطره وراحته قُرَبًا معتبرةً كما يحتسب قيامه وصيامه واجتهاد[4].

وذهب ابن القيّم إلى تفسير الآية على نحو يربط بينها وبين التخلية والتحلية تحت مظلّة الاتباع، حيث قال: " قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله آية المحبة ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران:31]. وقال ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ٣١﴾ [آل عمران:31]

[1] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص82.

[2] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص82.

[3] انظر: القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص82.

[4] القرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص82.

"إشارة إلى دليل المحبة باتباع الرسول وثمرتها محبة المرسل لكم، فلا تكون المحبة حاصلة لله دون المتابعة وفق ما أراده الله[1].

والمحب بحاجة إلى العلم ليحصل من خلاله على هذا المقام السامي من محبة الله له، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. فعن أبي هريرة: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه"[2]، فمن المقرّر أن صاحب هذا المقام أشدُّ الناس افتقارًا إلى العلم؛ إذ لا يستطيع أن يميّز ما يحبه الله ويرضاه من الحركات والسكنات عمّا سواه إلا بمعرفةٍ تضبط له معيار القبول والرد، ومن ثمّ فحاجته إلى العلم ليست من قبيل طلب الكمال الذاتي للعلم بوصفه فضيلةً مجردة، بل هي حاجةٌ وجوديةٌ تقوم بها استقامةُ قصده وعمله، كحاجة الإنسان إلى ما به قوامُ نفسه، ولهذا أكّد الشيوخ العارفون في وصاياهم لمريديهم ضرورةَ التعلّم ودوامَ طلبه، وقرروا أن من أعرض عن العلم لم يظفر بالفلاح، حتى عدّوا الجهلَ مَظِنّةَ الانحطاط عن مراتب السالكين[3]. وفي هذا بيان الفرق بين من يطلب العلم لذات العلم، كترف فكري أو زيادة في المعلومات، وبين من يطلبه للحياة به، كضرورة قلبية لا يستقيم دينه وقلبه إلا بها.

المسألة الثالثة: موقف القرضاوي من فرقة الصوفيّة التي أهملت دور العلم كمصدر من مصادر التزكية

لقد أهملت الصوفية العلم كمصدر من مصادر المعرفة؛ ممّا انعكس على فقدان تزكية النّفس عندهم جوهرها النفيس، فكلما ازداد إهمال العلم عندهم ازداد ما يسمى بالتألق الروحي في التزكية عندهم.

أولاً: المبادئ التي حلّت مكان العلم ومصادره عند الصوفية

فتح بعض أهل التصوف باب المعرفة على مصراعيه، تلك التي لا تعتمد على العلم والعقل، بل على المعرفة الذوقية، وعلى الكشف والإلهام اللذان لا يعتمدان على المجاهدة العلمية والدراسة، وتركوا العلم الحقيقي،

---

[1] انظر: بن القيّم، **مدارج السالكين**، ج3، ص22.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6502، (105/8)

[3] ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج 1، ص 160.

وانخرط في ظل هذه الانحرافات خلق كثير، ولذلك رأى القرضاوي أنّه من الضرورة بحال أن يتبوأ أسس التزكية مبدأ العلم، ليدحض به ما ذهب إليه غلاة المتصوفة والمنحرفين منهم.

وانتهج في هذا القرضاوي منهج الإمام الغزالي رحمه الله في ردّه على المنحرفين من المتصوفة "الذين استخفوا بقيمة العلم، وزعموا أنّه حجاب بين العبد وربه!، وأُثرت عنهم في ذلك عبارات تمجّ الأسماع، وتنفر منها الطباع، لا يقبلها دليل الشرع، ولا برهان العقل، ونجد الغزالي كثيرا ما يبين أهمية العلم لتحقيقها والمحافظة عليها، فالعلم أحد المكونات أو العناصر الأساسية الثلاث، التي يعبر عنها بأنّها، علم، وحال، وعمل"[1]. وتمثلت المبادئ التي حلّت مكان العلم عند الصوفيّة بالآتي:

المبدأ الأوّل: المعرفة: وهي العلم اللّدني، ويسمي الصوفية صاحب العلم الشرعي عالماً ويسمون صاحب الكشف الصوفي عارفاً، وقد بيّن القرضاوي أنّ العلم عندهم كسبي وفق الاستدلال، والمعرفة وهبية لدنيّة، والعلم له الخبر والمعرفة لها العيان، وذهبوا إلى القول بأن ما كان منطلقه العلم فهو ظني مشكوك، وما جاء من طريق المعرفة اللّدنية فهو معصوم!.[2]

ومن أقوال الصوفيّة التي أوردها القرضاوي مبيّناً ما ادعوه من كون العلم اللّدني والكشف والإلهام مصادر القرب من الله عز وجل، ومنها: أنّ العلم هو الحجاب بين القلب وبين الله جل جلاله، وأنّ لهم علم الحرق ولكم علم الورق.[3]

وقد فنّد القرضاوي انحراف ما ذهبوا إليه بقوله: أنّ من جعل مصادر المعرفة عنده غير القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد أحالك على خيال صوفي أو قياس فلسفي أو رأي نفسي! فليس وراء القرآن وأخبرنا وحدثنا إلا

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب الحياة الربانية والعلم**، ص14.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب الحياة الربانية والعلم**، ج37، ص159.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب الحياة الربانية والعلم**، ج37، ص 162. ملاحظة: لم أجد مصدرا لهذا الكلام أوثقه منه، ويبدو أنه موروث ثقافي صوفي.

الضلال عن سواء السبيل، فلا دليل إلى الله سوى الكتاب والسنة، فكل طرق لم يصحبها القرآن والسنة النبوية فهي من طرق الشيطان الرجيم[1].

المبدأ الثاني: الكشف: ويقصد بالكشف: "الاطّلاع على ما وراء الحجب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً، وعند الصوفية: هو ظهور ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً، وهو على ثلاثة أقسام: كشف المعنويات بالذات، وكشف الصور بالحدس، وكشف أسرار الملك والملكوت"[2].

ويقصد بالكشف عند ابن تيمية: "العلم الذي يقذفه الله في القلب إلهامًا بلا سبب من العبد، ولا استدلال"[3]. ويربط ابن تيمية بين الكشف وبين التزكية مباشرة في التعريف، وذلك بذكر التجريد (التخلية) والإقبال القلبي (التحلية)، فيقول: "هو ما يُلقى في النّفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية، وإقبالها بالقلوب على المطلوب"[4].

فالكشف هنا ليس خرافة أو ادعاءً للغيب، بل هو ثمرة معرفية تترتب على جلاء القلب؛ فالنفس حين تتخلص من الشهوانية بالتخلية وتُقبل بصدق على خالقها بالتحلية، تكتسب مرتبة إيمانية تجعلها تدرك من حقائق الدين ما يغيب عن العقل المنشغل بالدنيا. وبذلك، يصبح الكشف عند هؤلاء العلماء هو أعلى درجات اليقين، حيث ينتقل العبد من علم اليقين القائم على الاستدلال إلى عين اليقين الشهودي الذي لا يخالطه شك.

المبدأ الثالث: الإلهام: ويقصد به: "ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية، ولا نظر في حجة، وهو ليس بحجة عند العلماء، إلا عند الصوفيين"[5].

---

[1] انظر: لقرضاوي، **الحياة الربانية والعلم**، ص118.

[2] الجرجاني، **التعريفات**، ص133.

[3] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج11، ص637،500،499.

[4] ابن تيمية، احمد ابن تقي الدين (ت 728هـ)، **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلاميّة**، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الاولى: 1426هـ، ج2، ص 178.

[5] الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف. **كتاب التعريفات**. ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ / 1983م، ص 34.

ولكون الإلهام والوحي لا يصدران من الإنسان نفسه، بل بقوة ربانية، فقد يظنّ البعض أنّ الإلهام هو الوحي، والحقّ أنّ الأمر ليس كذلك وقد بيّن القرضاوي الفرق بينهما من حيث الدلالة ومن حيث المتلقي للوحي أو الإلهام سواءً كان نبياً أو غيره ما يفهم، وف الجملة فإن التقرب إلى الله تعالى لا يدرك إلا بطريق الوحي الذي حملته الرسل، وادّعاء الاستغناء عنهم أو عن هديهم في الوصول إلى مرضاة الله صورة من صور الانحراف والضلال[1].

وبذلك يضبط القرضاوي بين موازين المعرفة بجعل الوحي هو المصدر التشريعي الأول والمطلق، بينما يبقى الإلهام أداة تنويرية وجدانية لا تملك قوة الحجية ولا استقلال الدلالة، ممّا يحمي التزكية من البدع الروحية ويحفظ لرسالة الإسلام عصمتها كي لا يجرؤ أحد الخروج عن طوقها مهما سما قلبه.

فرع: موقف الشيخ يوسف القرضاوي من الكشف والإلهام:

في سياق حديث القرضاوي عن دور العلم في ترسيخ المحبة واليقين وأنّ من امتلكها نال الدرجات العلا وأصبح خارج مقام البشر، بأن رُفع إلى مقام جعله يدّعي امتلاك الكشف والإلهام، فنّد القرضاوي تلك الدعوى بالنقاط الآتية:

1. الاعتراف بوجود الإلهام: يقر الشيخ القرضاوي بوجود الإلهام كنوع من التوفيق والتسديد من الله تعالى لعباده المؤمنين، وهو ما قد يظهر في صورة أفكار صائبة أو بصيرة نافذة. ويستند في ذلك إلى بعض النّصوص الشرعية التي تشير إلى إلهام الله لبعض الأشخاص في مواقف معينة.
1. التحذير من المغالاة في الكشف: يحذر الشيخ القرضاوي بشدة من المغالاة في مفهوم الكشف واعتباره مصدراً مستقلاً للمعرفة الشرعية يوازي أو يعارض الكتاب والسنة، حيث يرى أنّ الاعتماد المبالغ فيه على الكشوفات قد يؤدي إلى الانحراف عن منهج أهل السنة والجماعة وفتح الباب أمام البدع والخرافات.

[1] انظر: القرضاوي، **الربانية والعلم**، ص121-142.

2. ربط الإلهام بالشريعة: يؤكد الشيخ القرضاوي على أنّ الإلهام الصحيح لا يمكن أن يتعارض مع نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، فإذا ورد إلهام أو كشف يتعارض مع حكم شرعي ثابت، فإنّه يعتبر وهماً أو من الشيطان، وبذلك فهو يرى أنّ الشريعة هي الميزان الذي توزن به كل الواردات القلبية.

3. التمييز بين الإلهام النبوي وغير النبوي: يوضح الشيخ القرضاوي الفرق الجوهري بين الوحي الذي يختص به الأنبياء وهو مصدر تشريع معصوم، وبين الإلهام الذي قد يحصل لغير الأنبياء وهو ليس مصدراً للتشريع ولا يتمتع بعصمة.

4. التحذير من ادّعاء الكشف: ينتقد الشيخ القرضاوي بشدة أولئك الذين يدعون الكشف والاطلاع على الغيب دون دليل شرعي قاطع، ويرى أنّ هذا من التقول على الله بغير علم ومن أسباب الفتنة والضلال[1].

فالقرضاوي يضع العلم الشرعي أساساً لا غنىً عنه لأي عملية تزكية حقيقية، ويرى أنّ أي محاولة للوصول إلى الله خارج إطار القرآن والسنة، أو اتباع الكشف والإلهام الذي لا يخضع للضوابط الشرعية، هي انحراف عن المنهج الرباني القويم. لذا فإنّ تزكية النّفس الحقيقية عنده هي التي تنبع من عقيدة صحيحة، وعلم نافع، وعمل صالح.

خلاصة رأي القرضاوي في الكشف والإلهام:

يُؤصّل القرضاوي لرؤية توازنية تدمج بين نورانية القلب وانضباط الوحي، حيث يُقرّ بالإلهام كمنحة ربانية للمؤمن لكنه يرفض تحويله إلى مصدر تشريعي. وبذلك يجعل الشريعة هي الميزان الأوحد لنقد الواردات القلبية، حمايةً لمقام التزكية من الفوضى والادعاءات الغيبية التي تقطع الطريق على العلم النافع والعمل الصالح.

[1] انظر: القرضاوي، **الربانية والعلم**، ص121-142.

المطلب الثاني: النية والإخلاص

وهو الأساس الثاني من أسس تزكية النّفس عند القرضاوي:

عرف المقدسي[1] النيّة بأنّها القصد حيث قال: "ومَحلُّها القلب؛ لأنها عبارةٌ عن القصد، يقال: نواك الله بخير، أي: قصدك، ومحل القصد القلب، ولا يعتبر أن يقول بلسانه، فإن لفظ بما نواه كان آكد"[2]، ويقصد بالنية عند القرضاوي: "انبعاث إرادة الإنسان لتحقيق غرض مطلوب له"[3]، وعرّف القشيري الإخلاص بأنّه: "تصفية الفعل عَن ملاحظة المخلوقين ويصح أَن يقال الإخلاص التوقي عَن ملاحظة الأشخاص"[4]. ويقصد بالإخلاص عند القرضاوي: "إرادة وجه الله تعالى بالعمل، وتصفيته من كل شوب ذاتي أو دنيوي"[5].

وجعل القرضاوي النية مقابل الإخلاص؛ لأنّ النية هي تجريد مبعث العمل لله، والإخلاص هو تجريد العمل القائم على النية المجرّدة نفسها من كل شوب ذاتي أو دنيوي، فكل واحد منهما يتبع لمقطع زماني مختلف، لكن التعلق بينهما قائم، ويؤكد القرضاوي على دور كل منهما لدى الآخر بقوله: لا يتحقق الإخلاص إلا بوجود نية صادقةٍ مُجرَّدةٍ لله تعالى، منقّاةٍ من الشوائب والرغبات الذاتية والدنيوية. ومقتضى ذلك أن يزهد العبد في حظوظ نفسه ويتعلّق بربه وحده، فيفيض الله عليه بدل الضعف قوّة، وبدل الخوف أمنًا، وبدل الفقر غنًى[6].

---

[1] بهاء الدين المقدسي: هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد المقدسي (ت 624هـ)، فقيه حنبلي من كبار علماء المقادسة، وهو صاحب كتاب "العدة شرح العمدة. ينظر: ابن رجب الحنبلي، **ذيل طبقات الحنابلة**، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج 3، ص 304.

[2] المقدسي، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد (بهاء الدين). **شرح المقنع** (من أثناء كتاب الطهارة في باب المياه إلى أثناء كتاب البيوع في باب الضمان فصل الكفالة). تحقيق: نصْف بن عيسى بن نصْف العُصْفور. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1440 هـ – 2019 م. ط 1. الكويت: دار ركائز للنشر والتوزيع، 1441 هـ – 2020 م.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص227.

[4] القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ج 2، ص 359.

[5] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب النية والإخلاص، ج37، ص227.

[6] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب النية والإخلاص، ج37، ص222.

أولاً: النية والإخلاص في القرآن الكريم والسنّة النبوية

كعادته فإنّ القرضاوي يؤصّل موقفه من النيّة والإخلاص من القرآن والسنّة، وقد ذكر آيات من القرآن الكريم تعبر عن النية، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ۝٣﴾ [سورة الزمر:2-3]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ ۝١٥﴾ [الزمر :14-15].

ويقول القرضاوي: "وقد أمر الله في كتابه بالإخلاص، وحث عليه في أكثر من سورة، خصوصاً في القرآن المكي، لأنّه يتعلق بتجريد التوحيد، وتصحيح العقيدة، واستقامة الوجهة"[1].

ثم ذكر قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩﴾ [الإسراء:18-19]. ثم علّق على الآيتين بأنها قسمت الناس إلى قسمين، مريد العاجلة وهي الدنيا، ومريد الآخرة وهي الهدف الأسمى له، وسعى لها سعيا حثيثاً، والجزاء ترتب على ما يريد الإنسان[2].

فالآية الكريمة تنقل لنا مفهومي الإرادة؛ وهي النية، والسعي الدؤوب بصحبة الإيمان القلبي، وهو الإخلاص، في موضع واحد، وما يفضيان إليه من رضى الله عز وجل لهذا السلوك الإنساني المركب من النية والإخلاص، بأنّه هو المطلوب والمشكور عليه الإنسان من قبل ربه عز وجل لتحقيقه قيمة التزكية.

ويقول الشوكاني مفسراً للآيتين الكريمتين: أنّه من قصد بأعمال البر أو بأعمال يُظَنّ أنها للآخرة جلبَ حظوظ الدنيا، اندرج فيه الكافر والفاسق والمرائي والمنافق؛ فهؤلاء يُعجَّل لهم ما شاء الله من متاع العاجلة، وأمّا من قصد بأعماله الدار الآخرة، وبذل لها سعيها اللائق بها، ملتزمًا أوامر الشرع ونواهيه، مخلصًا لله غير مبتدع،

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب النية والإخلاص، ج37، ص261.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب النية والإخلاص، ج37، ص224.

وهو مع ذلك مؤمنٌ إيمانًا صحيحًا، فإن سعيَه هو الذي يكون مقبولًا مشكورًا؛ إذ لا يستحقّ الجزاء الأخروي عملٌ صالحٌ صادرٌ من غير مؤمن[1].

وذكر القرضاوي ما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الفاروق رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنّما الأعمال بالنيات وإنّما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[2].

وذكر الحيّز العظيم الذي يشغله هذا الحديث في الإسلام بقوله: "الحديث من أصول السنة، بل من أصول الإسلام، حتى قال بعض السلف: هو ربع الإسلام، وقال آخر: بل ثلث الإسلام. وقال الشافعية يدخل في سبعين باباً من العلم. ولا ريب أن النّية شرط لقبول العبادات، كما أنّها تحول العادات والمباحات إلى طاعات وقربات، كما دلت على ذلك أحاديث كثيرة. ولكن المعاصي والمحرمات لا تؤثر فيها النية، فمن أكل الربا ليبني مسجداً، ردّ عليه، ولا أثر لنيته، فإنّ الله طيب لا يقبل إلا طيباً"[3].

واستناداً إلى الحديث الصحيح يذكر القرضاوي ركنين لقبول الأعمال، "أولهما: الإخلاص وتصحيح النية. وثانيهما: موافقة السنة ومنهاج الشرع. وبالركن الأول تتحقق صحة الباطن، وبالثاني تتحقق صحة الظاهر وقد جاء في الركن الأول قوله صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" وجاء في الركن الثاني ما روته عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ"[4]، وهذا ميزان الظاهر"[5].

---

[1] الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **فتح القدير**، ط 1، بيروت: دار الكلم الطيب، 1414 هـ، ج 3، ص 257.

2 البخاري، **صحيح البخاري**، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم 1 (6/1)

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، النية والإخلاص، ج37، ص236 في الهامش.

4 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الصلح، بَابُ إِذَا اصْطَلَحُوا عَلَى صُلْحِ جَوْرٍ فَالصُّلْحُ مَرْدُودٌ، حديث رقم 2697 (184/3)

[5] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، النية والإخلاص، ج37، ص251.

ويرى أنّ النية هي روح العمل وجوهره، وبدونها يصبح العمل جسدًا بلا روح، لا قيمة له في ميزان الله تعالى، فالنية هي الباعث والدافع الذي يحرك الإنسان للقيام بالفعل، وهي التي تحدد وجهة هذا الفعل وغايته. وقد علّق القرضاوي بأنّ أيّ عمل فقد الإخلاص لا وزن له في ميزان الحق[1].

وأساس قبول الأعمال سلامة النية واستحضارها وتجريدها من كل الشوائب التي قد تطرأ عليها من ابتغاء غير وجه الله عز وجل، واستحضار الإخلاص في الأعمال من أولها إلى منتهاها. وقد بيّن الفضيل ابن عياض أنّ العمل لا بد وأن يكون خالصاً لله وصواباً وفق شرعه في آن واحد، وأيهما فُقد لم يقبل[2].

ثانياً: الإخلاص ودوره في تزكية النّفس عند القرضاوي.

أكّد القرضاوي على الدور العظيم للنية والإخلاص في تزكية النّفس ومن ذلك أنّ "النيّة روح العمل ولبّه وقوامه وهو تابع لها يصح بصحتها ويفسد بفسادها"[3]. ثم وضع عناصر في تكوين الإخلاص تقوم على مبدأ (النظر والاستواء)، أي الاهتمام بنظر الخالق وألا يمعن النظر في إخلاصه فيعجب بنفسه، واستواء ظاهر المخلص وباطنه، ومدح الناس وذمهم له[4]. ما يشير إلى الارتباط الوثيق والدائم بين مبدأي النيّة والإخلاص وبين تزكية النفس. واتفق العلماء على أنّ الاخلاص الأساس المتين لتزكية النفس، فهو يوجه القلب والعمل نحو الله، ويطهره من أي شائبة أو شرك خفي، على النحو الآتي:

أ. تحقيق قبول الأعمال: فالتزكية تقوم على الأعمال الخالصة المقبولة، قال الفضيل: "إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السُنة"[5].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، النية والإخلاص، ج37، ص252.

[2] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج1، ص168.

[3] القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، النية والإخلاص، مجلد 37 ص 248.

[4] انظر: القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، النية والإخلاص، مجلد 37 ص 276.

[5] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج1، ص168.

ب. الوقاية من أمراض القلب: إنّ إخلاص العمل لله عز وجل يشكّل حصناً منيعاً بينه وبين اقتحام أمراض القلوب. وذكر القرضاوي قول القشيري في سبل تعزيز هذه الوقاية: بأن يقصد العبدُ بطاعته التقرّبَ إلى الله تعالى وحده، دون أن يشوب قصده تصنّعٌ لمخلوق، أو طلبُ ثناءٍ عند الناس، أو محبّةُ المدح، أو أيُّ غرضٍ آخر غير ابتغاء وجه الله[1].

ت. تحقيق الطمأنينة والسكينة: لا شك أنّ إقحام غير وجه الله إلى أعمال القلوب تبعث في القلب والنفس حالة من عدم الاستقرار لا يصدها عن ذلك إلا الإخلاص الذي يفضي إلى الطمأنينة والسكينة، والتي تجعله منشرح الصدر، فقد اجتمع في قلبه غاية واحدة هي رضي الله[2]. ثم ذكر القرضاوي كلام ابن تيمية في هذا بأنّ القلب لا يكون سليماً طيباً إلا بالتوجه إلى الله وحده، والإنابة إليه فقط[3].

ث. تأييد الله ومعونته في الشدائد: إنّ الإخلاص يفضي إلى التمكين والتأييد وحراسة الله وحفظه حتى المشركين، وذلك حين، ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس:22]. يقول القرضاوي: "وإنّما أنجاهم واستجاب لهم لأنّهم " دعوا الله مخلصين" فقد رجعوا في تلك اللحظة إلى الفطرة وسقطت الهتهم المزيّفة ولم يبق لهم الا الله يدعونه بإخلاص ويتجهون اليه"[4].

ج. النجاة من الفتن: الإخلاص هو بمثابة درع يحصّن القلب من فتن الدنيا وشهواتها، فالمخلص لله يكون قلبه متصلاً بالله وحده، ممّا يجعله أكثر صلابة في مواجهة الفتن والمغريات التي تضعف الإيمان. ويقول القرضاوي مشدداً على دور الإخلاص في التصدي للفتن: "الإخلاص هو الذي يثبت الداعية على طريق الحق، ويمنعه من الزيغ، فلا يميل مع الهوى، ولا يخاف من بطش القوي، ولا يغتر بزخرف الدنيا. إنّ الإخلاص هو حصن الدعاة من الفتن"[5]. ويؤكد هذا المعنى، ابن تيمية بقوله: "ولهذا من أخلص دينه لله،

---

[1] القشيري، الرسالة القشيرية، ج 2 ص 359.

[2] القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، النية والإخلاص، مجلد 37 ص 329.

[3] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج2، ص766.

[4] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، النية والإخلاص، مجلد 37 ص 340.

[5] القرضاوي، الإخلاص وحاجتنا إليه، محاضرة على قناة القرضاوي الرسمية، 2020/10/01م.
https://youtu.be/seq4e-l8DoU?si=kl4gQs8d1lKVAOV5

وطهّر قلبه من حبّ ما سوى الله، أورثه الله في قلبه نوراً وفهماً، وميّز له بين ما هو لله وما هو لغيره، وبين الحق والباطل، والهدى والضلال"[1].

والحق أنّ هذه الأمور التي تشكل دور الإخلاص في تزكية النّفس هي بمثابة اجتهاد مستمر يحقّق للإنسان حالة التزكية المنشودة والثبات عليها، مستعيناً بذلك الصبر على تحقيقها. وقد أجمل سفر الحوالي هذا الشأن بقوله أنّ الواجب طلَب من المسلم أن يُخلِص القصد في جميع أحواله: في أعماله الظاهرة، وفي خطراته الباطنة، وفي أقواله وسكناته، حتى يكون كل ما يأتيه ويذرُه لوجه الله تعالى وحده، لا يشوبه التواءُ رياءٍ أو طلبُ جاه. فبهذا الإخلاص تتحقّق روح العمل التي تميّز بين صورةٍ ميتةٍ وحقيقةٍ حيّة؛ إذ إنّ العمل الديني، سواءً أكان تأليفًا أو جهادًا أو دعوةً أو غير ذلك، إذا خلا من الإخلاص، لم يجاوز كونه شكلًا أجوف يشبه التمثال أو الدمية التي لا روح فيها، أمّا حياته وقيمته الحقيقية فتقومان على إخلاصه لله، ومراعاة تقواه ومراقبته فيه[2].

ثالثاً: التوكل أساس لتزكية النّفس عند القرضاوي.

يعدّ التوكل على الله ركيزة أساسية لتطهير النّفس وتزكيتها، فهو يعكس عمق الثقة بالله، ويُحرّر القلب من التعلق بغيره، ممّا يمهد الطريق لسكينة وطمأنينة لا مثيل لهما.

عرّف القرضاوي التوكّل بما عرّفه ابن رجب، حيث قال: "صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة. ولا يكون المؤمن متوكلًا على الله حق توكله إلا بالثقة بالله، وحسن الظن به سبحانه، والتسليم لأمره "[3]، وهذا التعريف يربط التوكل ارتباطًا وثيقًا بالتوحيد، ممّا يجعله عملاً قلبياً أساسياً لتزكية النفس.

---

[1] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج1، ص137.

[2] انظر: **الحوالي**، سفر بن عبد الرحمن، **دروس للشيخ سفر الحوالي**، (مُفرَّغ صوتي)، (الشبكة الإسلامية – إسلام ويب: د.ت.)، ج 49، ص 3، http://www.islamweb.net

[3] ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ص 409.

وقد استدل القرضاوي على أهمية التوكل كأساس للتزكية بالعديد من النصوص الشرعية من القرآن الكريم والسّنّة النبوية، مع ربطها بتفسيرات العلماء التي تعزز هذا المفهوم، ومن ذلك قوله تعالى:

1. قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ ٣﴾ [الطلاق:3]. يشير القرضاوي إلى التأثيرات القلبية للآية: "التوكل يلقي على النّفس برد السكينة، ويمنحها قوة الثقة، ويملؤها رضا بالقدر، ويخلصها من القلق، وينزع من أعماقها بذور الخوف، فيراها مطمئنة راضية واثقة بربها، مستسلمة لقضائه"[1].

وهذه الآية بمثابة وعد إلهي يمنح المتوكل قوةً نفسيةً لا تُقهر، والتحول من القلق إلى الطمأنينة هو جوهر التزكية.

ويضيف ابن عاشور بأنّ: "التوكل علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه، وهذا أدب عظيم مع الخالق يدل على محبة العبد ربه فلذلك أحبه الله"[2].

2. قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾ [المائدة:23]، فهذه الآية تربط التوكل بالإيمان، فإذا كان الإيمان صادقًا، كان التوكل خالصًا، ما يحرر النّفس من قيود الدنيا وعبودية غير الله فيمتلأ القلب بالرضا والتسليم، "فجعل التوكّل شرطًا في الإيمان، فدلَّ على انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكّل"[3]. وهذا ما يوضحه ابن عطيّة بقوله عن التوكل ودوره في الإيمان: فهو مقامُ العلماءِ الرَّبانيّينَ، وكلُّ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ مُتَوَكِّلٌ عَلَيْهِ، غَيْرَ أَنَّ تَوَكُّلَ كُلِّ عَبْدٍ مُقَدَّرٌ بِمِقْدَارِ يَقِينِهِ. فَتَوَكُّلُ الْخُصُوصِ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ مَعَانِي الْمُشَاهَدَةِ وَالرِّضَا، وَتَوَكُّلُ الْعُمُومِ مَا أَوْقَفْنَاهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِالْأَقْدَارِ خَيْرِهَا وَشَرِّهَا[4].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب التوكل، مجلد 37 ص 487، 488.

[2] ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984 م)، ج 4، ص 152.

[3] **ابن قيم الجوزية**، محمد بن أبي بكر بن أيوب (أبي عبد الله)، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، وتخريج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، ومراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وعلي بن محمد العمران، ط 4 (الأولى لدار ابن حزم)، (الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ – 2019 م)، ج 2، ص 557.

[4] **المكي**، محمد بن علي بن عطية الحارثي (أبو طالب)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، ط 2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ – 2005 م)، ج 2، ص 16.

إضافة إلى تأكيد القرضاوي أنّ المتوكلين لهم صفاتهم العقديّة والسلوكيّة وتمثّل أهمها في قوله صلى الله عليه وسلم عن ابن عباس: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفا بغير حساب ولا عذاب"، ثمّ نعتهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون"[1].

والحديث يضع التوكل في أعلى مراتب تزكية النفس، حيث يرفع الإنسان إلى درجة الكمال في الإيمان، فمن وصل إلى هذه الدرجة، لم يعد يطلب شيئًا من غير الله، وهذا يُعزز من استقامة النّفس وصفائها وتوحيدها، ومن لوازم ذلك، غنى النفس، قال ابن تيمية في وصفه للسبعين ألفا هؤلاء: "ولكنَّ الغِنَى غِنَى النّفس فمدحهم بترك الاسترقاء، ووصّى النبي صلى الله عليه وسلم طائفة من أصحابه أن لا يسألوا الناسَ شيئًا"[2].

وفي المقابل حذّر القرضاوي من التواكل الذي يغذّي الكسل والسلبيّة لأنه يجعل صاحبه يستسلم للواقع مستشهدا بما رواه الزبير بن العوام رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي سائلًا، فيعطيه أو يمنعه"[3].

وهذا الحديث يؤكد أنّ التوكل لا يعني ترك الأسباب، بل الأخذ بها مع الاستعانة بالله. والعمل على الأخذ بالأسباب هو جزء من تزكية النفس، التي تعني إصلاح الباطن والظاهر، وتتضمن العمل الصالح والاجتهاد. وعلى النقيض من ذلك تماماً فإنّ التواكل يُفسد النّفس ويُبعدها عن التزكية، لأنّه يُورثها الكسل والقعود، ويُضعف علاقتها بالله. لذا فمن اعتقد أنَّ التَّخطيطَ لِلمُسْتَقْبَلِ أَوْ فَهْمَهُ يُعَارِضُ التوكل والإيمان بالقدر، فَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِهِمَا؛ وحاد عن الصواب في التعامل معهما[4].

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الرقاق، باب: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه"، حديث رقم 6472 (100/8)

[2] **ابن تيمية**، أحمد بن عبد الحليم (شيخ الإسلام)، **الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق** (يطبع كاملا لأول مرة)، ضمن :**آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال** (15)، تحقيق: علي بن محمد العمران، ومراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وجديع بن محمد الجديع، ط 3 (الأولى لدار ابن حزم)، (الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ – 2019 م)، ج 1، ص 43.

[3] **البخاري**، صحيح البخاري، كتاب **الزكاة**، باب: الاستعفاف، حديث رقم(1471)

[4] انظر: القرضاوي، العلاقة بين الأيمان بالغيب وعلم المستقبل 5.11.2007

https://www.youtube.com/watch?app=desktop&v=i8NGiSPR5FQ&t=595s

بذلك يؤكد القرضاوي أن التوكل الحق والإيمان بالقدر لا يتنافيان مع التخطيط للمستقبل، بل هما دافع لإتقان الأخذ بالأسباب واستشراف الغد بوعي؛ فالمشكلة لا تكمن في النّص الديني، بل في الفهم القاصر الذي يحوّل العقيدة إلى ذريعة للتواكل والجمود، في حين أن جوهر التزكية يقتضي عمارة المستقبل بالعلم والعمل.

مسألة: دور التوكل في تزكية النّفس عند القرضاوي.

حدد القرضاوي أدواراً واضحةً للتوكل على تزكية النّفس كلها تفضي إلى تنمية النّفس البشرية للارتقاء نحو الأخلاق الحميدة، هي:

1. طمأنينة القلب وسكينة الروح: إنّ التوكل ليس مجرد كلام نظري بعيداً عن التطبيق العملي، بل هو مبدأ حياة، وحالة نفسية عملية تحقق التوازن الداخلي، وتُطهر النّفس من القلق المتواصل الذي يُرهقها[1]. ويؤكد ابن تيمية على أنّ كل هذا منوط بتوحيد العبادة فيقول: "القلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا يطمئن، ولا يسكن إلا بعبادة ربه وحده"[2].

2. الشجاعة والإقدام: إنّ التوكل كما يرى القرضاوي هو ما يمنح الفرد شعورًا بالقوة مصدره الثقة المطلقة في الله، ممّا يحرره من الخوف من البشر، ويُعزز من قدرته على القيام بالحق، وهي من أهمّ معالم تزكية النفس[3]. ويُعزز الإمام ابن القيم هذا المعنى، حيث يرى أنّ التوكل يورث الإنسان الثقة الكاملة بالله ثم يلحق بها بعض لوازمها الأخرى فيقول: "وقد تقدم أنّ كثيراً من الناس يفسر التوكل بالثقة. ويجعله حقيقتها. ومنهم من يفسره بالتفويض. ومنهم من يفسره بالتسليم، فعلمت أنّ مقام التوكل يجمع ذلك كله. فكأن الثقة

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص110.

[2] ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (شيخ الإسلام)، **تقريب فتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية**، عني به وحرره: أحمد بن ناصر الطيار، ط 1، (السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1441 هـ)، ج 2، ص 766.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص111.

عند الشيخ هي روح، والتوكل كالبدن الحامل لها، ونسبتها إلى التوكل كنسبة الإحسان إلى الإيمان"[1]. فالتوكل يورث الإنسان الشجاعة في مواجهة الخوف، ويجعله لا يبالي بالخلق، لأنّ قلبه متصل بالله.

3. الرضا والتسليم: يضيف القرضاوي أنّ الرضا هو تتويج لمسار التزكية، فهو دليل على أنّ القلب وصل إلى مرحلة اليقين، لكونه جزءاً من التوكّل، حيث يرى الخير في كل ما يُقضى، وهذا هو قمة التطهير النفسي[2]، ثم ذكر قول ابن القيم: "إنّ الرضا ثمرة التوكل"[3].

ويتضح ممّا سبق أنّ التوكل عند القرضاوي ليس مجرد شعار ديني، بل هو منهج حياة متكامل يُزكّي النّفس ويُطهّرها؛ إذ إنّه يجمع بين منسوب الإيمان العالي والاجتهاد على تحصيل التوكل، ويُحرر الإنسان من قيود القلق والتبعية إلى عوالم الطمأنينة والهدوء النفسي، ليجعله متصلًا بالله وحده، هذا الاتصال هو الذي يمنح النّفس سكينةً دائمة وقوّة لا متناهية ورضا بما عنده لا ينقطع.

رابعاً: التوبة أساس لتزكية النّفس عند القرضاوي.

ليست التوبة مجرد عملٍ متجدد يدفع صاحبه خارج دائرة العقاب، بل هي ركيزةٌ أساسيةٌ لتطهير النّفس من الذنوب، وتجديد العهد مع الله، وفرصة لتذويب معاني التزكية في النّفس لاستعادة صفائها الروحي المبني على القيم الربانية.

وفي مقدمة حديثه حول التوبة يقول القرضاوي: "التوبة فريضة لازمة أمر بها القرآن الكريم، وحثت عليها السنة النبويّة، وأجمع على وجوبها العلماء جميعاً: علماء الظاهر وعلماء الباطن أو علماء الفقه وعلماء السلوك"[4].

[1] ابن القيّم، مدارج السالكين، ج 2 ص 143.
[2] انظر: القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، مجلد 37 ص119.
[3] القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، ج 2 ص 122.
[4] القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب التوبة، مجلد 38 ص 15.

وبذلك يتجاوز القرضاوي في تعريفه التوبة المفهوم الفقهي الذي يقتصر على عامِلَي الندم واجتناب المعاصي، على عزة استحضارهما في النّفس والسلوك، ليستجلب تحقيق شمولية التزكية بمفاهيمها المتعددة، من خلال بيان أهميتها عند علماء السلوك، لتنتظم النّفس في عوالم المنظومة الأخلاقية الرفيعة المحققة لجوهر التزكية.

ويؤيد هذا الفهم الإمامُ ابنُ القيم الجوزية الذي يرى أنّ التوبة هي: "الرجوع ممّا يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً"[1]، ما يشير إلى أنّ التوبة هي أساس كل مقام إيماني، وهي الفرصة المتجددة لاستجلاب النّفس لمفاهيم التزكية العميقة.

واستدل القرضاوي على أهمية التوبة كأساس للتزكية بالعديد من النصوص الشرعية، منها:

أ. من القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾ [التحريم:8]. يرى القرضاوي أنّ الشرط الأساس للبدء بعملية تزكية النّفس التوبة النصوح، فيقول: "وقال بعض علماء السلوك: التوبة واجبة على الكل، حتى الأنبياء والأولياء، فلا تظن أن التوبة اختصت بآدم عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿قَالَ خُذۡهَا وَلَا تَخَفۡۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلۡأُولَىٰ ٢١ وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ٢٢﴾ [طه:21-22]، ويُؤكّدُ القرضاوي أنَّ التَّوْبَةَ حُكْمٌ أَزَلِيٌّ مَكْتُوبٌ عَلَى جِنْسِ الْبَشَرِ بِسُنَّةِ اللَّهِ الْمُسْتَمِرَّةِ، لَا يُمْكِنُ فَرْضُ خِلَافِهِ مَا لَمْ تَتَبَدَّلْ سُنَّتُهُ الَّتِي لَا مَطْمَعَ فِي تَبْدِيلِهَا، فَالرُّجُوعُ إلى اللَّهِ ضَرُورِيٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، نَبِيًّا كَانَ أَوْ غَبِيًّا، وَلِيًّا أَوْ غَوِيًّا، مَا يُثْبِتُ الْحَاجَةَ الْمُلِحَّةَ إِلَيْهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَحَالٍ. وَيَدْعَمُ ذَلِكَ بِعُمُومِ الْأَدِلَّةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:31][2].

[1] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج1، ص474.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب التوبة، م38، ص 17، 18.

وتشير الآية الكريمة إلى أوصاف التوبة ومعاييرها الأساسية؛ فهي تتكون من مركبين أولهما، أنّها توبة نصوح أي خالصة وصادقة، وثانيهما الرجاء الذي يبعث على الأمل في نفس المؤمن من خلال الإيراد الرباني لإمكانية دخول الجنة وتكفير الذنوب.

وتحث الآية الكريمة على التوبة الكاملة التي تُصْلِح حال المؤمن وتؤدي إلى تطهير نفسه بالإخلاص، فالتوبة النَّصوح التي بها يترك المؤمن الذنب بصدق وإخلاص[1].

ومن الآيات التي استُدِل بها والتي تؤكد العلاقة بين التوبة والتزكية، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:222].

إن حبّ الله عزّ وجل للمتطهرين والتوّابين يؤكد على العلاقة الوثيقة بين مبدأي التوبة والتزكية، بل لعلّ هذه الآية من ألصق الآيات التي تجمع بين هاتين القيمتين في سياق واحد؛ علاقة أطلق عليها سيد قطب: "الربط العضوي"؛ حيث يرى أنّ التوبة لا تكتمل إلا بالتطهير من الذنب، وهذا التطهير لا يقتصر على الجانب المادي، بل يتعداه إلى التطهير القلبي والنفسي، فيقول: "فالله يحب التوابين الذين يرجعون إليه ويطلبون منه التطهير، ويحب المتطهرين الذين يطهرون أنفسهم من الآثام والرجس، فالأمران متلازمان، ولا يكون تواباً إلا إذا كان متطهراً، ولا يكون متطهراً إلا إذا كان تواباً"[2].

ب. من السنة النبوية: لم تتجاوز السنة النبوية المشرفة عن ذكر التوبة وحب الله للعبد بالتّحصل عليها، بحضور عاملي الندم والعزم الحثيث على التخلص من غياهب الذنوب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها"[3].

[1] انظر: **الصابوني**، محمد علي، **صفوة التفاسير**، ط 1، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، 1997 م)، ج 3، ص 382.

[2] قطب، **في ظلال القرآن**، ج1، ص235.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب التوبة، حديث رقم 2759.

ويرى القرضاوي أنّ هذا الحديث يُؤكد أنّ التوبة هي عملية متاحة في كل لحظة، ما يؤكد الإتاحة الربانية للتزكية في كل وقت، فيقول: إنْ خَلَا الْعَبْدُ مِنْ مَعْصِيَةِ الْجَوَارِحِ، فَلَا يَخْلُو مِنْ هَمِّ الذُّنُوبِ فِي الْقَلْبِ؛ وَإِنْ خَلَا مِنْهَا، فَلَا يَخْلُو مِنْ وُسْوَاسِ الشَّيْطَانِ بِإِيرَادِ الْخَوَاطِرِ الْمُتَفَرِّقَةِ الْمُذْهِلَةِ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ؛ وَإِنْ خَلَا مِنْهَا، فَلَا يَخْلُو مِنْ غَفْلَةٍ وَقِصُورٍ فِي الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَكُلُّ ذَلِكَ نُقْصَانٌ لَهُ أَسْبَابٌ، وَتَرْكُ أَسْبَابِهِ بِالْتَّشَاغُلِ بِأَضْدَادِهَا رُجُوعٌ عَنِ الطَّرِيقِ إلى ضِدِّهِ، وَلَيْسَ الْخَلْوُ مِنْهُ مُمْكِنًا لِلْآدَمِيِّ، بَلْ يَتَفَاوْتُونَ فِي مَقَادِيرِ النُّقْصَانِ لَا فِي أَصْلِهِ[1]. فالتوبة ليست مجرد حدثٍ لمرة واحدة، بل هي حالة نفسية وسلوك دائم، يعيشها الإنسان ليبقى قلبه متصلاً بالله، مطهراً من الذنوب.

وهذا الحديث يمثل حالة من الكرم الرباني غاية في السمو حتى تجاه أولئك الذين غَلَو في اقتراف أبشع الذنوب، وفيه دعوة إلهية مستمرة لتزكية النفس، فالله سبحانه يفتح باب التوبة ليلاً ونهاراً، ممّا يُشعر الإنسان بأنّه لا يوجد عذر لتأجيل التوبة. وفي هذا الحديث "كنايةٌ عن التوسع في الجود، والاغتناء بتوبة العباد، وكثرة تجاوزه عن الذنوب؛ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة، بل يمهلهم ليتوبوا، أو عن طلب التوبة لجريان العادة عند طلب أحدٍ من أحدٍ شيئًا أن يبسط يده إليه؛ أي: يدعو المذنبين إلى التوبة"[2].

مسألة: دور التوبة في تزكية النّفس عند القرضاوي.

حدد القرضاوي آثاراً واضحة للتوبة على تزكية النفس، مستنداً إلى النصوص الشرعية على النحو الآتي:

1. التطهير من الذنوب: يرى القرضاوي أنّ الذنوب هي الأوساخ التي تدنس القلب، وأن التوبة هي أولى مراحل التطهير. فيقول: "فإذا كانت الذنوب هي أوساخ النفس، فإنّ التوبة هي ماؤها الذي تُطهّر به، وغسولها الذي تُنظّف به. فإذا تاب العبد، غسل الله ذنوبه، وبيض صحيفته، وعادت نفسه نقية"[3].

---

[1] الهروي، علي بن سلطان (1014 هـ)، **شرح عين العلم وزين الحلم**، تحقيق ونشر: إدارة الطباعة المنيرية، مصر ج 2 ص 175.

[2] **ابن المَلَك**، محمَّدُ بنُ عزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف، **شرح مصابيح السنة للإمام البغوي**، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، ط 1، (إدارة الثقافة الإسلامية، 1433 هـ – 2012 م)، ج 3، ص 138.

[3] القرضاوي، **التوبة والإنابة إلى الله**، ص15.

كما يؤكد القرضاوي أيضا أنّه "لابد أن تتخفف من ذنوبك وأنت سائر في هذا الطريق. لا ينبغي أن تسافر وأنت عليك أثقال تقيد رجليك عن الحركة ولا تستطيع معها أن تتحرك أو أن تسير. ولهذا كانت التوبة مطلوبة بعد العلم"[1]، فالذنوب كالضرر المادي الذي يحدث على المنتجات والذي يزول بالتنقية والتعبيد، وهي إنّما تزول بالتوبة التي تتمثل بمصدر النور الذي يضيء طريق العائد إلى الله.

2. تجديد الإيمان: يوضح القرضاوي أنّ التوبة تُجدّد العلاقة بين العبد وربه، وتُعيد للإيمان روحه وحيويته، فيقول: "التوبة الحقيقية هي التي تُقوي صلة العبد بربه، وتُشحذ إيمانه، وتُحفزه على المزيد من الطاعة والعمل الصالح، فالتائب يخرج من ذنبه أقوى إيماناً وأكثر قرباً من الله ممّا كان قبل الذنب"[2].

ويضيف في موضع آخر أنّ "التوبة تجدد الإيمان؛ لأنّ الذنوب تخدش الإيمان فلابدّ أن نرمم هذا الإيمان بالتوبة وهو إيمان يتبعه عمل الصالحات"[3].

فالتوبة تُجدّد الإيمان حيويته وقوته؛ لأنّها تجعل الإنسان يشعر بفضل الله ورحمته، وعزيز النّفس يستحي من الله أن يعود إلى المعصية بعد أن أخرجه منها ببزوغ نور التوبة والإنابة.

3. الانتقال من النّفس الأمّارة بالسوء إلى النّفس اللوامة والمطمئنة: يرى القرضاوي أنّ النّفس البشرية تمر بمراحل، من النّفس الأمّارة بالسوء التي تدفع إلى ارتكاب الموبقات، إلى النّفس اللوامة التي تلوم صاحبها على فعلها، ثمّ إلى النّفس المطمئنة التي تطمئن بأمر ربها، والتوبة بلا شك هي الدافع للانتقال بين هذه المراحل الثلاث[4].

---

[1] (خطبة صوتية للشيخ يوسف القرضاوي بعنوان "مجاهدة النفس" منشورة على قناته الرسمية على يوتيوب، 2025/09/19م، https://www.youtube.com/watch?v=lBvo6WpPiNw.

[2] القرضاوي، **التوبة والإنابة إلى الله**، ص15.

[3] مقتبس من جواب للقرضاوي عن سؤال "كيف أكفّر عن شيء أخطأت فيه؟ وما هي شروط التوبة؟" منشورة على موقعه الرسمي: www.al-qaradawi.net.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب التوبة، ج38، ص148.

فالتوبة هي مرحلة انتقالية عظيمة تفصل بين أحوال النّفس المذكورة في القرآن الكريم وتَعبُر بها من مرتبة لأخرى بل هي ارتقاء في درجات التزكية، حيث تُحول النّفس وترتقي بها.

4. الطمأنينة والسكينة: يرى القرضاوي أنّ الذنب يورث القلق والاضطراب، بينما تبعث التوبة الطمأنينة في النفس، فيقول: "إنّ التائب الصادق يجد في قلبه سكينةً وطمأنينةً، لأنّ عبء الذنب قد زال عن كاهله، وحلّ محله أمل المغفرة ورجاء القبول من الله"[1].

وثمّة أمرٍ نفسي في غاية الأهمية في التوبة، وذلك أنّها تعالج أحد الامراض المستعصية في هذا العصر، ألا وهو الكآبة وانسداد آفاق الأمل عند كثير من الناس، فالتائب حين يعلم أنّ الله قد غفر له، يشعر براحة البال والسكينة الداخلية، سكينة أنفق الطب النفسي المعاصر جهوداً جبارة من أجل إيجاد حلول عضوية كيميائية وعقاقير للتعامل معها، لكنّ الإسلام أغدق على البشرية بالتوبة فجلبت الطمأنينة والسكينة التي هي من أعظم ثمار التزكية. وهو ما يقرّره علماء السلوك بأنّ التائب الصادق استبدل خوف الذنب بأمل المغفرة، وهذا هو جوهر السكينة[2].

والتسويف ألدّ أعداء التوبة فكلما بعد الإنسان عن التوبة كلما ازداد قلبه قساوة، وسلوكه انحرافاً، لذا فإنّ التزكية أجدر بها ألا تتأخر لما فيها من أثر عظيم لسكينة النّفس وتزكيتها.

خامساً: الورع والزهد ركيزتان أساسيتان لتزكية النّفس عند القرضاوي.

لا يقتصر طريق التزكية على التخلص من الذنوب فحسب، بل يتعداه إلى تهذيب النّفس والارتقاء بها عن شهوات الدنيا. في هذا السياق، يبرز الورع والزهد كقيمتين أساسيتين في بناء النّفس المؤمنة السالكة طريق التزكية والحياة الربانية، حيث يمثلان بتفاوت معيّن رصيداً من الوقاية من المعاصي ومعيقات الطريق الربانية. ومن الضروري أن نبين أنّ القرضاوي برؤيته الوسطية يرى أنّ هذين المفهومين ليسا انعزالًا عن الحياة، بل

[1] القرضاوي، **التوبة والإنابة إلى الله**، ص17.

[2] انظر: الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص209.

يؤخذ منهما ما يقرّب إلى الله، ويردّ ما يكون من باب التكلّف دون استحقاق النّفس بأي رصيد تزكوي. وقد بيّن أنّ تعريف الورع عند المناوي هو: "ترك ما يريبك ونفي ما يعيبك، والأخذ بالأوثق وحمل النّفس على الأشق"[1]، وذكر أيضاً تعريف الراغب للورع بأنه: "عبارة عن ترك التسرع إلى تناول أعراض الدنيا"[2]. وهو عنده حارس للقلب من الانحدار نحو الذنوب المهلكة، فهو لا يقتصر على الأمور المحرمة، بل يشمل اجتناب الشبهات وكل ما قد يوقع في الحرام، ويتجاوز بذلك القرضاوي في تعريفه للورع المفهوم الخاطئ المبني على الخوف.

وأشار القرضاوي إلى حقيقة الزهد من حيث تأثيره النفسي، بأنه في الحَقِيقَة حَالَّة نَفْسِيَّةٌ أَوْ وُجْدَانٌ يَنْحَتْ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَثَرَهُ، فَتَشْعُرُ بِأَنَّ الدُّنْيَا مَتَاعٌ قَلِيلٌ زَائِلٌ مَغْرُورٌ، وَدَارُ مُمَرٍّ إلى الْمَقْرِ الْأَخِيرِ، بَيْنَمَا الْآخِرَةُ هِيَ الْحَيَاةُ الْحَقِيقِيَّةُ الْخَيْرُ الْأَبْقَى، وَفَوْزُهَا فَوْزٌ عَظِيمٌ وَخَسَارَتُهَا مُبِينَةٌ. وَيَتَمَثَّلُ هَذَا الْوُجْدَانُ فِي إِثَارِ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا، وَزَرْعِ الْإِنْسَانِ هُنَا لِيَحْصُدَ هُنَاكَ، حَيْثُ تَعِيشُ النَّفْسُ مُعْرِضَةً عَنِ الْأُولَى رَاغِبَةً فِي الثَّانِيَةِ[3].

والزهد عند القرضاوي ليس تجسيداً للحرمان لذاته، بل مشروع تحرر للإنسان وعلوه فوق عبودية المادة.

وهذا الفهم أسّس له الغزالي حينما نفى من الزهد ما ليس منه، بقوله: "ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء، والفتوة وعلى سبيل استمالة القلوب، وعلى سبيل الطمع، فذلك كله من محاسن العادات، ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات، وإنما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بحقارتها، بالإضافة إلى نفاسة الآخرة"[4]. وهذا يوضح أنّ الزهد هو حالة للابتعاد بالقلب عن قيود المادة فهو حالة قلبية تهيئ النّفس للاجتياز بها نحو مقام التزكية.

---

[1] المناوي، عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: د عبد الحميد صالح حمدان، ط 1، (القاهرة: عالم الكتب، 1410 هـ – 1990 م)، ص 336.

[2] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (أبو القاسم)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، (القاهرة: دار السلام، 1428 هـ – 2007 م)، ص 227.

[3] انظر: القرضاوي، موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب التوكل، مجلد 38 ص 480.

[4] الغزالي، احياء علوم الدين، الجزء 4 ص 219.

وكعادة القرضاوي فإنه يؤصّل لأفكاره من القرآن والسنة، ومن ذلك حينما استدل على كونهما من ركائز التزكية، بقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام:120]. وهذه الآية جعلها القرضاوي، أصلاً لمفهومي الورع والزهد؛ لأنّها تؤكد أنّ الترك هو عنوان الورع والزهد، فهو يرى أنّ الْوَرَعُ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَوْ نَهَى عَنْهُ أَوْ لَا يُحِبُّهُ لِعِبَادِهِ، وَهُوَ عِبَادَةٌ مِنْ عِبَادَاتِهِ سُبْحَانَهُ، فَلَيْسَ كُلُّ الْعِبَادَاتِ شُعَائِرَ وَمَنَاسِكَ، بَلْ مِنْهَا اتِّقَاءُ مَا يُغْضِبُهُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ ظَاهِرَةٍ أَوْ بَاطِنَةٍ. وَالزُّهْدُ أَيْضًا تَرْكٌ، لِأَنَّهُ الْإِعْرَاضُ عَنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ—سَوَاءٌ كَانَ زُهْدًا فِي الْحَرَامِ أَوْ الشُّبُهَاتِ أَوْ فَضْلِ الْحَلَالِ—أَيْ تَرْكُ كُلِّ مَا يُشْغِلُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ[1].

والآية الكريمة تشير إلى أنّ القلب كي يتطهر ويتزكى يجب أن يتخلص من التعلقات التي تشغل أي حيّز معنوي على حساب حبّ الله فيه، وهذا هو جوهر الزهد. فالورع يصد القلب من التعلق بما يمكن أن يلوثه، والزهد ينأى به تماماً من أي احتمال لأي تعلق دنيوي، وهو ما يُحقق تزكية القلب الكاملة.

وقال البيضاوي في تفسيره للآية: "وَذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَباطِنَهُ ما يعلن وما يسر، أو ما بالجوارح وما بالقلب"[2]. وهذا يؤكد أن التزكية تتطلب تفريغ القلب من إرادة غير الله وحده، وذلك بالتخلية.

ومن السنة النبوية، ما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات"[3].

وعدّ القرضاوي هذا الحديث تعبيراً عن معاني أساسيّة في مفهوم الورع، فيقول على لسان الغزالي:" تَرْكُ مَا لَا بَأْسَ به مخافة ممّا به باس وهذا ورع المتيقن"[4].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، مجلد 38، ص 428.

[2] البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد (ناصر الدين)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط 1، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418 هـ)، ج 2، ص 180.

[3] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم 52 (20/1)

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج2، ص 94.

وفي الحديث دعوة نبوية صريحة لتزكية النّفس من خلال اجتناب الشبهات، فالورع ليس مجرد اجتناب للحرام الصريح فحسب، بل هو مسافة نفسية تمنع الإنسان حتى من الاقتراب من حمى المحرمات ما يجعل عملية تطهير القلب أكثر يسراً وأقل إغراءً. وقد علّق القرافي عند شرحه للحديث قوله: "هُوَ ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة وقيل: هو أن يخلو قلبك ممّا خلت منه يدك"[1]. وهو أعلى درجات التزكية.

مسألة: الفرق بين الورع والزهد.

يكمن الفرق بين مقامي الورع والزهد في كون الورع هو اجتناب المحرمات والمشتبهات، أمّا الزهد فهو ما يبعث على اجتناب المحرمات والمشتبهات وترك المباحات من الشهوات، وقد فرّق القرضاوي بينهما من خلال قول القرطبي بأنّ الْوَرَعُ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ الِاسْمُ إِلَّا لِمَنِ اعْتَنَى بِالْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُشْتَبِهَاتِ، وَالزُّهْدُ مَا يُبْعِثُ عَلَى اجْتِنَابِهِمَا وَتَرْكِ التَّنَعُّمِ بِالْمُبَاحِ مِنَ الشَّهَوَاتِ. فَكُلُّ زَاهِدٍ وَرِعٌ، وَلَيْسَ كُلُّ وَرِعٍ زَاهِدًا؛ إِذِ الْوَرَعُ أَعَمُّ مِنَ الزُّهْدِ"[2][3].

والورع سابق الزهد وممهدٌ له، يقول القرضاوي: "وكذلك الورع يسبق الزهد فهو مقدمة له"[4]. وينقل القرضاوي قول العلامة ابن القيم في الفرق بينهما: "سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول، الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما تخاف ضرره في الآخرة"[5].

---

[1] القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (أبو العباس شهاب الدين)، **الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق**، (القاهرة: عالم الكتب، د.ط، د.ت.)، ج 4، ص 210.

[2] انظر: ابن رشد القرطبي، محمد بن أحمد (أبو الوليد)، **المقدمات الممهدات**، تحقيق: الدكتور محمد حجي، ط 1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408 هـ - 1988 م)، ج 3، ص 392.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج38، ص424.

[4] المرجع نفسه ج38، ص424.

[5] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج2، ص10. لم أجد هذا القول في كتب ابن تيمية في حدود ما بحثت، ويؤكد هذا أن ابن القيم قد أخذه سماعا.

مسألة: دور الورع والزهد في تزكية النّفس عند القرضاوي

حدد القرضاوي آثاراً واضحة للورع والزهد على تزكية النفس، على النحو الآتي:

1. حماية القلب من الانحراف: ذهب القرضاوي إلى أنّ الورع هو الدرع الواقي للقلب من أي شبهة قد تُمرضه، فيقول: "فالورع يمنع دخول الأوساخ إلى القلب، والزهد يمنع التعلق بالأشياء التي قد تلوثه"[1].

ويمثل الورع حصناً للنفس، فهو بطبيعته يحميها من الزيغ نحو المحرمات أو الوقوع فيها. أما الزهد، فيمنع القلب من التعلق بالدنيا، وهو ما يجعله متحررًا من أي قيود تمنعه من السير إلى الله.

2. تحقيق الطمأنينة والسكينة: يرى القرضاوي أنّ الورع والزهد يمنحان النّفس راحة وطمأنينة لا مثيل لهما، حيث يقول: "إنّ الأورع والأزهد هو الأقل همًا والأكثر راحةً، لأنّه لا يُشغل نفسه بما لا يعنيه، ولا يتعلق بما لا يملك"[2].

فالورع والزهد يحرران الإنسان من قلق الدنيا ومطالبها التي لا تنتهي، فمن ترك ما يشتبه فيه استراح قلبه، ومن لم يتعلق بالدنيا، لم يحزن على فواتها، وهذه السكينة من أهمّ ثمار التزكية.

3. ترسيخ الإخلاص والعبودية: يؤكد القرضاوي أنّ الورع والزهد يُقويان الإخلاص في قلب العبد، فيقول: "فمن كان ورعًا زاهدًا، كان قلبه خالصًا لله، لا يبتغي بعمله إلا وجه الله، ولا يتعلق بثناء النّاس أو متاع الدنيا"[3].

فالورع يحمي العبد من الوقوع في الرياء أو الشرك الخفي، ويرفع منسوب الإخلاص لحرصه على ذلك. أمّا الزهد، فيعزّز هذا المنسوب من الإخلاص؛ وذلك لعدم اكتراث العبد لملذّات الدنيا. ويحدد ابن القيم دور كل

[1] القرضاوي، **الورع والزهد**، ص60.
[2] القرضاوي، **الورع والزهد**، ص75.
[3] القرضاوي، **الورع والزهد**، ص90.

من الورع في عالم الزهد ودورهما في باقي أسس التزكية بأنّ التعبد من الورع، والورع من الزهد، والزهد من التوكل[1].

سادساً: المراقبة والمحاسبة: ركيزتان أساسيتان لتزكية النّفس عند القرضاوي.

إنّ تزكية النّفس لا تتحقق بنية عابرة أو إقلاع مؤقت عن معصية، بل هي منظومة نفسية متكاملة تنتظم النّفس على تحقيقها كمنهاج حياة، وتتطلب وعياً مستمراً ورقابة ذاتية حازمة على السلوك الظاهر والباطن. ويرى القرضاوي أنّ المراقبة والمحاسبة هما أداتان فعالتان لتحقيق هذا الوعي، وركيزتان أساسيتان لا يمكن الاستغناء عنهما في طريق تزكية النفس.

ذكر القرضاوي أنّ المقصود بالمراقبة في هذه الدراسة (المراقبة الذاتيّة) التي قال عنها: "نعني بالمراقبة الذاتية من داخل الإنسان نفسه، فهو المراقب لها، وهو الرقيب عليها، وهو المتابع الملاحظ المدقق لحركاتها وسكناتها، وغدواتها وروحاتها..، ما استقام منها ومن انحرف، يرقبه ويرصده ويتابعه، حتى إنه ليرصد حركات نفسه، وخطرات قلبه، وتقلبات نيته"[2].

ثم يضيف القرضاوي معنىً آخر لاستحضار المراقبة الذاتية في النّفس البشريّة، فيقول: "المراقبة أن يرزق الإنسان اليقظة والصحوة. هذه التي تفتح عين قلبه على الحقيقة"[3].

ويؤكد هذا المعنى ابن القيم الجوزية الذي يقول: "دوام علم العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحقِّ سبحانه على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين هي المراقبة"[4].

أمّا في بيان ماهية المحاسبة فيقول ابن القيم: "المحاسبة، وهي التّمييز بين ما له وعليه، فيستصحب ما له، ويؤدِّي ما عليه، لأنّه مسافرٌ سفَرَ من لا يعود"[5].

---

[1] انظر: ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج 2 ص 139.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، المراقبة والمحاسبة، مجلد 39، ص 30-31.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، المراقبة والمحاسبة، مجلد 39، ص 30-31.

[4] ابن القيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج2، ص305.

[5] ابن القيم، **مدارج السالكين**، ج1، ص 259.

مسألة: أدلّة المراقبة والمحاسبة عند القرضاوي في القرآن والسنة

واستند القرضاوي في تأصيله للمراقبة والمحاسبة على أدلّة من القرآن والسنة، مؤكدًا على أنّ هذين المفهومين قد وردا بصريح العبارة في النص القرآني والسنة النبوية؛ لما لهما من دور غاية في الأهمية لتحقيق التوازن السلوكي التزكوي، وقد عزّز القرضاوي مفهومي المحاسبة والمراقبة من القرآن، متمثلاً قوله تعالى عن المراقبة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:1]. وهذه الآية تُرسّخ في النّفس شعور المراقبة الدائمة، وفي ذلك يقول القرضاوي: "المؤمن الحق يعلم أن الله محيط به، وأن علمه محيط به، لا يخرج عنه شيء قليل، ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ٧﴾ [طه:7]، مطّلع على مكنون الضمائر، وعلى خفي السرائر، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ٢٣٥﴾ [البقرة:235]"[1]، وترسخ الآية يقينًا إيمانيًا بأنّ الله لا يغيب عنه شيء، وهو ما يدفع المؤمن ليكون رقيبًا على نفسه قبل أن يحاسبه أحد، ما يجعل التزكية إرادة ذاتية بلا تأثير خارجي.

وصفة (الرقيب) في هذه الآية تُعطي المؤمن إحساساً بقرب الله منه والمراقبة المستمرة، ما يجعله أكثر حرصاً على استحضار المراقبة وتحصيل الاستقامة، وفي ذلك يقول محمد المكي الناصري: "لهم وجدان حي، قوي الحساسية، عميق الشعور، بحيث يراقبون الله في أعمالهم كل المراقبة، ويحرصون على الاستقامة في أحوالهم كل الحرص"[2].

وأما الدليل على المحاسبة فمتمثل في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر:17-18]. وعدّ القرضاوي أنّ الآية صريحة في وجوب محاسبة النفس، فالإنسان

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، مجلد 39 ص 35.

[2] **الناصري**، محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، ط 1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1405 هـ - 1985 م)، ج 3، ص 235.

بصير بعيوب نفسه ولو تظاهر بالأعذار وجادل عنها، فلن ينفعه ذلك يوم القيامة، وهي إشارة إلى ضرورة الرجوع إلى النفس ومحاسبتها وكشف عيوبها قبل فوات الأوان[1].

والآية تدعو إلى المحاسبة الذاتية قبل المحاسبة الربانية، وإنّ هذه النظرة إلى ما "قَدَّمَتْ" تُشجع على تقييم الأفعال والأقوال بجدية، ممّا يدفع النّفس إلى تحسين أدائها في المستقبل، وهي بمثابة وثيقة تعديل دائمة للنفس، تشير بالبنان إلى ما ينبغي ان يقوم أو يعدل في السلوك الإنساني قبل أن يعدل عليه يوم لا ظل إلا ظله.

وعدها بعض أهل العلم أساس المحاسبة، بقوله: "لينظر أحدكم ما قدّم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصّالحات الّتي تنجيه، أم من السّيّئات الّتي توبقه؟ والمقصود أنّ صلاحَ القلب بمحاسبة النّفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها"[2].

وأما من السنة فقد أصّل للمراقبة والمحاسبة بما رواه عمر بن الخطاب أنّ النبي ﷺ قال عن الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإنّ لم تكن تراه فإنّه يراك"[3].

ويرى القرضاوي أنّ هذا الحديث هو جوهر المراقبة والإحسان معاً، فيقول: "هذا الحديث يضع الأساس الأول لتربية المسلم، وهو أن يكون في كل أوقاته مستشعراً وجود الله ومرجّعاً إليه"[4].

وهو يُلخص معنى المراقبة؛ فالشطر الأول "كأنك تراه" يُشير إلى الإحسان، بينما الشطر الثاني "فإنّه يراك" هو التجسيد العملي للمراقبة، ما يحقّق الربط المباشر بالله عز وجل وتحقيق مقام التزكية الحقيقية.

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، كتاب المراقبة والمحاسبة، م 39 ص 115**.

[2] عدد من المختصين، **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم**، إشراف: الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، ط 4، (جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، د.ت.)، ج 8، ص 3324.

[3] **مسلم**، صحيح مسلم، **كتاب الإيمان**، باب: بيان الإيمان ما هو وبيانه وفضله، حديث رقم 8 (36/1)

[4] القرضاوي، **التوبة والإنابة إلى الله**، ص20.

مسألة: أهمية الفصل بين المراقبة والمحاسبة.

ثمة علاقة تكاملية بين المراقبة والإحسان كما بان واضحاً في حديث جبريل عليه السلام، إلا أنّ القرضاوي جمع بينهما باقتضاب في مقدمة مشتركة، ثمّ فصَل بينهما عند الحديث عن كلّ منهما في كتابه (موسوعة الأعمال الكاملة)، ما يؤكد أهمّية الفصل الموضعي بينهما، لا الانفصال التامّ. وفي هذا تصويب الاهتمام نحو كل منهما على حدة لإبراز فعالية كل منهما في تحقيق التزكية، أما أهمية الفصل بين المراقبة والمحاسبة فتكمن بما يلي:

أ. **المقاربة الزمنية:** إنّ الفصل بين المراقبة والمحاسبة يُعطي لكل منهما إطاراً زمنياً خاصاً به؛ فالمراقبة شعورٌ مستمرٌ برقابة الله في الحركات والسكنات. أما المحاسبة، فهي عملية دورية تحدث في أوقات محددة (يومياً، أسبوعياً، شهرياً) للمراجعة، تحمل في طياتها محاسبة للعمل. يقول القرضاوي عن المحاسبة: "لابد من وقفة مع النفس، لابد أن يتعود الفرد المؤمن وتتعود الجماعة المؤمنة من هذه الوقفات مع النفس، حساب الأنفس"[1]. وهذا يُشير إلى أنّ المحاسبة ليست عملية آنية، بل هي وقفة تقييم دورية ينبغي ان تكون بشكل ممنهج في حياة العبد.

ب. **الهدف والوظيفة:** لكل من المراقبة والمحاسبة أداء وظيفي مختلف جوهريا فالأولى تصنع قوة ردع داخلية تمنع النّفس من ارتكاب المعصية، أمّا الثانية فتحاسبها على ما قامت به من أعمال بهدف الإصلاح وتصحيح المسار، الأمر الذي يعين الإنسان على التصويب نحو مصدر الخلل من ضعف في المراقبة من خلال تكرار الذنوب، أو ضعف المحاسبة من خلال عدم الاعتبار بالأخطاء.

ويستنتج هذا من كلام القرضاوي نفسه، فعندما يتحدث عن المراقبة، يربطها بالاستحياء من الله، حيث يقول: "المراقبة هي أن تستحيي من ربك، أن يراك حيث نهاك"[2]. أما المحاسبة، فيربطها بالتصحيح بعد

[1] خطبة مسجلة للقرضاوي بعنوان "وقفة محاسبة مع نهاية العام، أُلقيت الخطبة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في 25ذو الحجة 1420هـ – 31 مارس 2000م. https://www.youtube.com/watch?v=tofKyF7dWMw"

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص11.

وقوع الخطأ، فيقول: "يُحاسب نفسه ليتطهر ممّا كان، ويحاسب نفسه ليكون أحسن وأفضل فيما يكون"[1]، ما يشير إلى جوهر دور كل منهما.

ج. **الجانب النفسي:** يرى الباحث أنّ النّاس متفاوتون في قدراتهم النفسية، فمنهم ما تجيد نفسه تحقيق المراقبة بشكل أكثر إثراءً لها من المحاسبة، التي تحتاج إلى قدرة من النقد الذاتي والاعتراف بالخطأ. ومنهم من يحمل قوة النّقد الذاتي لكنه لا يستحضر قيمة المراقبة في سائر أيامه وأعماله. فالفصل بين المفهومين يُسهّل على النّفس تطبيق كل منهما وانسجام الافراد مع قدراتهم الذاتية لتحقيق مقام التزكية.

مسألة: دور المراقبة والمحاسبة في تزكية النّفس عند القرضاوي

لا تقتصر المراقبة والمحاسبة على كونهما أدوات، بل يراهما القرضاوي نظاماً متكاملاً يعمل على إعادة صياغة النّفس البشرية، لتخرج العباد من الفوضى والغفلة إلى الانتظام واليقظة. إنهما نظام داخلي يُرشد النّفس في طريقها نحو الربانية. وهذا بيان رؤيته لدورهما في صياغة ارتقاء النّفس:

أ. المراقبة: مجسّات القلب الفاعلة: يرى القرضاوي أنّ المراقبة تعمل عمل المجسّات أو عمل الراصد الذي يعمل على مدار الساعة في قلب المؤمن يرصد حركاته وسكناته وخواطره وهواجسه ويذكره بأنّ الله حاضر معه لا يغيب عنه مثقال ذرة من خردل. وهو يربط بين المراقبة الدائمة لله وتجنب المعاصي، حيث يقول: "الإنسان لا يتساهل مع نفسه، لابد أن يحاسبها ويراقبها، لأنّ الله تعالى يراقبه"[2]. وبذلك يجعل عملية التزكية حيّة نابضة على مدار الساعة.

ب.المحاسبة: التوازن الذي يركز في النّفس من خلال ميزان المحاسبة: يُشبّه القرضاوي المحاسبة بقاضٍ يجلس مع النّفس في نهاية كل يوم، فيسأل: ماذا فعلت؟ ولماذا فعلت؟ وكيف كان بإمكانك أن تكوني أفضل؟ هذه الجلسة اليومية من النقد الذاتي تُمثل نقطة تحول حاسمة[3]. حيث يقول: "يحاسب الإنسان

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص11.

[2] القرضاوي، خطبة مسجلة بعنوان "وقفة مع النفس" 2025/09/19م، https://www.youtube.com/watch?v=nQN8AEGidmU.

[3] القرضاوي، خطبة مسجلة بعنوان "الهجرة ومحاسبة النفس"،2025/09/9م، https://www.youtube.com/watch?v=lNaBlVPysKk

نفسه في عام مضى، ماذا فعل؟ ماذا كسب وماذا خسر؟ كما يفعل التاجر الناجح على رأس كل عام"[1]. فهي ميزان يعيد للنفس توازنها إلى أنّ تتضاءل نزعة المعصية فتستقر النّفس بهذا الميزان على درب التزكية.

ج. تكامل الأداتين: الارتقاء نحو الربانية وسمو النفس: يؤكد القرضاوي أنّ المراقبة والمحاسبة لا يمكن أن يعمل كل منهما بمعزل عن الآخر؛ فالمراقبة بلا محاسبة تُشبه رادارًا يُنبّه دون أن تُصحح الأخطاء، والمحاسبة بلا مراقبة تُشبه قاضيًا يحكم على جريمة لم يقرأ عنها، حيث يقول: "إذا حاسبتها (النفس) وراقبتها، جنسيتها (أي ارتقيتها) تنتقل إلى النّفس اللوامة، هذا هو شأن الإنسان المؤمن أنّه يريد أن يترقى دائمًا"[2]. فالمراقبة والتزكية معًا تشكلان تعانقاً وتكاملاً رفيعاً ومتناسقاً، فالأول يوقظ الضمير والثاني يصحح المسار نحو تطهير القلب، ما يوقظ الضمير مرة أخرى، ثمّ محاسبة مرة أخرى، وهكذا بشكل دوري حتى تنتقل النّفس من مرتبة إلى أخرى أسمى منها تحقق أعلى مراتب ومقامات تزكية النفس.

د. المحاسبة ونجاحات الآخرة: يُشبّه القرضاوي المحاسبة في الحياة بمحاسبة التاجر، ليُبرز أهميتها في تحقيق النجاح الحقيقي، حيث يقول: "التاجر الواعي هو الذي يحاسب نفسه آخر كل عام، ليُجرد حساب الأرباح والخسائر، ليحاول أن يتفادى الخسائر ويزداد من الأرباح. هذا في أرباح الدنيا، فما بالكم بأرباح الآخرة وخسائرها"[3].

ويُشير هذا التشبيه إلى أنّ الهدف الأسمى من المحاسبة هو تحقيق النجاح في الآخرة، وهو ما لا يمكن تحقيقه إلا بمحاسبة مستمرة ودقيقة للنفس في الدنيا. فمن لم يحاسب نفسه اليوم، سيُحاسَب غدًا.

---

[1] القرضاوي، خطبة مسجلة بعنوان "**وقفة محاسبة مع نهاية العام**، 31 مارس 2000م.
https://www.youtube.com/watch?v=tofKyF7dWMw

[2] القرضاوي، خطبة مسجلة بعنوان "**تزكية النفس**" 2025/09/19م، https://www.youtube.com/watch?v=iRJrbxbQgag.

[3] القرضاوي، خطبة مسجلة بعنوان "وقفة محاسبة مع نهاية العام"، 2025/09/19م،
https://www.youtube.com/watch?v=szg6EwVKQ-k.

إنّ المراقبة والمحاسبة هما بمثابة بوصلة ودفة سفينة النفس؛ فالمراقبة تُحدد الاتجاه الصحيح، والمحاسبة تُعيد السفينة إلى مسارها إذا حادت، وبهما معًا يستطيع الإنسان أن يسلك طريق تزكية النفس، ليُحقق الفلاح في الدنيا والآخرة.

المبحث الثاني: خصائص تزكية النفس.

لتزكية النّفس البشريّة وفق تعاليم الإسلام خصائص تميزها عن أي منظومة تزكويّة أخرى، تلك المنظومة التزكويّة التي أطلق عليها القرضاوي الحياة الربّانيّة لها خصائص تمّيزها عن أي حياة روحية في الأديان الأخرى. وقد ذكر القرضاوي هذه الخصائص على النحو الآتي:

المطلب الأول: الشمول خصيصة لتزكية النّفس عند القرضاوي.

عند القول بأنّ من خصائص التزكية عند القرضاوي الشمول، فإنّ ذلك يعني عدم قصر مجال التزكية على العبادات المحضة فقط، بل يتعدى ليشمل كل جوانب حياة المسلم. وفي سياق ذلك يرى القرضاوي أنّ التزكية لا تقتصر على الجوانب الروحية أو العبادية المحضة، بل تمتد لتشمل كل جوانب حياة المسلم: الفردية، الأسرية، الاجتماعية، السياسية، والاقتصادية[1]. ويعزز هذه الفكرة في كتابه (الربانية والعلم) في سياق حديثه عن الامتداد والشمول، كون "المسلم لا يعيش حياتين متناقضتين، روحية مستقلة ومادية منفردة. بل هي حياة واحدة تمتزج فيها الروحانية بالمادية امتزاج الروح بالجسم والعصارة بالغصن، فالحياة الروحية للمسلم حياة ممتدة عميقة نافذة شاملة تسحبه في جلوته وخلوته في البيت، وفي الطريق والعلم والعمل والسفر والحضر وعند النوم واليقظة، فليست الحياة الروحية للمسلم مقتصرة على المسجد عند أداء العبادة الشعائرية"[2]. وهو يرى أنّ هذه الخصيصة هي ما يميز المنهج الإسلامي عن المناهج الأخرى التي قد تركز على جانب واحد وتهمل الجوانب الأخرى.

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، م 37، ص 41.

[2] المرجع السابق م 37، ص 41.

ويؤكد هذا المعنى عبد الكريم زيدان بقوله: "ومن خصائص نظام الأخلاق في الإسلام الشمول، ونعني به أنَّ دائرة الأخلاق الإسلامية واسعةٌ جدًّا، فهي تشمل جميع أفعال الإنسان الخاصة بنفسه أو المتعلقة بغيره، سواء أكان الغير فردًا أو جماعة أو دولة"[1].

واستند القرضاوي في تأصيله لمفهوم الامتداد والشمول إلى أدلّة من القرآن والسنة، مؤكداً أنّ لهذا المفهوم حضوراً في النصوص الشرعية، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [البقرة:115]. يرى القرضاوي أنّ هذه الآية تُرسّخ في النّفس شعور الشمولية الكاملة، حيث يقول: على المسلم أن يكون "مع الله دائماً لا يغفل عنه لا ينسى ذكره ولا يهمل رقابته"[2]. وفي ذلك إبراز لشمولية التزكية في حياة العبد ومناحي أعماله، وهي بمثابة رفض فصل الدين عن الحياة أو بعضها، وهو ما يُمثل ثورة فكرية عند القرضاوي على المفاهيم التي تدعو إلى حداثة وتجديد الخطاب الديني عبر إقصاء الدين عن الحياة العامة.

ويوضح سيد قطب أنّ هذه الآية تجعل العبد يعيش في حالة دائمة من الشمول، حيث يقول: "والآية تقرر أنّ كل اتجاه قبلة، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابد. وإنما تخصيص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعة، لا أنّ وجه الله سبحانه، في جهة دون جهة، والله لا يضيق على عباده ولا ينقصهم ثوابهم، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتهم. وفي الأمر سعة"[3].

واستدل على الشمول من السنة النبوية ما رواه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال: "إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء"[4]. وقد عدّ القرضاوي هذا الحديث جوهر الشمول، فيقول: "والمسلم في أعماله الدنيوية المحضة من زراعة وصناعة وتجارة وإدارة، ليس معزولاً عن الحياة الروحية، فهو مطالب بأن

---

[1] عبد الكريم زيدان، **أصول الدعوة** (الطبعة التاسعة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ – 2001م)، ص 89.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، الربانية والعلم، مجلد 37 ص 42.**

[3] قطب، **في ظلال القرآن** (105/1)

[4] أخرجه **مسلم** في **كتاب الصيد والذبائح**، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، برقم 1955.

يراقب الله في عمله، فيتقنه، فلا يغش ولا يخون ولا يظلم"[1]، وهو يلخص مفهوم التزكية، نحو الشمول لكل الأعمال الظاهرة.

لذا فإنّ القرضاوي يدعو إلى أنّ تلقي الحياة الروحية ظلالها على سائر مناحي حياة الإنسان، ومع ذلك، "هو مطالب ألا يلهيه أمر دنياه عن واجبه نحو ربه فإذا نادى المنادي حي على الصلاة انتشل نفسه من لجة الأشغال الدنيوية، ليقف بين يدي ربه مناجياً خاشعاً، وهو ما وصف الله به رواد مساجده وعمار بيوته بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور :37]"[2].

ثانياً: آثار خصيصة الامتداد والشمول كمظهر تزكوي عند القرضاوي.

للامتداد والشمول عند القرضاوي آثار واضحة على الفرد والمجتمع، وهي على النحو الآتي:

أ. الشمول يقتضي توجيه كل عمل نحو الله: اعتبر القرضاوي حين ربط بين نية الإنسان وغايته أنّ المؤمن الذي يدرك أنّ كل عمله لله يتحول إلى عنصر فاعل وإيجابي في بيئته، فقال: "على أنّ المسلم بنيته الصالحة، واتجاهه الصادق إلى الله، يستطيع أن يجعل أعماله الدنيوية عبادات وقربات إلى الله تعالى"[3]. وفي ذلك بناء لنموذج المسلم الذي يشكل عضواً حيوياً وإيجابياً في مجتمعه ليكون مثالاً يحتذى به. وفي سياق ذلك يقول علي صبح: "لأنّ امتثال أمر الله ونهيه، وصهر الأعمال بالنية الخالصة لوجه الله تعالى، تحول العقود والمعاملات، وأي عمل دنيوي ومادي إلى عبادة يُثاب عليها المرء عند الله، لأنّها تُضفي على هذا العمل لباس التقوى، وتضفي عليه طابعًا روحيًّا"[4].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، الربانية والعلم**، مجلد 37 ص44.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة، الربانية والعلم**، ج37، ص44.

[3] المرجع السابق ج37، ص44

[4] علي علي صبح، **التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية** (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت)، ص 317.

ب.الامتداد يحقق التوازن والاعتدال: يُسهم الامتداد والشمول في تحقيق قيم التوازن والاعتدال، وهي ثمرة تتجلى بوضوح في خصيصة الربانية أيضاً؛ فعلى خلاف المناهج التي تغلب الجانب الروحي وتُهمل الأبعاد العملية والدنيوية، كما لدى بعض الاتجاهات الصوفية، يتبنى القرضاوي رؤيةً متوازنة ترفض الرهبنة والانعزال، وتدعو إلى دمج القيم الروحية بواقع الحياة المعاش، ويؤكد على أنّ "المسلم الرباني هو الذي يوازن بين حق ربه وحق نفسه وحق أسرته وحق مجتمعه"[1]. ويؤكد الشاطبي على هذا المبدأ، فيقول: "فسبحان الله الذي فرض الفرائض وحرم المحارم وأوجب الحقوق رعاية لمصالح العباد في المعاش والمعاد، وجعل شريعته الكاملة قياماً للناس وغذاء لحفظ حياتهم، ودواء لدفع أدوائهم، وظله الظليل الذي من استظل به أمن من الحرور، وحصنه الحصين الذي من دخله نجا من الشرور، فتعالى شارع هذه الشريعة"[2].

والحقّ أنّ المسلم ليس بحاجة أساساً لرهبانية أو عزلة تربطه بالله، بل بإمكانه أن يتصل بربّه بكل عمل يعمله دنيوي كان أو أخروي بصلاح النية وإخلاص العمل.

ج. الشمول فيه تحقيق مفهوم الاستخلاف في الأرض: إنّ الشمول والامتداد عند القرضاوي لا يقتصران على تزكية الفرد في نفسه، بل يمتدان لتزكية المجتمع بأسره، عبر تفعيل دور المسلم كخليفة في الأرض، ممّا يجعل من ميزتي الامتداد، والشمول، وسيلة للإصلاح والبناء المنبثق عن مبدأ علمي صرف. ويقول إسحاق السعدي في سياق حديثه عن العلم والاستخلاف: "ومن هنا كانت عناية العلماء المسلمين بأنواع كثيرة من العلوم التي تتصل بحياة الأُمّة الإسلاميَّة وسيادتها، وأداء رسالتها في الاستخلاف، وقبل ذلك بسبب مفهوم العلم كما جاء في القرآن الكريم والسنّة النبويَّة، فقد جاء العلم بمفهوم (مطلق كل الإطلاق، شامل كل الشمول، ولا يقيده قيد، ولا يحده حد، وأنّه قابل باستمرار للتقدم والزيادة والتغيير والتطوير)"[3].

---

[1] القرضاوي، **الحلال والحرام في الإسلام**، ص18.

[2] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ – 1991م)، ج 3، ص 161.

[3] إسحاق بن عبد الله السعدي، **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه** (الطبعة الأولى، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1434هـ – 2013م)، ج 2، ص 847.

د. الشمول فيه صيانة المنهج من الانحراف: إنّ الامتداد والشمول عند القرضاوي هما الصيانة الحقيقية للمنهج من الانحراف بخلاف بعض المناهج الأخرى، المشبّعة بالبدع والخرافات. فتحقيق الامتداد والشمول يقتضي أن تكون التزكية وفقاً لما جاء به الشرع من كتاب وسنة، بعيداً عن البدع والخرافات. وهو تجسيد لفكر القرضاوي في التزكية، والذي يعيدها إلى مصادرها الأصيلة، ويرفض الأساليب الصوفية الغالية أو الرهبنة التي لا تتوافق مع مبادئ الإسلام ووسطيته[1].

وفي ختام حديثنا يمكن القول إنّ الامتداد والشمول عند القرضاوي يمثلان خصيصة تزكوية عنوانها الخير المطلق في كل عمل؛ فيذكر في هذا السياق ما رواه سعد بن أبي وقاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنّ المؤمن ليؤجر في كل شيء حتى "اللقمة يضعها في فم امرأته"[2]، ويقول: "ومقتضى ذلك ان تغدو الأرض كلها مسجداً للمسلم، يتعبد فيه لربه، وتصبح أعماله كلها قربات إلى الله جل جلاله، فهو يشعر دائماً أنّه في محراب صلاة، لأنّه أبداً مع الله"[3].

المطلب الثالث: اليسر والسعة من خصائص تزكية النّفس عند القرضاوي.

تُمثل السعة واليسر ركيزةً جوهرية في منهج التزكية عند القرضاوي؛ إذ تهدف إلى رفع الحرج ودفع المشقة عن المكلف، ممّا يجعل من تهذيب النفس مسلكاً واقعياً قابلاً للتطبيق في مختلف الظروف والأزمان. فالتزكية في منظوره ليست رياضةً شاقة منعزلة، بل هي منهجٌ عملي يراعي النفس البشرية ويجتنب الغلو أو تحميل النفس ما لا تطيق.

أولاً: مفهوم اليسر والسعة عند القرضاوي.

يعرّف القرضاوي الحياة الروحية في الإسلام بأنها قائمة على اليسر والسعة فيقول: "فالحياة روحية في الإسلام برغم امتدادها وشمولها واستمرارها، حياة سهلة ميسرة، لا تكلف الإنسان شططاً، ولا ترهقه عسراً، ولا تحمله

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص155.

[2] **البخاري**، صحيح البخاري، **كتاب الإيمان**، باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى، حديث رقم 56 (20/1)

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص45.

من الآصار والأغلال ما يقصم ظهره، فهو غير مكلف إلا بما في وسعه، ولا مطالب إلا بما يستطيعه ويقدر عليه دون مشقة شديدة"[1]. فهو يرى أنّ التزكية لا يمكن أن تتحقق في قناة عمل ضيقة ومرهقة، بل تحتاج إلى مساحة من المرونة والتسامح تسمح للإنسان باجتناب الحرج في أداء ما يحبه ووفق القواعد الربانية القائمة على نفي الحرج وتحقيق مبدأي اليسر والسعة لتحقيق مبدأ التطهر في سبيل التزكية.

ثانياً: أدلّة اليسر والسعة عند القرضاوي في القرآن والسنة.

استند القرضاوي في تأصيله لمفهوم اليسر والسعة إلى أدلّة من القرآن والسنة، مؤكداً أنّ هذا المفهوم متأصّل في النّصوص الشرعية، وينمّ عن رحمة الله بعباده ورفع الحرج عنهم.

فمن القرآن الكريم قول الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ ٧٨﴾ [الحج:78]. وعدّها القرضاوي أنّها تُرسّخ في النّفس شعور التيسير الكامل. بقوله: "لا غرو أن وجدنا القرآن ينفي الحرج عن هذا الدين نفياً كلياً"[2]. ويوضح ابن تيمية في تفسيره أنّ بالنفي العام نفى كل ما يطلق عليه حرج، والله لا يوجب ما فيه ضيق، ولا يمنع ما فيه سعة[3].

وقوله تعالى في سياق ذكر صفاته صلى الله عليه وسلم عند أهل الكتاب: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:157].

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص47.

[2] القرضاوي، **فقه الصيام**، ص44.

[3] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج 20، ص 200.

ويقول القرضاوي معلقاً على الآية الكريمة: "فهذا هو عنوان رسالته عند أهل الكتاب، وهو ناطق بما تحمله من السعة والتيسير، ورفع آصار التكاليف الثقيلة التي كانت على من قبلنا"[1]. ما يدلّ على أنّ حياة الإنسان في ظل هذا الدين العظيم هي حياة ميسرة فيها من السعة واليسر الكثير.

وفي سياق حديثه عن اتساع الحياة الروحيّة لكل مراتب الناس ذكر القرضاوي ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما تقرب إلي عبدي بأفضل ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه"[2]. يرى القرضاوي أنّ الحديث يتضمّن مكانة اليسر والسعة في الإسلام من خلال التنوع في العبادات والطاعات، فالمؤمن لا يقتصر على الفرائض لأنها توصل إلى منزلة القرب، بل يزيد بالنوافل التي ترقيه إلى منزلة الحب الإلهي، وهي مقام السابقين بالخيرات بإذن الله[3]. وفي هذا الحديث إشارة واضحة إلى أنّ الإسلام لا يحصر العبادة في حيّز ضيّق، بل يوسع مجالاتها لتحقيق اعلى درجات القربى من الله.

المطلب الرابع: التوازن والاعتدال من خصائص تزكية النفس عند القرضاوي

يعدّ التوازن والاعتدال من أهمّ خصائص التزكية عند القرضاوي، لما يحملان من دحضٍ لمفاهيم التشدّد والغلوّ، فقيمتا التوازن والاعتدال، ذواتا البنية الوسطية، تجعلان التزكية عملية ممكنة التطبيق، لكونهما عابرتين لتحديات الزمان والمكان.

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص48.

[2] أخرجه البخاري، في **كتاب الرقاق**، باب التواضع، برقم 6502 (105/8)

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الربانية والعلم، م 37 ص49.

أولاً: مفهوم التوازن والاعتدال في فكر القرضاوي.

عدّ القرضاوي التوازن والاعتدال بأنّهما مبدآن يقومان على عدم التشدد أو المغالاة في الدين، والابتعاد عن تحميل النّفس فوق طاقتها، فيقول في سياق ذلك: "فالحياة الروحية في الإسلام كما شرعها الله ورسوله حياة معتدلة، متوازنة ومتناسقة مع جوانب الحياة المادية الأخرى، فلا يقبل فيها التنطّع ولا الغلو، الذي يجور به المسلم على نفسه، وعلى حقوق الآخرين"[1]. فهو يرى أنّ التزكية لا يمكن أن تتحقق في ظل منهج متشدد يناقض الفطرة، بل تحتاج إلى مساحة واسعة من الاعتدال والتوازن، يسمح بالبقاء في إطار الوسطية والمرونة.

ويؤكد هذا المعنى القاضي أبو يعلى الذي يقول: "وسنته مليئة بتعليم الناس التوازن والاعتدال في العبادات، والجمع بين التمتع بالمباحات في الدنيا، والعمل للآخرة"[2].

ثانياً: أدلّة التوازن والاعتدال عند القرضاوي في القرآن والسنة.

استنبط القرضاوي مفهوم التوازن والاعتدال استناداً إلى أدلّة من القرآن والسنة تحمل معاني هذه الخصيصة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢﴾ [الأعراف:31-32]، حيث يرى القرضاوي أنّ هذه الآية تحقق في النّفس مبدأ التوازن والاعتدال في الأمور كلها، وفي ذلك يقول: "والقرآن الكريم في غير موضع منه، شدد الإنكار على الذين حرموا طيبات ما أحل الله، وبين لهم أن الله تعالى خلق لهم ما في الأرض جميعا، وما كان سبحانه ليخلقها لهم، ثم يحرّمها عليهم! كل ما طلبه منهم أن يتناولونها باعتدال، بلا إسراف ولا تقتير، وألا يُعتدى فيها على حق أحد، وأن يشكروا نعمة الله فيها، بالاستعانة بها على طاعته

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الربانية والعلم، ج37، ص51.

[2] ابن الفراء، أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت 458هـ)، **التوكل**، حققه وعلق عليه: د. يوسف بن علي الطريف (الطبعة الأولى، الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع، 1435هـ - 2014م)، ص 59.

وعدم استخدامها في معصيته، وإفساد أرضه"[1]، وقوله تعالى هو بمثابة التطبيق للتوازن والاعتدال، ومن ذلك التنعم بنعم الله التي أحلها لنا بلا إسراف ولا تبذير مع المداومة على تقوى الله في كل أعمالنا.

وأورد من السنة النبوية ما يعزز مبدأ التوازن والاعتدال ومن ذلك ما رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم في رده على الثلاثة الذين غلوا في الصيام والقيام واعتزال النساء[2]، فخطب بهم قائلاً: "إنّما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[3]. وفي هذا الحديث يتمثّل جوهر التوازن والاعتدال عند القرضاوي، فيقول: "إنّ الحياة الروحية الإسلامية لا تقتضي من المسلم أن يديم صيام النهار وقيام الليل وبذلك يجور على حق بدنه في الراحة وحق عينه في النوم وحق أهله في المؤانسة وحق مجتمعه في المعونة. وقد أنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على من غلا من أصحابه في العبادة والزهد مبينا لهم طريق الاعتدال ومنهج التوازن وهو طريقه ومنهجه صلى الله عليه وسلم. أي سنته التي يجب اتباعها، ولا يجوز رفضها"[4].

ويرى القرضاوي في خلاصة حديثه عن هذه الخصيصة أنّه لا حرج على المسلم أن يستمتع بطيبات المأكل والمشرب، والملبس والزينة، والمسكن والمأوى، والحياة الزوجية، والهو والترويح، وهو في قمة ارتقائه الروحي[5].

رابعاً: آثار خصيصة التوازن والاعتدال كمظهر تزكوي عند القرضاوي.

للتوازن والاعتدال عند القرضاوي آثار واضحة على الفرد والمجتمع، على النحو الآتي:

1. الفاعليّة والتكافل: على النقيض من المسالك التي يطغى فيها جانبٌ على آخر، يبرز التوازن عند القرضاوي كضمانةٍ لصبغ التزكية بصبغة الاعتدال، لتتحول إلى محركٍ فاعلٍ في بناء التكافل الأسري والمجتمعي؛ فالمتزكي الحقّ ليس هو المنعزل عن الخلق، بل هو الذي يقيم ميزان العدل بين حق ربه

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، مجلد 37 ص 53.
[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، مجلد 37 ص 52.
[3] أخرجه **البخاري**، في **كتاب النكاح**، باب الترغيب في النكاح، برقم 5063 (2/7)
[4] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، مجلد 37 ص 52.
[5] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج37، ص53.

ونفسه ومجتمعه، ممّا يصنع منه قدوةً مجتمعية حية، ويؤكد أن الروحية في الإسلام لا تقتضي الانقطاع عن الحياة، بل الرقي به ولا يجور فيه المسلم على: "حق أهله في المؤانسة وحق مجتمعه في المعونة"[1].

2. صيانة للمنهج من الانحراف: عدّ القرضاوي التوازن والاعتدال الصيانة الحقيقية للمنهج من الانحراف بخلاف بعض المناهج الأخرى المشبعة بالبدع والخرافات، فالتوازن والاعتدال يرتكزان على أنّ التزكية يجب أن تكون وفقاً لما جاء به الشرع من كتاب وسنة، بعيداً عن الرهبانيّة والغلو. وهو تجسيد لفكر القرضاوي في التزكية الذي يعيدها إلى مصادرها الأصيلة. وفي ذلك يقول:" فإنّ المكلف الذي يخرج عن حد الوسطية والاعتدال، يدخل لا محالة، في دائرة العسر والحرج. لم يطلب الإسلام من المسلم أن يعتزل الناس والحياة، يتعبد لله في صومعة أو يترهب في دير، بل أنكر على الذين ابتدعوا الرهبانية من عند أنفسهم، ثم لم يرعوها حق رعايتها"[2].

وختاماً، يُعدّ التوازن والاعتدال في فكر القرضاوي الخصيصة الضامنة لاستقامة السالك على جادة الطريق الرباني؛ فهما لا يمثلان مجرد فضيلة أخلاقية، بل هما الضابط الذي يحفظ للمتزكي فاعليته الاجتماعية وحضوره الإيجابي، ليغدو نموذجاً جامعاً للقيم الإيمانية والدنيوية، ومحققاً لمفهوم التزكية الشاملة التي تجعل من الفرد لبنةً صالحة في بناء المجتمع وروحاً متصلةً بخالقها، وهذا ما يؤكده محمد الفنجري، حيث قال: "ولقد علمنا واقع الحياة وقسوة التجارب أن كل التزام بمنهج الإسلام في التوازن والاعتدال فيه نجاح وراحة وسعادة الإنسان، وكل خروج عنه فيه فشله ومعاناته وبؤسه، وصدق الله العظيم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ١٤٣﴾ [البقرة:143]"[3].

---

[1] القرضاوي، موسوعة **الأعمال الكاملة**، ج37، ص52

[2] المرجع السابق.

[3] الفنجري، محمد شوقي (ت 1431هـ)، **الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول** (القاهرة: وزارة الأوقاف، د.ت/د.ط)، ص 22.

المطلب الخامس: التنوع من خصائص تزكية النفس عند القرضاوي

يبرز القرضاوي التنوع كقيمة وخصيصة أساسية في رحلة التزكية. ولا يقصد بالتنوع اختلاف الأجناس والألوان، بل تنوع العبادات، ووسائل التزكية الظاهرة والباطنة، ممّا يثري المؤمن تزكوياً، ويفتح أمامه طرق وأفكار متعددة للسمو بنفسه كل حسب ميوله وما تركن وترتاح إليه نفسه.

أولاً: المقصود بالتنوّع عند القرضاوي

ويقصد بالتنوّع عند القرضاوي المجال الرحب الذي يحوي بداخله كافة أنواع العبادات والطاعات وأعمال الخير. والتنوع عنده فيه فرص متعددة، فيقول: "لا يحبس (المسلم) نفسه على نوع معيّن من التعبد أو الجهاد الروحي. إنّ أمامه فرصاً جمة، ومجالات رحبة، يصول فيها ويجول، ويشهد كل إنسان فيها ما يشغل طاقته، ويشبع نهمته، وينقع غلته. فقد نوع الإسلام في مطالبه الروحية من الإنسان المؤمن ما بين قول وعمل، وفعل وترك، وإلزام وتطوع، وعمل جارحة وعمل قلب، وما بين ليل ونهار، وسر وعلانية"[1].

فالتزكية هنا ليست نمطاً واحداً يُفرض على الجميع، بل هي مساحة رحبة تجمع بين عبادات الجوارح وأعمال القلوب، وبين الواجبات والمندوبات، ممّا يتيح لكل مؤمن أن يجد المساحة التعبديّة التي يبرع فيها ويُروي بها ظمأه الروحي؛ وهذا التنوع هو الذي يضمن استدامة السلوك إلى الله دون ملل، ويحول التدين إلى حياة كاملة بالليل والنهار، والسر والعلانية.

وورد في مجلّة البيان: "كما أنّ العبادات تتعدد وتتنوع ما بين صيام وصدقة وصلاة – وهذا من رحمة الله وحكمته – كذلك أيضاً تتعدد أساليب الدعوة ومجالاتها وتتنوع ما بين وعظ وخطابة، وأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأليف وتصنيف وتربية وأعمال خيرية وإغاثة...إلخ، وهذا التعدد في الدعوة والعمل في الإسلام، يصب في قناة (اختلاف التنوع) حيث يعمل الجميع على محاولة سد حاجات المجتمع وتصحيح مساره بشتى

[1] القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ص54، ج37.

الأساليب وعبر جميع الوسائل والطرق في سبيل نهوض الأمة الإسلامية وإيقاظها من رقدتها وسباتها العميق"[1].

ثانياً: أدلّة التنوع من القرآن والسنة عند القرضاوي

يستمد القرضاوي رؤيته للتنوع من مصادر التشريع الإسلامي الأساسية؛ القرآن الكريم والسنة النبوية، ويعرض أدلّة متعددة لبيان خصيصة التنوع تشير بمجملها إلى تحقيق التنوع في العبادات، ومن ذلك ما يختص بالتفكير في مخلوقات الله ومنها الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [سورة الذاريات:20-21]، ومنه ما يختص بالتدبر لكتاب الله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص:29]. حيث يرى أنّ هذه الآيات إشارة إلى التنوع في العبادات الروحيّة، وهذا يؤكد على أنّ التزكية لا تقتصر على باب واحد، بل تتنوع طرقها بتنوع الأشخاص وقدراتهم.

ثم يشير القرضاوي إلى التفاوت في الأجر بين العبادات، فيقول: "ومع هذا التنوع الرحب في الأعمال، فهي ليست في درجة واحدة، بل متفاضلة تفاضلاً كبيراً، فالنوافل دون الفرائض، وفرائض الكفاية دون فرائض العين، وفرائض العين المتعلقة بحق الفرد، دون الفرائض المتعلقة بحقّ الجماعة. والأعمال المقصورة نفعها على صاحبها مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة ليست كالأعمال التي يتعدى نفعها إلى الغير، وكلما اتسعت دائرة المنفعة بالفعل كانت قيمته أرفع ومثوبته أكبر". ما يدفع المؤمن إلى بلورة منظومة العمل التزكوي التي تلائمه، وتلائم شخصيته، في السرّ والعلن، في الليل والنهار، في عمل الخير والعمل الدنيوي، بناء على التوصيات الربانية والنبوية.

واستدل القرضاوي من السنة النبوية بجملة من الأحاديث تفيد معنى التنوع منها ما رواه أبو هريرة: "ما تقرب إليّ عبدي بأفضل ممّا افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه

[1] **مجلة البيان**، مجموعة من المؤلفين، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد 238، ص 98.

الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها"[1]. ومنها ما اختص بعمل الجوارح كاليد، ما رواه المقدام بن معد يكرب: "ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده"[2]. ويرى القرضاوي أنّ هذا الأحاديث وغيرها تجسد فكرة التنوع في العبادات على أوسع نطاق، فالتزكية تشمل كافة أبواب الخير ابتداءً من كلمة التوحيد حتى إماطة الأذى عن الطريق. فلا حجة لأحد أمام الله عز وجل يوم عرض الخلائق وسوق النفوس المتحجرة أن يدعي شحّ الفرص لتقويم اعوجاج النّفس وتطهيرها وتصحيح مسارها.

ويقول القرضاوي في عرضه لساحات عمل الخير: "إنّ ساحة العمل الروحي فسيحة وأنواعها كثيرة، ولكنّ المؤمن البصير هو الذي يتخير منها ما يناسب حاله"[3].

رابعاً: دور التنوع كخصيصة لتزكية النّفس عند القرضاوي.

يؤكّد القرضاوي على أنّ للتنوع دوراً فعالاً في تزكية النفس، فهو ليس مجرد مفهوم نظري، بل هو منهج عملي يؤدي إلى نتائج ملموسة، على النحو الآتي:

أ. التنوع يوسع آفاق العبادة: يرى القرضاوي أنّ التزكية لا تقتصر على أداء الصلوات والصيام، بل تمتد لتشمل تنوع أشكال العبادة. فمن النّاس من يجد تزكية نفسه في طلب العلم، ومنهم من يجدها في مساعدة الآخرين، ومنهم من يجدها في التفكر او التدبر او التقرب إلى الله بالنوافل[4]، ما يشير إلى أنّ العبادة لا تنحصر في قالب واحد أو نمطية واحدة ما يفسح الطريق أمام الأفراد لسلوك السبل التعبدية التي يرى فيها استخلاص لطاقته ومواهبه وميوله، شريطة تأدية الفرائض أولاً.

---

[1] أخرجه البخاري، في **كتاب الرقاق**، باب التواضع، برقم 6502 (105/8)

[2] أخرجه البخاري، في **كتاب البيوع**، باب كسب الرجل وعمله باليد، حديث رقم 2072 (57/3)

[3] القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ج37، ص58.

[4] انظر: القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ج37، ص54،55.

ب. لذا فإنّ "أبواب الخير كثيرة ولا تنحصر فيما ذكرناه وعلى المسلم أن يسابق إليها، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ١٤٨﴾ [البقرة:148]"[1].

ت. توسيع دائرة فعل الخير: كما ذكرنا فإنّ دائرة الخير كبيرة وأبوابها كثيرة، لكن هذا لا بد أن يكون وفق تناسب معين بين أفعال الخير وبين أنماط النّاس النفسية وتخصصاتهم العملية. وفي ذلك يقول القرضاوي أنه لا ينبغي للغني أن يركز تعبده الأعظم على صيام الاثنين والخميس أو صيام داود، وهو يهمل إنفاق ماله في سبيل الله كأولى عبادة له، ولا ينبغي للطبيب أن يتعبد بالوعظ وهو يترك علاج مرضى المسلمين وتحريرهم من استغلال الأطباء المتاجرين، ولا ينبغي للإمام أو الحاكم أن يحج كل عام، وهو غافل عن رعاية رعيته وإعطاء الحقوق وتأديب المتجاوزين، فأفضل عبادة لكل إنسان ما أليق بحاله ومقدرته ونِعم الله عليه[2].

وبذلك يكون التنوع عند القرضاوي خصيصة أساسية في عملية تزكية النفس، فهو ليس مجرد حقيقة واقعة، بل هو منهج عملي لتطهير النّفس من خلال تحقيق التزكية في ظل العديد من أبواب الخير، وتوسيع آفاق العبادة، وما يتلاءم وأحوال البشر النّمطية ومواقعهم التخصصية والاجتماعية. بل إنّ فهم التنوع يحرر المؤمن من النمطية، ليكون أكثر قدرة على العطاء.

[1] آل متعب، **قبسات من هدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في رمضان**، ص 47.

[2] القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، ج37، ص58.

الفصل الثالث

وسائل تزكية النّفس ومجالاتها عند الشيخ القرضاويّ.

المبحث الأول: وسائل تزكية النّفس عند الشيخ القرضاويّ.

بعد التتبع والنظر وُجد أنّ وسائل التزكية عند الشيخ القرضاويّ، تمثلت بالمراقبة والمحاسبة والصبر والشكر والخوف والرجاء، وجاءت هذه الوسائل في سياق بيان معاني التزكية على المستوى الفردي وكيفية تحقيقها على المستوى الجماعي بكامل هيئاته الاجتماعية المؤسساتية وعلى صعيد الدولة والأمة والعالم، وبيان هذه الوسائل حسب الآتي:

المطلب الأول: المراقبة.

الوسيلة الأولى من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي.

يقصد بالمراقبة عند القرضاويّ: المراقبة الذاتية من داخل الإنسان نفسه، فالمُراقِب هو من يمتلك رقابة ذاتية صارمة، تجعله مُدققًا ومتابعًا لكل حركاته وسكناته، صغيرها وكبيرها، ظاهرها وباطنها. هذا التتبع يشمل حتى خطرات قلبه وتقلبات نيته الداخلية، دون الحاجة لرقابة أو اطلاع من أي أحد من الخلق[1].

وهذا الجهاز الداخلي الموكّل بالرقابة الذاتية هو ما جدده الشيخ القرضاويّ في تعريفه للمراقبة، كأنّما يؤسّس رحمه الله لجيل جديد في الأمّة المسلمة، يتسلح بمعاني المراقبة الذاتية، لتكون إحدى ركائز المراقبة على الصعيد الجماعي، والاستشعار الدائم والمستمّر بأنّ الله تعالى مطّلع على العبد في كل أحواله وأفعاله وموقعه في ثغر الاسلام، في السر والعلن، في الخلوة والجلوة. إنّها أعلى مراتب الإحساس بوجود الله تعالى، وأشمل أنواع التقوى، حيث تتجاوز مراقبة القوانين البشرية إلى مراقبة الذات من الداخل.

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص30.

أولاً: مرتكزات المراقبة عند القرضاويّ:

يرى القرضاوي أنّ يقظة القلب، وحياة الضمير من ناحية، والإيمان بالله والخوف منه من ناحية أخرى، هما مرتكزا المراقبة التي لا تتحقق إلا بهما، وهما بالغا الأهمية لاستحضار حالة الرقابة الذاتية، وبلوغ أعلى مراتب الشعور بالله.

المرتكز الأول: القلب اليقظ: إنّ يقظة القلب وحياة الضمير مرتكز أساسي للمراقبة، فلا بدّ للإنسان أن يكون يقظ القلب متيقناً من أنّ أعماله تسير وفق ما يحبّه الله ورسوله، وأن ينأى بنفسه عن الغفلة التي لا تقوده إلا إلى الضلال، واستفحال هوى النّفس عليها، فالمراقبة هي أن تعيش بيقظة قلب دائمة لا تعرف الغفلة، وهي الخطر الأكبر الذي ينسي المرء ربه ومصيره. أنّها يقظة تمنع الاستسلام الكامل لحظوظ النّفس والدنيا، وتوجّه السلوك نحو إدراك حق الله والتفكر في الآخرة[1].

المرتكز الثاني: الإيمان بالله والخوف منه: وهي المراقبة الذاتية من داخل الإنسان بطبيعة تكوينه التي تجعل النّفس رقيبة على ذاتها، وقائدة لها، فانقياد الإنسان الحقيقي ينبع من داخله؛ من القلب والعقل لا من الظاهر أو الجوارح. هذه القيادة الداخلية والتحكّم الذاتي تتولّد بالأساس من قوة الإيمان واليقين والتقوى والحياء من الله[2].

ثانياً: أدلة المراقبة الذاتية التي ساقها القرضاويّ:

ذكر القرضاويّ عدة أدلة من القرآن تدلّ على حقيقة المراقبة الربانية بشكل عام كمشكاة ومصدر للمراقبة الذاتية، لكنه جعل الآية 179 من سورة الأعراف هي الأصل؛ لبروز معالم الرقابة الذاتية فيها، وما ورد فيها من ذكر للأعضاء الداخلية والخارجية الموكلة بالمباشرة الفعلية للمراقبة الذاتية، والآية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص30.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص33.

ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:179].

ويعلّق القرضاويّ على حالة الغفلة المذكورة في تفسير العلماء محذراً من آفاتها وآثارها العقيمة، وما تؤول إليه من تعطيل أجهزة اتصالها بالآيات الكونية، لأن هؤلاء الناس يمتلكون قلوبًا وأعينًا وآذانًا معطلة لا تؤدي وظيفتها الحقيقية في الفهم والإبصار والسمع؛ لأنهم لم يستخدموها للاعتبار والاهتداء والتفكر، لذا، لا تُجدي الآيات والنُذر نفعًا لهؤلاء الذين فقدوا الإيمان وقوّة الإدراك، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس:101][1].

ويرى الباحث بأنّ تحقيق الرقابة الذاتية الفردية ركن أساسي لكل القوانين الرامية إلى العمل على تشكيل جهاز رقابي جماعي على كافة الأصعدة، فهي أولى أساسات المنظومة الرقابية للجماعات، بل إنّ القرضاويّ وصفه بأنّه "القانون من داخل النفس"[2]. فالقانون الأسمى هو الذي ينبع من داخل النفس؛ إذ يدفع الإنسان لترك الحرام، بل وحتى الشبهات، خشيةً من الله وصونًا لدينه. ويؤكد القرضاوي أنّ غياب هذه الرقابة الذاتية هو السبب المباشر لانهيار المؤسسات، وتعطيل مصالح الناس، وأكل الحقوق ونهب الممتلكات بالباطل[3].

وقد ربط ابن القيم ربطاً مباشراً بين تزكية النّفس وبين الرقابة الذاتية، التي يجب أن يتحلى بها كل من سالك الطريق إلى الله؛ ذلك لأنّه رحمه الله يشير إلى أنّ أصل كل الأمراض القلبية التي تقف حائلاً أمام تزكية النّفس إنّما هي الغفلة التي تصد كل نفس عن هداها، فيقول: "عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها، وتمكنت منها أيدي الغفلة والجهالة فأغلقت أبواب رشدها وأضاعت مفاتيحها، وران عليها كسبها فلم ينفع فيها الكلام، وسكرت بشهوات الغي وشبهات الباطل، فلم تصغ بعد إلى الملام، ووعظت

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص31.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص32.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص32.

بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام، ولكن ماتت في بحر الجهل والغفلة، وأسر الهوى والشهوة، وما لجرح بميت إيلام"[1].

وفي ضوء ما سبق من بيان مفهوم المراقبة وُجد أنّ المراقبة الذاتية أو الجهاز الذاتي الموجود في الإنسان، هو الذي جعله دائماً يستحضر تقوى الله في قلبه ويخلي طريقه من درائن الذنوب، ليتحلى بالطاعات وبأعمال القربى إلى الله، ويمنع بذلك تعطيل الأجهزة الربانية من قلوب وأعين وآذان، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف:179].

وقد ورد في مسألة المراقبة الذاتية حديثاً نبوياً هو بلا ريب أصل يحمل كافة معانيها؛ لأنّه يؤكد العلاقة القوية والدامغة، بل علاقة التلاصق التام بين الإحسان، الذي هو قلب التزكية، وبين المراقبة التي هي وسيلة أصيلة لتحقيقه، ففي الحديث النبوي الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا سئل عن الإحسان، أجاب: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك"[2]، وبلا شك جعل النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان والذي هو مرادف للتزكية مقامَ مراقبةٍ قلبيّةٍ، بأن يستحضر العبدُ كأَنَّهُ يَرَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ.

وقد ساق الشيخ القرضاويّ كلام ابن القيم في شرحه لهذا الحديث ولبيانه كيفية كون المراقبة أساس الأعمال القلبية، وذكر موجباتها من حياء وسكينة ومحبة وغيرها، ويبرز القرضاويّ رحمه الله من كلام ابن القيم ما يثبت هذه الجزئية التي اعتنى في بحثها من سائر اشكال المراقبة، حيث يقول ابن القيم في إعلام الموقعين في سبب استيلاء السكينة الإيمانية: "مراقبة العبد لربه جل وعلا حتى كأنّه يراه وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء والسكينة والمحبة والخضوع والخشوع والخوف والرجاء ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة

[1] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين، ابن قيم الجوزية، **تفسير القرآن الكريم**، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان (بيروت: دار ومكتبة الهلال، ط1، 1410هـ)، ص 128.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، حديث رقم 50 (19/1)

أساس الأعمال القلبية كلها وعمودها القويم الذي لا قيام لها إلا به، ولقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم أصول أعمال القلب وفروعها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان، "أن تعبد الله كأنّك تراه". فتأمل كل مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه"[1].

ولقد ربط محمد رشيد رضا رحمه الله ربطاً مباشراً بين المراقبة وبين التزكية فقال: "وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى والاستغراق في تعظيمه وتقديسه أكبر معدل للنفوس ومؤهل لها لضبط النّفس ونزاهتها في الدنيا ولسعادتها في الآخرة"[2].

ثالثاً: دور المراقبة في تحقيق تزكية النّفس عند القرضاويّ:

يرى القرضاوي أنّ أهمية المراقبة تكمن في الأبعاد الفردية والمجتمعية، إضافة إلى ما تحققه من غايات، منها القرب من الله، والحماية من الذنوب، والثبات على الحق، وبيان ذلك على النحو الآتي:

1. الصلاح الفردي: تُصلح المراقبة الإنسان من داخله، فتجعله يخشى الله في كل أفعاله، ويترك المحرمات والمكروهات[3].

2. صلاح المجتمع: إذا راقب الأفراد الله تعالى في أنفسهم استقام المجتمع، فالمسلم من سلم الناس من لسانه ويده وبذلك يكون مصدرَ سلام وأمان لمن حوله لا يضر أحداً من البشر، ويكون بذلك مصدر رحمة لعباد الله، والمسلم يراقب ربه آناء الليل وأطراف النهار مراعيا حقوق نفسه وحقوق غيره من الناس[4].

---

[1] محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين **ابن قيم الجوزية**، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ 1991 / م)، ج 4 ص 155.

[2] محمد عبده. **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م، ج 2، ص 11

[3] انظر: القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، م 39، كتاب المراقبة والمحاسبة، ص 84.

[4] انظر: المرجع السابق، م 39، ص 84

3. الشعور بمعيّة الله: تُعد المراقبة طريقاً لتحقيق معيّة الله، حيث يشعر العبد بأنّ الله معه ويراه. وفي سياق تعليق القرضاوي على الآية: ﴿إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة:40]، عدّ القرضاوي الآية بمثابة استحضار النبي لمعية الله في الشدائد نظرا لتحقيق حالة المراقبة لديه[1].

4. الحماية من الذنوب: المراقبة تحصّن الإنسان من الوقوع في الذنوب، سواء كانت صغيرة أو كبيرة؛ كي لا يهلك بذنوبه، لأنّ العبد يدرك أنّ الله يراه ويحاسبه[2]. قال الجنيد: "من تحقق فِي المراقبة خاف عَلَى فوت حظه من ربه"[3].

5. المراقبة أساس التقوى: المراقبة أساس التقوى وهي سبب فلاح المؤمن، وبها ينال الجنة ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ٦٣﴾ [مريم:63]،وسر التقوى في القلب، وبها يدفع الإنسان المعاصي عن نفسه، ويتحلى بثوب الخشية[4].

رابعاً: علاقة التزكية بالمراقبة عند القرضاويّ

المراقبة هي المدخل إلى الإحسان وهو جوهر التزكية، فلا يمكن أن يصل العبد إلى مرتبة الإحسان دون أن يكون لديه شعور دائم بالمراقبة، فالمراقبة هي الاستحضار الدائم لعلم الله واطلاعه، بينما الإحسان هو ثمرة هذا الاستحضار، حيث يدفع العبد إلى إتقان العبادات والأعمال، وإخلاص النية لله، والشعور بحضوره في كل لحظة، وتظهر علاقة التزكية بالمراقبة من خلال الآتي:

1. أنّ المراقبة هي الأساس الذي يُبنى عليه الإحسان. فمن يراقب الله في السر والعلن، سيحقق الإتقان ويحصل على رضى المراقب وكسب ثقته[5].

---

[1] انظر: القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، م 39، ص 93.

[2] انظر: القرضاوي، **الموسوعة الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، م 39، ص 43.

[3] القشيري، **الرسالة للقشيري**، ج1، ص330.

[4] انظر: القرضاوي، الموسوعة الكاملة، كتاب المراقبة والمحاسبة، م 39 ص 98.

[5] انظر: لمرجع السابق م 39 ص 98.

2. الإحسان هو التطبيق العملي للمراقبة، حيث يتحول هذا الشعور إلى إتقان في العبادة والسلوك والمعاملة، وكلما استحضرت المراقبة زاد الإحكام والإتقان في العمل[1].

3. مقام المشاهدة: وهو أعلى مراتب الإحسان هو (مقام المشاهدة)، حيث يرى العبد ربه بقلبه، ويشعر بقربه منه، فإن لم يتحقق له ذلك نزل إلى مقام المراقبة وهو استحضار رؤية الله للعبد واطلاعه عليه[2].

والخلاصة أنّ المراقبة والإحسان (هما رديف التزكية) وجهان لعملة واحدة، لا ينفكّ أحدهما عن الآخر. فالمراقبة هي وعاء التزكية وثمرته في آنٍ واحد، وبهما يُحقق المسلم أعلى مراتب القرب من الله، وينال رضاه، ويسعد في الدنيا والآخرة، ويُصبح قدوة حسنة لنفسه ولمجتمعه[3].

وقد أكّد ابن القيم على هذه العلاقة بأنّ المراقبة هي استدامة علم العبد ويقينه باطلاع الله سبحانه على ظاهره وباطنه دائما، فهي ثمرة استحضاره أن الله رقيبٌ عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ لقوله، مطلعٌ على فعله في كل لحظة وطرفة عين[4].

المطلب الثاني: المحاسبة.

الوسيلة الثانية من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي.

سبق الحديث حول منشأ المراقبة، وأنّ تحقيقها لا بدّ أن يصدر من داخل الإنسان نفسه، بواسطة أجهزة مراقبة ربانية داخلية تصدر منها معالم التزكية، وكذا هو شأن المحاسبة، فإنّها تصدر هي الأخرى من داخل الإنسان المسلم، فتبعث فيه روح العمل والحاجة الملحّة لتزكية نفسه وثباته في رحلة السائرين إلى الله، من خلال المساءلة الداخلية وتفعيلها في حياة الفرد والجماعة.

---

[1] انظر: المرجع السابق م 39 ص 98.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة ج39، ص57.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص44.

[4] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج2، ص305.

وهو ما اجتهد القرضاويّ على تأكيده عند بيان مفهوم المحاسبة كوسيلة لتزكية النّفس لتطفو على السطح اللبنات المشتركة لمعالم الأخلاق والسلوك، حيث قال: "محاسبة المرء نفسه في دنياه على أحواله وأعماله الظاهرة والباطنة، بل على خطراته ونياته قبل أن تتحول إلى عمل، وقبل أن يحاسبه ربه، ويسأل نفسه بعيداً عن النّاس قبل أن يصير السؤال إلى غيره، ويزن أعماله بالميزان الشرعي الشامل، الذي يشمل أعمال الجسم وأعمال الروح قبل أن توزن عليه بميزان حساس دقيق، لا يفلت منه مثقال ذره، ولا مثقال حبة من خردل"[1]. كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء:47].

أولاً: أدلة المحاسبة التي احتج بها القرضاويّ:

ساق القرضاوي أدلة كثيرة من آيات وأحاديث نبوية ذات أبعاد تزكوية، تشير إلى أهمية محاسبة النفس، وتدعو إلى تحقيق هذه الأبعاد في خضم الحياة الربانية والأعمال الدنيوية، قبل فوات الأوان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨﴾ [الحشر:18].

وفي تفسير هذه الآية ساق القرضاويّ تفسير ابن كثير لها؛ لما فيه من بيان واضح للعلاقة بين المحاسبة وتزكية النفس، ولما فيه من تدعيم رأي القرضاويّ في المسألة، ولكونه يتفق مع الأصول العامة لفقه الأخلاق والسلوك الذي أبدع القرضاويّ التأليف فيه. فقال ابن كثير: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكمٌ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد ثانٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم، لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب من أموركم جليل ولا حقير"[2].

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص113.

[2] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج7، ص235.

فقد بان في الآية الكريمة أنّ للمحاسبة دوراً عظيماً في رفع الهمم لادّخار الأعمال الصالحات وتعزيز منسوب مبدأ التحلية بعد التخلية.

ثم استدل القرضاويّ بالآية التي تذكر صفة اللوم النفسي (النفس اللوامة)، لكونها الأرضية الخصبة لنمو قيمة المحاسبة في نفس الإنسان وما فيها من تأييد رأيه، وهي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة:1-2]. قال ابن تيمية في فصل تزكية النفس: أن النفس اللوّامة هي التي تدفع صاحبه لفعل الذنب ثم تلومه على ذلك وتتلوّم عليه وتتردّد هل يفعل أو لا[1]، "وقد أقسم الله عز وجل بها وذكرها مع يوم القيامة دلالة على شرفها ومنزلتها وبيان لضرورة المحاسبة وأهميتها"[2].

وهو ما يشير دون أدنى ريب، بأنّ المحاسبة تبدأ من الداخل وأنّ منشأها هذا النّوع من أنواع الأنفس، التي تشكل طاقة هائلة تصدر من داخل الإنسان لتضمن ثباته على وضعية المحاسبة الدائمة، كي لا يزيغ عن درب التزكية، فيهوى في مهالك الذنوب وظلمات المعاصي. وهو ما أكده الحسن البصري رحمه الله بقوله: "إنّ العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته"[3].

ومن الأحاديث التي استدل بها القرضاويّ في محاسبة النّفس ما رواه "حنظلة الأسدي رضي الله عنه-وكان من كتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- قال: لقيني أبوبكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة. قال سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي العين. فإذا خرجنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات، فنسينا كثيراً. قال أبو بكر: فوالله، إنا لنلقى مثل هذا. فانطلقت أنا وأبو بكر حتى دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت: يا

---

[1] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **فصل في تزكية النفس**، اعتنى به فواز محمد العوضي، الطبعة الأولى، الكويت: مكتبة النهج الواضح، 1439 هـ - 2018 م، ص 25.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص115.

[3] ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد، **محاسبة النفس**، تحقيق المستعصم بالله أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1406 هـ - 1986 م، ص 25.

رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين. فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيراً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة، وساعة ثلاث مرات"[1].

ثانياً: أركان المحاسبة عند القرضاوي:

اعتمد القرضاوي على ابن القيّم فيما أخذه عن الهروي، لبيان أركان المحاسبة لأنها تنسجم ورؤيته لمتعلقات التزكية ومنها: العلم والسلوكيات الضرورية لتحقيق المحاسبة وكذلك المنطق السليم لأركان المحاسبة، فساق ما ذكره في كتابه (مدارج السالكين) على النحو الآتي:

أولاً: المقايسة بين النعم والجنايات لتعلم ما هو من الله وما هو منك لتعلم حقيقة نفسك وصفاتها وعظمة الله وتفرده بالكمال، ثمّ تقايس بين الحسنات والسيئات لتعلم أيهما أكثر نصيباً.

ثانياً: العلم المبني على قوة تمييز ما عليك من وجوب العبودية والتزام الطاعة واجتناب المعصية لتأدية ما عليك تحصل على ما لك.

ثالثاً: اجتناب الغرور بالطاعات لأنّ الرضا بها هو جهل بالنفس وانسجاما مع حماقاتها وأنّ أهل الصلاح أشد ما يكونون استغفاراً بعد الطاعات وذلك لعلمهم اليقين تقصيرهم فيها[2].

[1] مسلم، **صحيح مسلم** :كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، برقم: 2750 (5/4) حديث صحيح.

[2] انظر: ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين**، ج1، ص188.

ثالثاً: مجالات المحاسبة:

كما هو معلوم من الدين بالضرورة، فإن الشيطان لا ييأس من تسلله إلى قلوب البشر من أي ثغرة يجد فيها ضالة الشر وهي كثيرة في زماننا، فقد وضع القرضاويّ عدة مجالات للمحاسبة بحيث تكون صمام الأمان من الوقوع في براثن الشيطان، والمجالات هي:

أ. المحاسبة على المعاصي الظاهرة والباطنة: لقد اختار القرضاويّ ألصق الآيات القرآنية بهذا المجال، فذكر أولاً قول الله عز وجل: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام:120].

وفي معرض بيان ما تشتمل عليه المعاصي المذكورة في الآية الكريمة، يقول القرضاويّ: "ويشمل ظاهر الإثم وباطنه كل معصية صغيرة أو كبيرة، ظاهرة أو خفية، كما تشمل معاصي القلب من حسد وحقد وسوء ظن واحتقار للمسلم، ونحو ذلك"[1].

ولكي يضفي إلى أقواله بعداً عملياً تطبيقياً فإنّ القرضاويّ يزودنا بالطريقة المطلوبة شرعاً للمحاسبة، والمتمثلة بإنشاء حوار دائم بين العبد ونفسه، يشمل آليات اللوم والتذكير والوعيد، ما يفضي إلى الطموح الدائم في تخليتها من المعاصي باستحضار خطورة المعصية وعواقبها، فهي سموم مهلكة للدين والدنيا والآخرة[2].

ومن عجيب صنع الله أنّه أودع في البشر أجهزة ربانية موكّلة بتصحيح مساره في الدنيا، وبتحقيق معالم التزكية، من تخلية للذنوب وتحلية بالصالحات من الأعمال الظاهرة والباطنة، والثبات عليهما.

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب المراقبة والمحاسبة، ج39، ص132.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص132.

وقد أكّد القيرواني[1] على هذا الجانب، وعلى مهام أجهزة المحاسبة ودورها في الدنيا، وكيفية المساءلة يوم القيامة، فيقول: "يسأل السمع على حدة عما سمع، ويسأل البصر على حدة عما بصر، ويسأل القلب عما عزم عليه"[2].

المجال الثاني: المحاسبة على النية والقصد.

إنّ الإخلاص الذي يبدأ بالنية والقصد الخالصين لوجه الله وحده دونما تسلل أي حظ فيهما لغيره هو أساس قبول الأعمال؛ ولهذا كانت أولى الآيات التي ساقها الشيخ القرضاويّ في معرض بيان هذا المجال الهام من مجالات المحاسبة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة:5]، فيجب محاسبة النّفس على النية والقصد من أي عمل لضمان سلامة العمل من الرياء المُحبط، فالرياء قد يسبق العمل أو يصاحبه أو يكون نتيجة له[3].

ولهذا اهتم القرضاويّ بإيراد نموذج عملي يكشف أهمية بقاء المحاسبة حية وفعّالة قائمة بانتظام واستمرار على كافة أجزاء المحور الزمني للعمل، ابتداءً من النية والقصد، فالعابد قد يُفسد عمله الخالص (ركعتين بخشوع) بالوقوع في الغرور والعُجب بعد فراغه، عندما يلاحظ نظرة استحسان الناس، ويهمل ضبط نفسه بالمحاسبة[4]. فالمحاسبة ليست مجرد مراجعة للأفعال الظاهرة، بل هي مسار موازٍ يبدأ من أعماق النّفس (النية والقصد)، وكلما دقّت جذورها في النية، زادت أهميتها في ضمان سلامة العمل من الرياء.

ويرى الخازن أنّ القصد والنية محلهما القلب أولاً، خلال تفسيره لقوله تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ ۝٦٥﴾ [غافر:65]، "الإخلاص عبارة عن النّية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرّياء، وهو تنبيه على ما يجب من

[1] هو يحيى بن سلام (ت 200هـ)، إمام في التفسير والحديث واللغة، ولد بالكوفة ونشأ بالبصرة ثم انتقل إلى القيروان بإفريقية وبها اشتهر وتوفي، ويعد تفسيره من أقدم وأهم التفاسير المسندة التي حفظت لنا آراء السلف في التفسير.

[2] يحيى بن سلام، **تفسير يحيى بن سلام**، تحقيق: هند شلبي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004)، ج. 1، ص. 135.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص133.

[4] انظر: المرجع نفسه ج39، ص133.

تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه مقرين له بالعبودية، وقيل قاصدين بقلوبهم رضا الله تعالى بالعبادة "[1].

المجال الثالث: المحاسبة على تفويت الطاعات وتضييع الأوقات:

هذا النوع من المحاسبة موجّه إلى الغافلين من النّاس –المقصرين في جنب الله– الذين يفوّتون الأوقات وتمتد بهم الأزمنة دون أن يتزودوا بما أمر الله جل وعلا من عبادات وطاعات، غافلين عن حظوظ الآخرة وتحقيق نصيبها من منجيات الأعمال الدنيوية، وقد ساق القرضاويّ الآية القرآنية لبيان ذلك وهي قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [سورة الزمر :56].

ثم وجد رحمه الله في قول ابن القيم ما يعينه على فهم الآية من بيان حال الغافلين استعداداً للقاء الله، فذكر على لسانه تعليقه على الآية بقوله: "فاستقبل بقية عمره مستدركاً بها كل ما فات، محيياً بها ما أمات، مستقبلاً بها ما تقدم بها من العثرات. ثم يبرق له في نور اليقظة بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفاق عمله، وما تقدم له الجنايات والإساءات، وهتك الحرمات، والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه رأى أنّ حقّ المنعم عليه في نعمه وأوامره، لم يُبقِ له حسنة واحدة يرفع بها رأسه، انكسرت نفسه وخشعت جوارحه"[2]. ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه ان يؤثر عليه غيره[3].

ج. المحاسبة على النعم:

كما أغدق الله عز وجل علينا بهذا الكم الهائل من النّعم الذي لا يعدّ ولا يحصى فإنّ البشر لا بدّ أن يكونوا محاسبين على استخدامهم وتحقيقهم لهذه النعم في أيامهم وواقعهم الحياتي والعملي. وقد اختار القرضاويّ

[1] الخازن، علي بن محمد (741هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415 هـ، 4/ 455.

[2] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **الروح**، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، الطبعة الثالثة، 1440 هـ، ج. 2، ص. 635.

[3] المرجع السابق ج. 2، ص. 635.

الآية الكريمة: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:34]. ليحمل القارئ على استشعار كرم الله وعظيم نعمه وكثرتها، فبيّن مضمون هذه النعم وذكر الهيئة الباطنية التي ينبغي حضورها لدى استقبال نِعم الله على العباد التي لا تُعدّ، وأهمها الإيمان والأمن والإسلام والسلام والصحة والفراغ والأولاد والذرية، ونحو ذلك ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾، ولذلك ينبغي على المسلم أن يستشعر نعم الله، ويحاسب نفسه على القيام بشكرها، ويعاتب نفسه إذا تهاونت في شيء من النعم أو استقلت بشأنه[1].

وإذا كان الأمر على درجة عالية من الأهمية، فإنّه يصبح من الضروري للعبد أن يكون تطبيقه للمحاسبة مصحوباً بكثير من الدقة والتركيز ؛ ذلك لأنّ مصيره مرهون بكيفية الحساب إذا نوقشه بين يدي الله، وحصول ذلك يكون بتفعيل جهاز المحاسبة في كل عمل باطن أو ظاهر أشغل فيه هذه النعم، من سمع وبصر وفؤاد ومن نعم مادية أو معنوية أخرى.

وقد أبدع ابن القيّم حينما تحدّث عن التدقيق والتركيز والتصريف للأعمال في ظل نعيم الله على خلقه حيث قال: "والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله، وصرف في حقه فيسأل عن شكره. ونوع أخذ بغير حله، وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه فإذا كان العبد مسؤولاً ومحاسباً على كل شيء، حتى على سمعه وبصره وقلبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:36]. فهو حقيق أن يحاسب نفسه قبل إنّ يناقش الحساب"[2].

المجال الخامس: محاسبة النّفس على الخواطر

كما أسلفنا فإنّ محاسبة النّفس تبدأ أولاً من الخواطر التي تقتحم الأنفس دونما استئذان، وقد جعله القرضاويّ من مجالات المحاسبة، وساق لنا دليلاً واضحا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص132.

[2] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751 ه)، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، الرياض: مكتبة المعارف، ج. 1، ص. 84.

وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ"[1]. فطالما بقيت الهواجس والخطرات في إطار "حديث النفس" (دون عمل أو قول)، فإنّ المرء لا يؤاخذ ولا يُحاسب عليها؛ لكونها خارجة عن سيطرته التامة، وهذا من فضل الله ورحمته على العباد[2].

ورغم أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أكّد في الحديث أنّ حديث النّفس يتجاوزه الله ما لم يخرج إلى حيز التطبيق، إلا أنّ بعض العلماء حثّوا على مدافعة الخاطرة واستقصائها عن حاضر وواقع الإنسان حتى لا تتحول إلى فكرة، فشهوة فعادة، كما قال ابن القيم رحمه الله: "دافع الخطرةَ؛ فإن لم تفعل صارت فكرةً؛ فدافع الفكرة؛ فإن لم تفعل صارت شهوةً؛ فحارِبْها؛ فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمَّةً؛ فإن لم تُدافعها صارت فعلًا؛ فإن لم تتداركهُ بضدِّه صار عادةً، فيصعُبُ عليك الانتقالُ عنها"[3].

وفي ضوء حديث القرضاويّ عن المحاسبة كوسيلة لتحقيق تزكية النّفس، فإنّه لا بد لها من هيئة تكون عليها ليتسنى أمر المحاسبة وتطبيقها العملي دونما معوقات، وهذه الهيئة كالآتي:

- اليقظة والحزم: يؤكد الشيخ القرضاوي أنّ الإنسان يجب أن يكون يقظاً لأفعاله ساعة بساعة وينبغي لهأن يقسم وقته حتى لا يضيع عبثاً وإن كان ولا بد فساعة لدينك وساعة لدنياك.

  فالحزم والاحتياط أن تنظر لنفسك، فالدنيا ثلاثة أيام كما قال الحسن البصري: الأمس الذي ذهب بما فيه، والغد الذي قد لا ندركه، واليوم الذي هو لك فاعمل فيه[4].

- حياة الضمائر: كنا قد أشرنا إلى أنّ القرضاويّ أطلق على تزكية النّفس مصطلح مركب سماه: "الضمير الحي"، وسماه القرآن: "النفس اللوامة"، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ

[1] البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حنث ناسيا في الإيمان، حديث رقم 2528 (8/ 135)

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، المحاسبة والمراقبة، ج39، ص132.

[3] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ)، **الفوائد**، تحقيق: محمد عزير شمس، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، الطبعة الرابعة، 1440 هـ، ص. 45.

[4] عويضة، محمد نصر، **فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب** (3/ 609)

تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ [الأعراف:201]. والحياة الحقيقية يتميز بها أصحاب القلوب السليمة الحية الذين يُحاسبون أنفسهم محاسبة شاملة على كل من الكبائر والصغائر، وتظهر حياة قلوبهم في الفرح بالطاعة والحزن والندم على المعصي[1].

فالمحاسبة المستمرة تضمن الاستعداد الدائم لدرء الأهواء والذنوب، وهي شرط أساسي لدخول القلب في مسار التزكية والثبات عليه، فالمحاسبة والتزكية قيمتان متلازمتان لا تنفكان.

المطلب الثالث: الصبر

الوسيلة الثالثة من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي

اختار الشيخ القرضاوي أنّ يسوق كلام ابن القيم في تعريفه للصبر، فقد جعل الصبر مقاماً من مقامات التزكية التي لا تتحقق إلا به، للمنزلة الرفيعة التي يتمتع بها الصبر ولدوره الأصيل في مقام التزكية، وهذا ما يهدف إليه القرضاويّ في كتاباته حول مقامات التزكية ووسائلها، وهو إبراز مقام الصبر كمقام رفيع من مقامات الأخلاق السامية الربانية تتخلق به النّفس لبلوغ التزكية. وقد ساق تعريف ابن القيّم للصبر، حيث قال: "هو خلق فاضل من أخلاق النفس، يمتنع به من فعل من لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوة النّفس التي بها صلاح شأنّها وقوام أمرها"[2]. والصبر موازنة بين استخدام قوة الإقدام للاندفاع نحو ما ينفع، واستخدام قوة الإحجام للإمساك والامتناع عما يضر[3].

وأكّد القرضاوي أنّ الصبر من صفات المؤمنين وأن جزاءه يكون بقدر ما بلغ الإنسان من الصبر فيتعزز بذلك إيمانه، فقال: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:10]. "ولذلك كانت صفة الصبر دائماً ضمن صفات

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص148-49.

[2] ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751ه)، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، الطبعة الرابعة، 1440 ه، ص. 19.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الصبر والشكر، ج39، ص 378.

المؤمنين الممدوحين في القرآن الكريم. فقال تعالى عن أهل التقوى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:15-17]"[1].

لقد منح الله الصابرين المقام الرفيع لتحمّلهم مرارة البلاء. وينبغي للصبر أن يقترن بحسن الأدب مع الله ومع البشر، وهو ليس خياراً، بل هو واجب على المؤمن، الذي يستعذبه طمعاً بالفوز في الآخرة.

وقد كان أبو طالب المكي[2] ممن ربطوا بين الصبر وبين بلوغ اسم المراتب في الآخرة ربطاً مباشراً، فقال: "واعلم أنّ الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار، لأنّه جاء في الخبر: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"[3]. فيحتاج المؤمن إلى الصبر عن المكاره، ليدخل الجنة ويحتاج إلى الصبر عن الشهوات، لينجو من النار"[4].

أولاً: حكم الصبر: وردت آيات في القرآن الكريم تؤكد وجوب الصبر وأنّه نصف الإيمان وأنه مقرون بالشكر، فالإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم على أنواع كثيرة على رأسها الأمر بالصبر على إطلاقه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة:153]. وقال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:45]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الصبر والشكر، ج39، ص383.

[2] هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي (ت 386هـ)، إمام زاهد وعالم بالحديث والرقائق، ولد في الجبل (بين العراق وإيران) ونشأ بمكة وبها اشتهر، من كبار مشايخ الصوفية الأوائل. كتابه "قوت القلوب في معاملة المحبوب" يعد من أمهات كتب التربية والسلوك، وله أثر كبير في صياغة علم التصوف السني. ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ج 3، ص 432؛ والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج 16، ص 536

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث رقم 2822 (1274/4)

[4] المكي، محمد بن علي (ت 386 هـ)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، 1426 هـ، ج. 1، ص. 336.

تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ [آل عمران:200]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل:127].

وذهب ابن رجب الحنبلي إلى أنّ الرضا مندوب، والصبر واجب على كل مؤمن[1].

ويرى القرضاويّ يتحدد بناءً على نوع الشيء المصبر عنه أو المصبر عليه، أي طبيعة التكليف الشرعي المتعلق به[2].

ثانياً: دور الصبر في تحقيق تزكية النّفس عند القرضاويّ: إنّ طريق الحياة الربانية طويل يبدأ منذ الصغر وينتهي في اللحد، يواجه الإنسان فيه تحديات جمة، يحتاج في خضمّها أنّ يتسلح بكم هائل من الصبر حتى يبلغ أن يكون صباراً شكوراً. وقد أطلق القرضاويّ على أحد أشكال الصبر: الصبر النفسي، مشيراً إلى ما يحمل من رصيد هائل للإيمان وهو الأصل الذي تندرج تحته معظم شعب الإيمان والأخلاق الحسنة. فكل خلق فاضل (كالعفة، والشجاعة، والحلم، وكتمان السر، وضبط النفس) هو في حقيقته نوع من أنواع الصبر يختلف اسمه باختلاف مجاله[3].

ولا شك أنّ هذا الضرب من ضروب الصبر هو مجال هذه الدراسة وهو المطلوب لثبات الإنسان في طريق التزكية وعدم انزلاقه عن جادة طريق الربانية، فالصبر النفسي يدخل في كل أعمال القلوب ويشكل حائلاً بين الإنسان وبين وقوعه في ملذات الدنيا الفانية، وتحمله المكاره في سبيل تحقيق مقام الصبر.

وقد سبق أن سار على هذا التقسيم الغزالي؛ إذ قسّم الصبر إلى نوعين: صبر بدني كتحمل المشاق، وصبر نفسي عن مقتضيات الهوى، والثاني هو المحمود[4].

---

[1] انظر: ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (ت 795هـ)، **روائع التفسير** (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى، 1422 هـ، ج. 1، ص. 131.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص392.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الصبر والشكر، ج39، ص396.

[4] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج4، ص66،67.

ثالثاً: مرتكزات الصبر المحقق للتزكية عند القرضاويّ: ذكر الشيخ القرضاويّ مرتكزات الصبر على المعصية، وهما: الخوف والحياء. وذكر أيضاً ما هو خير منهما وهو الحب، أي أن يكون الحائل بين الإنسان وبين الانزلاق في مهاوي المعاصي، الحب الخالص لله جل وعلا.

ومرتكزات الصبر المحقق للتزكية وفق ما يراه القرضاويّ هي على النحو الآتي:

أ. الحياء: وهو وازع أسمى من مجرد الخوف من العقوبة، لأنّه يرتكز على التعظيم والإجلال وحضور القلب مع الله مباشرة، ممّا يجعله أقرب إلى مقام الإحسان.

ويسوق القرضاويّ الدليل القرآني المتمثل برد يوسف عليه السلام للمرأة التي راودته عن نفسه، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف:23]، لأنّ منشأ التزكية قائم على ترك الشهوة الحرام في الخلوة حياءً من الله، ليحرص على أن يكون ممن يظلهم الله في ظله يوم القيامة. ومن ثمرات ذلك، استحضار رقابة الله والحياء منه ليكونا درعاً يوقظ القلب ويحيي الضمير، ممّا يسد الطريق على الشيطان ويمنعه من استغلال غفلة الإنسان لإضلاله[1].

فالحياء من أسمى مقامات تزكية النفس؛ إذ ينبع من فطرة الإنسان السليمة وإرادته الذاتية الخالصة لوجه الله، فيسمو به عن المعاصي دون تأثير خارجي.

ب. الخوف: وهو المرتكز الثاني من مرتكزات الصبر على المعصية لتحقيق تزكية النفس، لأنّ الذي وازعه الخوف، استحضر العقاب بقلبه، وراعى جانب نفسه وعمل على حمايتها من الذنوب[2]. وهو حاضر لدى

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الصبر والشكر، ج39، ص405.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الصبر والشكر، ج39، ص410.

كثير من بني البشر؛ ذلك أنّ منهم ما لا يكفي الحياء لصده عن ارتكاب المعاصي، بل إنّه بحاجة أن يزع بسلطان الخوف ما لا يزع بغيره.

وذكر القرضاويّ رحمه الله أقوى الأدلة على مرتكز الخوف والمتمثل بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:28]. وهذه الآية أصل في ترسيخ مفهوم الخوف والخشية من الله لرفع وتيرة التزكية وتعزيز مقام الصبر في القلوب، فقوة الإيمان والتصديق بالوعد والوعيد أساسها العلم واليقين، فبزيادتهما يقوى الإيمان، وبضعفهما يضعف[1].

وذكر القرضاوي تصوير ابن مسعود رضي الله عنه، مقام هذه الطائفة من النّاس فذكر حال المؤمن الذي يصبر بدافع الخوف، لأنّه يرى ذنوبه كأنّها جبل يخاف أن يقع عليه، وأما الفاجر فهو يرى ذنوبه كأنّها ذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا، فطيره[2].

والشاهد هنا في ذكر تعلق الصبر الذي منبعه الخوف بالتزكية أنّه يفضي إلى امتلاء القلب بالخوف فيخلي بذلك القلب من هواجس التفكير في اتباع سبل الهوى، والتعلق بملذات الدنيا المحرمة، فضلاً عن الإقدام عليها.

ت. الحب: الحب كما أسلفنا خير من الخوف ومن الحياء كوسيلة لجعل الصبر سبيلا للتزكية، لكونه طريقة إرادية تنبع من طاقة إيجابية تشكل الحائل بين الإنسان وبين الانزلاق في مهاوي المعاصي أساسها الحب المطلق لله عز وجل، ما يجعله أكثر اتفاقاً مع مقتضيات التزكية، وأكثر انسجاماً بالفطرة، وأسلس تحقيقاً للتحلية والتخلية.

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الصبر والشكر، ج39، ص409.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الدعوات، باب التوبة، حديث رقم 6308 (67/8)

ويسوق القرضاويّ دليلاً من القرآن على هذا المرتكز العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:31]، وكمال الطاعة يكون في حب ما احبه الله وبغض ما يبغضه[1].

وتأكيداً لهذا المعنى يورد القرضاويّ قول ابن القيم لما يراه معبراً بأحسن الكلمات وأكثرها دقة في الوصف عن دور الحب في الثبات على الصبر لتحقيق التزكية: "وهي أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعاصيه. فإنّ المحب لمن يحب مطيع. وكلما قوي سلطان المحبة في القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى، وإنما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من صوته وعقوبته، وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده"[2].

المطلب الرابع: الشكر، من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي.

ينتقل القرضاويّ رحمه الله إلى الحديث عن الوسيلة الرابعة من وسائل تزكية النّفس ألا وهي الشكر، فيسوق لنا قول ابن القيم في تعريفه للشكر: هو تجلّي أثر نعمة الله على العبد؛ فيظهر على لسانه ثناءً واعترافا، وعلى قلبه شهوداً ومحبة، وعلى جوارحه خضوعاً وانقياداً للطاعة[3].

أولاً: أدلة القرضاويّ في أن الشكر وسيلة لتزكية النفس:

يرى القرضاوي أنّ هناك حاجة إلى تقسيم الشاكرين إلى نوعين وفق قدر استحواذ الشكر على أحوالهم وأنفسهم. وهما: "شكر العامة على المطعم والمشرب والملبس وقوت الأبدان، وشكر الخاصة على التوحيد والإيمان وقوت القلوب"[4]. والثاني هو مرادنا في هذا المطلب، لكونه صفة ملازمة لأهل التزكية وحاملي لوائها، وهو ما ورد في عدة آيات منها ذكر هؤلاء بصيغة المبالغة كقوله عز وجل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص412.

[2] محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، تخريج: زائد بن أحمد النشيري، مراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وعلي بن محمد العمران، ط 4، دار عطاءات العلم (الرياض)، دار ابن حزم (بيروت)، 1440 هـ – 2019 م، ج 2، ص 589.

[3] ابن القيم، **مدارج السالكين**، ج2، ص234.

[4] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الشكر، ج39، ص478.

﴿١٣﴾ [سبأ:13]. وما رواه "المغيرة بن شعبة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قام حتى تورمت قدماه فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكوراً"[1].

ثم يبين القرضاويّ منزلة الشكر العالية كما جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية واقترانه بالإيمان في القرآن في آيات عدة، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:147]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل:120-121]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم:5].

ويبيّن القرضاوي أنّ الشكر: "هو نصف الإيمان، والإيمان نصفان نصف شكر ونصف صبر"[2].

ومن السنّة النبوية ما يبين علو مقام الشكر في الجانب التزكوي عندما قيل للنّبي صلى الله عليه وسلم: "تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: "أفلا أكون عبداً شكوراً"[3].

فالشكر كعمل تزكوي يتميز بالمبالغة في التعبير عنه حتى إدراك العجز، والملازمة الدائمة، لكونه عملاً قلبياً مستمراً غير منقطع مع دوام نعم الله.

وقد أكّد ابن القيّم على هذا المعنى، أي على كون الشكر منهاج حياة شامل ومتكامل، حتى وضع له قواعد حيث قال: "والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور. وحبه له. واعترافه بنعمته. وثناؤه عليه بها. وألا يستعملها فيما يكره"[4].

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، (برقم 1130)

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص475.

[3] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب التهجد، باب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل، حديث رقم 1130 (50/2)

[4] ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج2، ص234.

ثانياً: حكم شكر الله تعالى:

والشكر واجب على المسلم وقد أمر الله به ونهى عن ضده، وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه، وجعله غاية خلقه وأمره، واشتق لأهله اسما من اسمه فإنّه سبحانه هو الشكور، وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكوراً، وهي غاية الرب من عبده، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل:114][1]. وذكر القرافي: "والشكر واجب مع العبادة ومع عدمها"[2].

ومن أدلة وجوب الشكر في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة:152]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة:172].

ومن السنّة النبوية ما رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها"[3].

ثالثاً: ثمرات تزكية النّفس بالشكر عند القرضاويّ

إذا كان الشاكر محموداً في مفاهيم الدنيا، يرجو بشكره هذا مغنماً من سيده ومشكوره، وهو على صعيد دنيا فانية وحياة زائلة، فمن باب أولى أن يكون للتزكية بالشكر ثمرات جمة، في جوانب عدة، هي أعلى قدراً وأعظم مكانة وأكبر رصيداً، بين يدي الله، يلخصها الشيخ القرضاويّ بما يلي:

---

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الصبر والشكر، ج39، ص475.

[2] القرافي، شهاب الدين أحمد بن إدريس (ت 684 هـ)، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، (القاهرة: عالم الكتب، [د.ت.]، [د.ط.])، ج 1، ص 104.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب، حديث رقم 2734، (2095/4)

أ. في الشكر حفظ للنعمة وزيادتها: فمن شكر الله فقد عرف عظمة النعمة وعظمة المنعم، فلا يكون من الكريم إلا أن يستزيد الشاكر من نعمه[1]. وساق القرضاوي قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأنّ النعمة مرتبطة بالشكر، والشكر يؤدي إلى المزيد وهما متلازمان، فلا تنقطع الزيادة من الله إلا إذا انقطع الشكر من العبد[2].

ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:147].

ب. في الشكر رضى الله تعالى؛ فتحقيق رضا الله والسعادة التامة في الدارين يكون بالشكر والحمد الذي يظهر أثره على جوارح العبد وتصرفاته[3].

وذكر القرضاوي من القرآن ما يدل على أثر الشكر في تحقيق رضى الله تعالى، قوله جل شأنه: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:72].

المطلب الخامس: الخوف والرجاء.

الوسيلتان الخامسة والسادسة من وسائل تزكية النفس عند القرضاوي.

عند حديث القرضاوي عن الخوف والرجاء فصل بينهما فتحدث عن كل واحد منهما على حده، وبعد الاطلاع على ثمرة حديثه حولهما وجدتُ من الحكمة الحديث عنهما في سياق واحد، تحقيقاً للقيمة المرجوة من اتحادهما، وهي التوازن؛ لأنّ قيمة التوازن بين الخوف والرجاء هي القيمة الأكثر تحقيقاً للتزكية من عمل كل منهما على حدة. وذلك للأدلة التي ساقها الشيخ القرضاويّ بنفسه، وهي على النحو الآتي:

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، 39\516.

[2] ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد (ت 281 هـ)، **الشكر**، باب "بيان أن الشكر سبب للمزيد"تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق)، 1419 هـ - 1999 م، ص 10.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة** 39\516.

أ. الآيات القرآنية الكريمة التي جمعت بينهما في سياق واحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف:56]. وغيرها من الآيات التي ذكرت الوسيلتين معاً.

وهي آية جمعت بإحكام بين توازن الخوف والطمع من ناحية وبين الإحسان الذي هو جوهر تزكية النّفس من ناحية أخرى وهو مرادنا في هذا البحث.

ب. تحقيقاً للتوازن واجتناباً لمآلات طغيان واحدة على الأخرى في حال الفصل بينهما، والمتمثل بما يمكن أن يفضي إلى استحواذ الخوف على النّفس من آثار نفسية عند البعض من جانب، أو التمادي بالشعور بالرجاء وما قد يفضي إليه عند آخرين، من تواكل وتضييع للواجبات من جانب آخر، وذلك بالنظر لطبيعة النّفس البشرية وقصورها في ضبط حدودها السلوكية.

وثمة عبرة في هذا التوازن، تضمنها الحديث الذي ساقه الإمام القرضاويّ لتحقيق حاجة التوازن[1]، وذكر قول أحمد بن حنبل، رحمه الله: بأنّه سأل الله أن يرزقه الخوف، فلما فتح عليه باب الخوف، خاف على عقله، فسأل الله أن يرد ذلك عنه، لذا وجب مغالطة النفس لأجل صلاحها[2].

وقد جرى على ألسنة السلف ذكر الخوف والرجاء معاً في كثير من أقوالهم ومن ذلك ما ورد عن الحسن البصري رحمه الله أنّه قال: "الرجاء والخوف مطيتا المؤمن"[3].

لقد جعل القرآن الكريم العلاقة بين الخوف والرجاء وبين تزكية النّفس التي أطلق عليها اسم الإحسان، علاقة وثيقة ورباطاً مباشراً، بل إنّ الخوف والرجاء آلية نفسية لا بد للإنسان المسلم أن يتحلى بها كي يغذي السير في طريق الربانية وفي طريق تزكية النفس، وإنّ هذا ممّا يضمن له القربى من الله جل وعلا. فقال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف:56]. وقال الطبري في تفسير

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، ص543.

[2] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ)، **صيد الخاطر**، بعناية: حسن المساحي سويدان، ط 1، (دمشق: دار القلم، 1425 هـ – 2004 م)، ص 173.

[3] أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (مصر: مطبعة السعادة، 1394 هـ – 1974 م)، ج 2، ص 156.

الآية: "إن ثواب الله الذي وعد المحسنين على إحسانهم في الدنيا، قريب منهم، وذلك هو رحمته، لأنّه ليس بينهم وبين أن يصيروا إلى ذلك من رحمته وما أعدّ لهم من كرامته إلا أن تفارق أرواحهم أجسادهم"[1]. ثم ذكر البغوي سبباً لتأنيث النعت حيث قال: "ولم يقل قريبة، قال سعيد بن جبير: الرحمة هاهنا الثواب فرجع النعت إلى المعنى دون اللفظ كقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء:8]. ولم يقل منها لأنّه أراد الميراث والمال"[2].

وقد كان هذا الربط بين الخوف والرجاء وبين القربى من الله المفضية إلى تحقيق الأخلاق الربانية وتزكية النّفس ضرورياً في حياة السائرين إلى الله؛ لأنّ تحقّق قيمة التزكية لا يكون إلا باستشعار طرفي الأعمال الصالحات باعتدال. وفي هذا يقول أبو طالب المكي: "فالمؤمنين في اعتدال الخوف والرجاء مقامان؛ أعلاهما مقام المقرّبين، وهو ما حال عليهم من مقام مشاهدة الصفات المخوفة والأخلاق المرجوّة"[3].

أولاً: أدلة القرضاويّ على الخوف والرجاء في القرآن الكريم تحقيقا للتزكية:

لقد جاء الخوف مقروناً بالرجاء في آيات عدة عبر عنهما أهل العلم بالوعد والوعيد، وقد أكّد القرضاويّ على ضرورة أن يتوازن الخوف والرجاء في نفس المؤمن؛ بالرجاء في رحمة الله، والخوف من عذابه. والقرآن يدعو إلى التوازن بين الخوف والرجاء، لتجنب الوقوع في اليأس من رحمة الله، أو الاغترار والأمن من مكره وعقابه[4]. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام:165]، وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد:20]. وقوله تعالى في ضبط النّفس بين الخوف والأمن في طريق تزكية النفس: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

---

[1] الطبري، محمد بن جرير (ت 310 هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (مكة المكرمة: دار التربية والتراث، [د.ت.])، ج 12، ص 487.

[2] البغوي، الحسين بن مسعود (ت 510 هـ)، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرين، ط 4، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417 هـ – 1997 م)، ج 3، ص 238.

[3] أبو طالب المكي، محمد بن علي (ت 386 هـ)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، ط 2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ – 2005 م)، ج 1، ص 361

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج 39، ص 536.

[الأعراف:56]. وقوله تعالى في ذكر حال المؤمن في طريق السير إلى الله بحضور توازن طرفي الخوف والرجاء: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٩﴾ [الزمر:9].

لقد كان الدافع لهذا الاقتران في آيات عديدة في القرآن الكريم خلق حالة النفسية مبنية على الاعتدال والوسطية، ولذا أورد القرضاويّ قول الإمام أبي الفرج ابن الجوزي رحمه الله في أهمية ودور الاعتدال بين الخوف والرجاء: اعلم أنّ أصلح الأمور الاعتدال وفي حال غلّبت الآمال الدنيوية على العاملين في الخير، ينبغي تذكيرهم بالموت والآخرة لكن على العالم الشديد ذكر الموت والآخرة لا يفيد التكرار الزائد انقطاعا كليا بل يجب أن يشغل نفسه بعمل الخير والعلم وطلب الولد، لتمتد آمله قليلاً فإذا لهج بذكر الموت كانت مفسدته أكثر من مصلحته[1].

ثانياً: ضرورة استشعار الخوف والرجاء تحقيقاً للتزكية:

إنّ طريق التزكية، طريق طويل الأمد، ترافقه الإغراءات التي تحيط بالمؤمن من كل جانب، ويرافقه طول الأمل الذي لا ينفك عن الإنسان ما دام حياً، لذا يلزم الإنسان في هذا الطريق استشعار الخوف والرجاء معاً، ليرسخ بهما قيمة الثبات في هذا طريق الربانية. وتأكيداً على هذا المعنى، يقول الشيخ القرضاويّ: "أمّا الخوف فإنّه يجب التزامه لأمرين:

أحدهما للزجر عن المعاصي، فإن هذه النّفس أمّارة بالسوء، ميالة إلى الشر، طماحة إلى الفتن، فلا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم وتهديد بالغ، وليست هي في طبعها حرة يهمها الوفاء، ويمنعها الحياء عن الجفاء"[2].

[1] انظر: ابن الجوزي، **صيد الخاطر**، ص172.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج16، ص519.

ويقول أيضاً أن منهج تزكية النفس يقوم على الموازنة بين الخوف والرجاء؛ فالتخويف المستمر بالنقص والتقصير، قولاً وفكرًا وعملاً، وسيلة فاعلة لحماية النفس من العُجب بالطاعة والغفلة عن الآخرة، إذ يدفعها إلى التواضع واستشعار الحاجة الدائمة إلى رحمة الله. أما الرجاء، فهو الباعث على الطاعة والثبات عليها رغم ثِقلها وموانعها، إذ لا تنهض النفس إلى الخير إلا برجاءٍ قوي في عفو الله وثوابه. كما أنّ استحضار الرجاء يعين على تحمّل المشاق والمحن، لأنّ من عَرَف شرف المقصود هان عليه طريق الوصول إليه، ومن صدقت محبته لله رضي بما يلقاه في سبيله من عنتٍ وبلاء[1].

ثالثاً: أهمية التوازن بين الخوف والرجاء:

بيّن القرضاويّ ضرورة تحقق التوازن بين الخوف والرجاء في سياق حديثه عن أهمية اتباع سبيلي الوسطية والاعتدال بين الخوف والرجاء، لما لذلك من دور في تحقيق التزكية، وبيان ذلك:

أ. أنّ الرجاء قد يدفع إلى ترك العمل اتكالاً على رحمة الله، رغم أنّ الله جل وعلا قد ذكر في كتابه آيات في هذا الشأن، تشير إلى وجوب عدم استشعار الأمن المطلق من العذاب. لقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:99].

ب. أنّ حسن الظّنّ بلا عمل يودي بصاحبه إلى الهلاك، قال الحسن: "إنّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقول أحدهم، أحسن الظّنّ بربي! وكذب، لو أحسن الظّنّ لأحسن العمل له.. وتلا قول الله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت:23]"[2].

ويذكر القرضاويّ نموذجاً هاماً من تراث أهل الكتاب محتسبين الخيرية بلا مسببات، فالله عز وجل أنكر على أهل الكتاب ظنّهم دخول الجنة بمجرد الادعاء والتعلق بالأماني، دون استيفاء موجبات ذلك من الإيمان

[1] انظر: لقرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج39، 543-545.

[2] رواه ابن أبي الدنيا في الوجل والتوثق بالعمل، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، نشر دار الوطن، الرياض، ط 1، 1418، 1997.

والعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة:111-112]"[1].

ت. أنّ من أخل بأحدهما أخلّ ببعض واجبات الإيمان: لأنّ الرجاء دون خوف يفضي إلى الاستخفاف بالطاعات ويخرب القلب، كما قال الداراني: "ما فارق الخوف قلباً إلا خرب"[2]. وأنّ الخوف بلا رجاء يفضي إلى اليأس والقنوط من رحمة الله.

والتوازن بين الخوف والرجاء ضرورة في السلوك؛ فالرجاء المطلق يؤدي إلى الجرأة على المعصية والتفريط في الطاعة، بينما الخوف المطلق يؤدي إلى اليأس والقنوط والظن بأن الذنب أكبر من رحمة الله[3].

وقد قال القشيري من حمل نفسه على الرجاء وحده تعطل عن العمل، ومن حمل نفسه على الخوف وحده قنط، ولكن بالتناوب بينهما مرة من الرجاء ومرة من الخوف[4].

ومن هنا ينبغي على سالكي الطريق إلى الله والسائرين في درب الربانية وتزكية النّفس أن يوازنوا موازنة جمة بين الخوف والرجاء لانّهما معاً، بنفس المقدار في القلب، ضمان المؤمن في بقائه على الطريق المستقيم، وأنّ إخلال أحدهما بالأخرى، يفضي إلى استحواذه على القلب، بل عليه أن يساوي بينهما استشعاراً، كما قال مطرف: "لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لوجدا سواء لا يزيد أحدهما على صاحبه"[5].

رابعاً: توجيه القرضاويّ مبدأ الخوف والرجاء كوسيله لتزكية النفس:

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الخوف والرجاء، ج39، ص549.

[2] القشيري، **الرسالة القشيرية**، ج1، ص254.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، الخوف والرجاء، ج39، ص551.

[4] انظر: القشيري، **الرسالة القشيرية**، ج1، ص261.

[5] أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (مصر: مطبعة السعادة، 1394 هـ - 1974 م)، ج 2، ص 208.

لقد ظهرت في التاريخ الإسلامي فرق عارضت مبدأ الخوف والرجاء كوسيلة للتزكية وعلى رأسهم الفلاسفة لا سيما من أطلقوا على أنفسهم لقب "المثاليين"[1] الذين أدانوا الأخلاق الدينية التي تربط أداء الواجب بالمنفعة، على حد زعمهم. ثمّ بعض المتصوفة الذين عارضوا مبدأ الخوف والرجاء كدافع لعمل الخير بدلاً من الحب المطلق لله متجاهلين نصوصاً قرآنية كثيرة تحمل معاني المبدأين معاً. وفيما يأتي بيان ذلك:

يذكر القرضاويّ أوجه معارضة فكرة الخوف والرجاء والذي أطلق عليها الترغيب والترهيب، لدى بعض الفرق ثمّ يرد عليها:

فئة الفلاسفة: تتمحور فكرتهم بأداء أعمال الخير لذاتها لا لأجل الجزاء ولا خوفاً من عقاب.

رد القرضاويّ: لا شك أنّ النّاس مختلفون في تركيباتهم الفطرية فدون الفرقة التي تعبد الله على حب كامل دون التفكير في أمر الجزاء والعقاب هناك كثير من النّاس يجب توجيه دوافع الإنسان الفطرية (الرغب والرهب) نحو ما عند الله، ورفع قيمة المنفعة المرجوة من الطاعة لتكون فوق المنافع المادية والذاتية الفانية. هذا التوجيه يحرر القلب من عبودية المادة والهوى، ويجعله متعلقاً بالباقي الذي عند الله وحده، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ ٩٦﴾ [النحل:95-96][2].

وكأنّ القرضاويّ بردّه هذا يريد أن يعزز التأكيد على جانب تزكية النّفس وهو ذلك المقام الذي غفل عنه المعارضون فإنّ تجريد القلب من الارتباط بالمادة الدنيوية وارتباطه بما عند الله هو خير وأبقى وجوهر تزكية النفس، وهي محلّ ردّ القرضاويّ على من ادّعى غير ذلك في كون الترهيب والترغيب أداة ربانية أصيلة في

[1] تيار في الفلسفة الأخلاقية يرى أن القيمة الأخلاقية للفعل تكمن في ذاته لا في نتائجه، ومن أبرز روادهم في العصر الحديث **إيمانويل كانط** الذي نادى بـ "الواجب من أجل الواجب"، معتبراً أن ربط الأخلاق بالثواب أو العقاب (المنفعة) يُخرجها عن طهرها ومثاليتها. وقد أثّر هذا الفكر على بعض الفلاسفة والمنظرين الذين انتقدوا الربط بين الخوف والرجاء وبين تزكية النفس. ينظر: محمد عبد الله دراز، **دستور الأخلاق في القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص 85-90.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص156.

دفع النّاس إلى فعل الصالحات وتحلية القلوب بأعمال الخير في طريق الربانية المرجوة من المسلم لتزكية نفسه.

فئة المتصوفة المبالغة: اعتبر هؤلاء عبادة الله رغبة في جنته ورهبة من عذابه أنّه "كعبد السوء إذا خاف عمل، وكأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل"[1]، ويرون أنّ جوهر العبادة يجب أن يكون مبنياً على حب الله الصرف المجرد من كل خوف وطمع لما عند الله من الوعد والوعيد.

يتمحور رد القرضاوي حول واقعية التزكية؛ إذ يعتبر الخوف والرجاء دافعين فطريين لا ينفكان عن الطبيعة البشرية، مفنداً دعاوى الفلاسفة والمتصوفة في تجريد العبادة من الطمع والرهبة، ومؤكداً أنّ طلب الجنة والفرار من النار هما في جوهرهما ارتباطٌ بالله وتعظيمٌ لمآلات رضاه وسخطه.

وذكر القرضاويّ من علماء المسلمين من فنّد هذا الكلام ورد على شطحات القوم، فاستشهد بكلام الله تعالى عن عباد الرحمن الذي أثنى عليهم بأحسن أعمالهم، واستعاذتهم به من النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ۝٦٦﴾ [الفرقان:65-66]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾ [آل عمران:16]. وذكر سبحانه عباده الذين شرفهم بإضافة اسمه الرحمن فسماهم عباد الرحمن، وأثنى عليهم بأحسن أعمال جعلها استعاذتهم من النار، وأخبر عن المتقين من عباده أنّهم توسلوا إليه بإيمانهم أن ينجيهم من النار، فجعلوا الإيمان أعظم وسائلهم للنجاة.

كما ذكر القرضاويّ ما ورد في الصحيح في حديث الملائكة السيارة، الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ لِلَّهِ مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ" قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص154.

مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ: فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ؟ قَالَ: فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا..، قَالَ: يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ "[1].

وقد كثرت النّصوص من القرآن والسنة التي تثني على عباد الله تعالى وأوليائه بسؤال الجنة ونعيمها، والاستعادة من النار والتخويف[2]. ويستشهد بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى ربيعة ابن كعب الأسلمي أنّه صلوات الله عليه، قال لمن سأله مرافقته في الجنة: "أعنّي على نفسك بكثرة السجود"[3].

المبحث الثاني: مجالات تزكية النّفس عند الشيخ القرضاويّ.

جعل القرضاويّ التزكية الفردية أساساً لمجالات التزكية الأخرى ذات الأبعاد الجماعية، لأنّ الإسلام ينظر إلى الفرد على أنّه مشروع البناء الإنساني الأسمى والأهم، ومنطلق سائر مجالات التزكية واساسه ولبنته الأولى، وصلاحه ضروري لصلاح المجتمع، ثمّ الدولة، ثمّ الأمة، ثمّ العالم. كما أنّه لا بد للفرد من بيئة صالحة تحثه على الخير، ليكون فرداً صالحاً إلى مجتمع يطمح في تطبيق تعاليم الخيرية والسير في طريق تزكية والحياة الربانية.

وفي تعليقه على أهمية اعتناء الإسلام بكافة مركبات هذه السلسلة البشرية التي يركبها المجتمع المسلم ابتداءً من الفرد حتى الأمة، يرى القرضاويّ أنّ الإسلام ينظر إلى الفرد والمجتمع والدولة كوحدات متكاملة عضوياً؛ فصلاح الفرد باعتباره لبنة في المجتمع، الذي يمثل البيئة الحاضنة لنموه السليم. وهذه المركبات لا تضمن تطبيق الشريعة وحماية العقائد إلا بوجود الدولة حارسا لهذا البنيان[4].

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الدعوات، باب فضل الذكر، (برقم 6408).

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص161.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، الصلاة، حديث رقم 489.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص757-758.

ولنا في الدولة التي أسس أركانها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة أكبر برهان في كونها الحاضنة الكبرى لمشروع التزكية على مستوى الفرد والجماعة والأمة.

وقد كان من الضروري تحقيق هذه الحاضنة، لذا كانت الهجرة النبوية هدفاً تأسيسياً لإقامة أول مجتمع ودولة إسلامية مستقلة في المدينة، تتجسد فيها عقائد وشريعة الإسلام بالكامل تحت قيادة النبي صلى الله عليه وسلم[1].

وقبل البدء لا بد من الإشارة إلى أنّ القرضاوي عند حديثه عن مجالات التزكية استخدم مصطلح الأخلاق كمصطلح محوري وأساسي في التعبير عن مجالات التزكية المختلفة. لذا فإنّه من الأجدر في هذا المبحث استخدام مصطلح الأخلاق، لا لأنّنا انتقلنا إلى معنى جديد للتزكية، بل لتسهيل التعبير والوصف الأدق، وانسجاماً مع ما اصطلح على تسميته القرضاويّ ومع التعبيرات المعاصرة للتزكية.

المطلب الأول: التزكية (الأخلاق) الفردية.

عند حديث القرضاويّ عن التزكية الفردية ظهر بلا ريب أنّها الوجه الآخر للأخلاق، ولذا عند بيانه لمعالم التزكية الفردية نجده يورد ذلك بمصطلح الأخلاق، وقد بيّن مسارات التزكية الفردية وهي: أخلاق الإنسان مع الإنسان وأخلاق الإنسان مع من دونه وأخلاق الإنسان مع الكائنات الأخرى، وكل مسار ضمته مجموعة من الاخلاق، والتي هي مادة التزكية وأحوالها، وبيان ذلك على النحو الآتي:

المسار الأوّل: أخلاق الإنسان مع الإنسان.

لقد حثّ الإسلام الإنسان على القيام بواجبه الأخلاقي تجاه أخيه الإنسان، ويشمل ذلك البشر على كافة طبقاتهم الاجتماعية وإمكاناتهم المادية، فكلهم مطالبون بمد يد العون لسائر إخوتهم من البشر في السراء والضراء، والمغنم، والمكره. وقد ورد في حديث رسول الله تصوير في غاية الدقة لما ينبغي أن يكون عليه

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص757.

حال تكافل الأفراد في المجتمع المسلم، فعن أبي موسى الأشعري أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً"[1].

وفي مسيرة الإنسان لصناعة نفسه ليكون نموذجاً ربانياً ينال به رضا الله عز وجل ذكر القرضاويّ ما على المسلم أن يفعله ليصل إلى هذه المرتبة فأكد أنّ المسيرة لصناعة الإنسان الرباني ونيل رضا الله تعالى تتطلب التحلي التام بجميع الفضائل والأخلاق الكاملة، والتخلي الكلي عن جميع الرذائل والصفات المشينة التي تشوه الشخصية وتعبِّر عنها[2]. وهذا بلا شك تعبير بيّن وصريح لأساسات التزكية، ألا وهي التحلية والتخلية التي لا بد من الاجتهاد لتحقيقها في كل مراحل الحياة الربانية.

وقد ركّز القرضاوي على أصول الأخلاق الفردية ذات الصلة المباشرة بالتزكية، وهي الحياء والتواضع والعفة والعزة والتفاؤل، وهذه لم تكن لولا أسسها من أخلاق الصبر والصدق. وأصول الأخلاق التزكوية الفردية متمثلة بالآتي:

أولاً: خلق الحياء: وعرّفه القرضاوي بأنه "انقباض النّفس عن فعل ما يستقبح شرعاً أو عقلاً أو عرفاً، فهو وازع ذاتي، يردع صاحبه عن الخوض في الشرور والقبائح من غير خوف أو رجاء من أحد"[3].

ورغم كون الحياء صفة خلقية ناشئة من الفطرة تعين المرء على تحقيق التزكية كما ذكر القرضاويّ، إلا أنّها وبعد الاجتهاد في تهذيب النفس، يمكن جعلها صفة مكتسبة غير قاصرة على الفطرة فحسب.

وذكر القرضاوي قول المؤرخ ابن مسكويه على أنّ "أول ما ينبغي أن يتفرس في الصبي ويستدل به على عقله: الحياء، فإنّه يدلّ على أنّه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه ويخاف أن يظهر منه أو فيه"[4]. وللاستدلال على هذا، ساق القرضاويّ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة أنّ

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم (برقم 2314).

[2] انظر: القرضاوي، **الأعمال الكاملة**، كتاب الحياء ج40، ص618.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الحياء، ج40، ص618.

[4] مسكويه، أحمد بن محمد (421هـ)، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، تحقيق: ابن الخطيب، ط 1، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية)، ص 67.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإيمان بضع وستون– أو: بضع وسبعون– شعبة، والحياء شعبة من الإيمان"[1]، فكما أنّ الإيمان قيمة مكتسبة في النّفس ومرتبة يحصلها الإنسان المسلم من خلال الاجتهاد في الطاعات والإخلاص فيها، فكذا أمر الحياء، إذ هو بضع من الإيمان، يمكن اكتسابه في مسيرة العبد الربانية وبعد اطلاعه على عظم صفات الله عز وجل وآلائه ونعمه وعظيم قدرته.

ثانياً: التواضع: وهو خلق لا تكون التزكية إلا به؛ ذلك لأنّه لا يتحقق في قلبي السائر إلى الله إلا بعد نزع مواضع الكبر، وعلى هذا أكّد القرضاويّ على ضرورة خلو القلب من آفات الكبر والغرور والإعجاب بالنفس، ويستوجب التواضع وخفض الجناح للناس، مع نبذ شعور الاستعلاء عليهم أو الاستخفاف بهم أو الاستغناء عنهم[2].

وفي ذكر التواضع وردت نصوص قرآنيه وأحاديث كثيرة حذرت من ضده، ألا وهو الكبر والخيلاء، وفي هذا الإكثار ترسيخ لأهمية قيمة التواضع في قلب المؤمن مهما علا شأنه في الدنيا، ومن أدلته على التواضع ما ساقه من آيات سورة لقمان والتي تؤصّل دستوراً كاملاً للتواضع باجتناب الخيلاء والكبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨﴾ [لقمان:18]. وهو دليل قرآني يعدّ أصلاً في التواضع الذي ينبغي أن يكون مصدراً أصيلاً من مصادر التربية في المجتمع المسلم، أكّد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث عياض بن حمار: "إنّ الله أوحى إلى أن تواضعوا، حتى لا يفخر بعضكم على بعض"[3].

ثالثا: العزة: جعل القرضاويّ خلق العزّة بعد خلق التواضع مباشرة، ليظهر الفرق بين الذل والتواضع الذي يكمل بمجانبة الكبر دون إلحاق الذلة بالذات، إذ إنّ المسلم يجمع بين التواضع وحفظ عزة وكرامة الإنسان

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، (برقم 9)، بلفظ "بضع وستون".

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص621.

[3] **صحيح مسلم** :كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (برقم 2865).

التي منحها الله له"، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء:70]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون:8][1].

وحرص القرضاويّ أيضاً على التفرقة بين ذلّ المؤمن للمؤمن وبين الذلّ الذي يفضي إلى المهانة لأتفه الأسباب، فقال في صفات المؤمنين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة:54]. "وأما قوله تعالى في وصف المؤمنين المرجوين لنصرة الإسلام فالمراد بالذل هنا غاية التعطف، ونهاية التلطف، بدليل تعديه ب "على" وليس ب "اللام"، وما أشبه الذل هنا بالرحمة في وصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح:29][2].

وفي إطار حديث القرضاويّ عن العزة نجده يشدد على الامتناع عن ضدّها ألا وهو الذلّ، الذي عدّه رذيلة محرمة على المسلم العزيز بالإسلام. ويشدد القرآن في تصوير هول من يرتضون الهوان في أوطانهم، وهم قادرون على الهجرة والتحرر من سيطرة الآخرين. ثمّ ساق القرضاويّ الآية القرآنية التي يراها دليلاً أصلاً في ترسيخ خلق العزة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:97][3].

وفي هذا ما يشير إلى ضرورة أن يعيش الإنسان عزيزاً مهما دارت به رحى الظروف أو عصفت به الأحداث، حتى لو استوجب ذلك أن يرتحل إلى أرض جديدة، ليعيش فيها عزيزا كريماً مكرماً، لا مستضعفاً ذليلاً، يحافظ فيها على دينه وخلقه؛ ثابتاً في مسيره نحو التزكية والحياة الربانية.

وقد أكّد محمد رشيد رضا على النّهي عن خلق الذلة وبذل الجهد للتسلح بعزة النّفس رغم التحديات، إذ يقول: وتحرروا انفسكم من عبودية الذل التي لا تليق بحال المؤمن، فاستضعاف الكفار لكم لم يكن عذرا

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص622.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص622.

[3] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص623.

يمنعكم من مفارقة ديارهم، بل كانت لديكم القدرة على تركها والهجرة إلى أرض تأمنون فيها على دينكم وتتمتعون فيها بالحرية، ولما تركتم الهجرة ورضيتم بالبقاء كان الوعيد بجهنم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَآ﴾ [سورة النساء:97] [1].

رابعاً: التفاؤل: عمد القرضاويّ إلى تعريف التفاؤل لما فيه من استحضار لمعاني الأمل والاستبشار، وأكد أنّ على المسلم أن ينظر إلى الحياة والأحياء والحاضر والمستقبل بعين الأمل والاستبشار، متحاشياً التشاؤم والنظرة السلبية السوداوية تجاه الذات والمجتمع والكون[2].

لذا فإنّ التفاؤل خلق من الأخلاق يحمل في طياته رصيداً عظيماً من الطاقات الإيجابية، وقد أبدع القرضاويّ في وصف هذه الطائفة بقوله: لا ينحسر المسلم أمام تقلبات الحياة وإن تتابعت عليه الشدائد؛ لاعتقاده أنّ كل محنة قد تنطوي على منحة، بما تحققه من تمحيصٍ للنفس وتربيةٍ لها، وتمييزٍ للمعاني وتصفيةٍ للمقاصد. ويكفيه أنّ البلاء لم يمسّ دينه، وألا يكون فوق طاقته، مع استحضاره رجاءَ الثواب من الله عليه. وبهذا يتحول معنى المصيبة في وعيه من مجرد ألمٍ إلى موردِ أجرٍ وخير، فيستقبلها بروح الشكر التي تغلب مجرد الصبر[3].

خامسا: العفة: ينتقل القرضاويّ للحديث عن خلق يغلب عليه التنزه من الأفعال الحرام ليبين أن العفّة هي بمثابة التنزه عما حرم الله، وتشمل ضبط شهوتي البطن والفرج – اللتين هما أكثر ما يفسد النّاس ويدخلهم النار – وتتضمن كذلك التنزه عن أكل وكسب الحرام بكافة صوره، من ربا وظلم وغش وأكل لأموال الناس بالباطل[4].

ويرى القرضاوي أنّ التنزه الذي مصدره العفة، يعني الأنفة واشمئزاز النّفس من أكل الحرام أو ارتكابه، فالحرّ لا يرتكب الحرام لأنفته من ذلك وهي العزة بعينها، لا لمجرد النهي عن الحرام كحكم رباني فحسب.

---

[1] رشيد رضا، محمد (1354 هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م)، ج 5، ص 290.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص623.

[3] انظر: لقرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص625.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص626.

وذهب الأصفهاني إلى أنّ "من اتسم بسمة العفة قامت العفة له بحجة ما سواها من الفضائل وسهلت له سبيل الوصول إلى المحاسن، وأسها يتعلق بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية، وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان، وتمامها يتعلق بحفظ الجوارح"[1].

إنّ التحلّي بهذه الأخلاق الفاضلة (الحياء، التواضع، العزة، التفاؤل، العفّة)، والتخلّي عن أضدادها من الرذائل (كالكبر والذل والتشاؤم)، تقود العبد إلى تزكية النفس، ذلك لأنّ هذه الأخلاق تمثّل أسسًا للاجتهاد في تهذيب النفس، ممّا يُنجّي صاحبها من القبيح ويرفع مرتبته الإيمانية ليبلغ رضا الله عز وجل وأعلى مقامات الحياة الربانية، فهي التطبيق العملي لمبدأي التحلية والتحلية.

المسار الثاني: أخلاق الإنسان الفردية مع من دونه:

من الأخلاق التي حث عليها الإسلام؛ الرحمة بالحيوان والطير وسائر الكائنات الحية على وجه البسيطة، فالله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:107].

الفرع الأول: أدلة أخلاق الإنسان مع الحيوان عند القرضاويّ:

يرى الإمام القرضاوي أنّ التزكية هي عملية شمولية تشمل الكائنات الحية والحيوانات وحتى الأسماك في أعماق البحار وهذا طبيعي، فكيف لسالك طريق الربانية أن يتحلى بمقومات التزكية تجاه البشر دون أن يكون له ارتباط تزكوي بسائر مخلوقات الله، فهي أيضاً آلاء من آلائه تبهر القلب وتحرك فيه الخشوع لإتقان صنع الله. وقد علل القرضاوي ذلك بأن إيذاء الحيوان لا يفضي غالبًا إلى اضطرابٍ اجتماعي أو إلى تعطّلٍ مباشر للمصالح عبر آليات الاعتراض والمطالبة بالحق؛ إذ لا يملك الحيوان قدرة التنظيم أو الإضراب أو

[1] الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (502 هـ)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، (القاهرة: دار السلام، 1428 هـ – 2007 م)، ص 224.

التقاضي لرفع الظلم عنه. ومن ثمّ فإن الرفق به ورعاية حاجاته واجبٌ **أخلاقي** محض، يندرج ضمن العدل والإحسان والرحمة، ويقوم على استحضار مراقبة الله تعالى وتقواه[1].

والسنّة النبوية تحفل بأحاديث نبوية تدعو إلى الرفق بالحيوان، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها، ثمّ خرج، فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه، ثمّ أمسكه بفيه، ثمّ رقي، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم أجراً؟، قال: في كل كبد رطبة أجر"[2]. فكل كائن حي تحسن إليه تنال بإحسانك إليه الأجر والثواب من الله أجر[3].

ومن عظيم ما جاء به الإسلام أنّه منح الأجر لراحم الحيوان، بل وتوعد بالنار من يعذبه! وبذلك يكون قد فاق القوانين المدنية المعاصرة في هذا الجانب! لانعدامها من المركب الاخروي في العقوبة. وقد وضع الفقهاء الأحكام الفقهية التي يقصد منها الإحسان إلى الحيوان وكيف لمؤسسات الدولة أن تحرص على ذلك. فالإحسان للحيوان هو في الأصل واجب أخلاقي وديني يؤجر عليه المرء، ثم أصبح في ظل الدولة المسلمة واجبًا قانونيًا يمكن للدولة فرضه قضائيًا للحفاظ على حقوق الكائنات الحية ومنع الإضرار بها[4] "وإذا كان أرباب المواشي من يستعملها فيما لا تطيق الدوام عليه، أنكره المحتسب عليه، ومنعه منه"[5].

المسار الثالث: أخلاق الإنسان بالكائنات العاقلة الأخرى عند القرضاويّ:

كما تظهر التزكية في أخلاق الانسان مع الكائنات الأخرى وهما الجن والملائكة، وهما عالمان غيبيان عظيمان يتشاركان مع البشر الإيمان بالله والعبادة، فكان لزامًا على الإنسان أن يدرك طبيعة علاقته بهما.

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص643.

[2] البخاري، **الجامع الصحيح** (صحيح البخاري). كتاب المساقاة، باب في كل ذات كبد رطبة أجر، رقم **2363**.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص644.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص652.

[5] الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **الأحكام السلطانية**. القاهرة: دار الحديث، (د.ت)، ص .**372**

إنّ الإيمان بوجودهم وبما أوكل إليهم من مهام يوجب على المؤمن مراعاة آداب الإجلال للملائكة، والاستعاذة والحذر من شياطين الجن، والتعامل بالاستقامة معهم جميعًا.

الفرع الأول: أخلاق الإنسان مع الجن:

وتظهر التزكية في تعامل الانسان مع عالم الجن، فقد أُمر الإنسان أن يؤمن بوجود الجن، وأن يؤمن بوجود فئة الشياطين التي توسوس للناس، وأن يستعيذ بالله منها، لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس:1-6].

والله عز وجل لم يأمرنا أو يكلفنا بشيء تجاه الجنّ إلا بأمور يسيرة؛ ذلك لأنّ حضورها في واقعنا أمر شبه معدوم. ومن هذه الأمور اليسيرة المكلف بها تجاه الجن تجنب الاستنجاء بالعظم والروث، وذلك لاحترام كونهما طعامًا لهم ولدوابهم[1]، ثم ذكر القرضاوي ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أتاني داعي الجنّ، فذهبت معه فقرأت عليه القرآن. قال –ابن مسعود–: فانطلق بنا، فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد، فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه، يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلا تستنجوا بهما؛ فإنهما طعام إخوانكم"[2].

الفرع الثاني: أخلاق الإنسان مع الملائكة عند القرضاويّ:

ومن أعظم من تظهر التزكية في التعامل معهم الملائكة، فهم النّموذج الأسمى للتزكية؛ ذلك لصفاتهم المثالية التي أودعها الله فيهم من كونهم جنوده المطيعين الذين لا يفتُرون عن ذكره، ومن كونهم يسبحونه ما دامت السماوات والأرض ومن كونهم لا يخضعون للملذات والشهوات ووساوس الشيطان. وقد أورد الإمام القرضاويّ دوافع الخُلُق الحسن تجاه الملائكة وكذلك آثار الإيمان بهم على النحو الآتي:

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص666.

[2] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن، رقم **450**.

أ. جعل من تمام الخُلق الحسن محبة الملائكة وموالاتهم، وذلك لأسباب عديدة، منها دعاء الملائكة لنا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر:7]. وما رواه "أبو هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكاً تلفاً"[1].

وفي ضوء ما سبق يقول القرضاويّ: "من أخلاق المؤمن مع الملائكة موالاتهم ومحبتهم؛ لأنّهم يطلبون من الله سبحانه وتعالى أن يغفر لنا وأن يتجاوز عن زلاتنا وأخطائنا فهم يستغفرون لنا ويدعون لنا بالوقاية من النار"[2]. وذكر أنّ من آثار الإيمان بالملائكة ما يدعو لأن تكون رافداً من روافد التزكية، ومنها[3]:

1. أنّ الاقتداء بأدب الملائكة الكرام الذين يتنافسون في التقرب إليه مع عصمتهم من الذنوب، يؤدّي إلى بذل العبد جهده في طاعة ربه سبحانه. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ٢٠٦﴾ [الأعراف:206].

2. إقرار الإنسان بضعفه، فالله جل وعلا وكّل الملائكة بحفظ الإنسان من كل جانب إشارة على ضعف الإنسان وعجزه.

3. إنّ المسلم مهما بلغ من العبادة لا يصل إلى مقدار قليل من مجمل عبادة الملائكة، وفي هذا دفع للكبرياء عن نفس الإنسان، فالملائكة مع هذا القدر الهائل من العبادة، فإنهم لا يفترون عن تسبيح الله في الليل والنهار. قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء:20]. ولا يلبثون أن يسألوا ربهم جل وعلا عن الصفح والمغفرة لهم والتقصير في العمل.

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطى واتقى، حديث رقم 1442.

[2] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص669.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص672.

لذا تُعد الملائكة النموذج الأمثل لتزكية النّفس البشرية؛ لكمال طاعتهم، وافتقارهم للشهوات المادية، واستقامتهم في العبودية، ممّا يمثل الغاية لسمو الروح الإنسانية وارتقائها فوق المعاصي ونحو الطاعات، ارتقاء يطمح إليه السالك في طريق الربانية ومكارم الأخلاق.

المطلب الثاني: التزكية الجماعية.

لا ينبغي أن تقتصر الأخلاق على الأفراد فحسب، بل يجب أن تتعدى إلى أنّ تشمل تركيبات اجتماعية أخرى، كالأسرة والمجتمع، والأمة، والدولة، والعالم. فالأخلاق هي الضمان لبقاء المجتمعات بعيداً عن الانهيار الخلقي الذي يؤدّي بالضرورة إلى الانهيار في سائر مناحي الحياة.

وقد أشار القرضاويّ إلى ضرورة اتباع القران الكريم والسنة النبوية في صياغة دستور الأساسات والقوانين والرؤى الكبرى للأخلاق الممهدة للتزكية – التي أطلق عليها الصراط المستقيم– في حاضنة الإسلام على كافة أشكالها ومركّباتها، فالصراط المستقيم للأمة هو المنهج الشامل الذي يجب أن ينبع من كتاب الله وسنة رسوله، لتوجيه الأفراد والجماعات والدول في جميع شؤون الحياة (دينياً ودنيوياً وفردياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً)، وصولاً إلى الاستقامة والعدل والبر[1].

البعد الجماعي للأخلاق: إنّ الإنسان لا تكتمل أخلاقه ولا تكون قيد الاختبار إلا بوجود مجتمع حوله يحقق فيه تلك الأخلاق، التي أمر بالتحلّي بها، فيمتحن بها صبره مع بيئته وإحسانه مع الخلق كي لا تكون هذه المنظومة الأخلاقية مجرد كلام نظري بلا تطبيق، بل إنّ الإسلام العظيم ربط الأخلاق بالعبادات وجعلها من فوائدها وثمراتها وتوجه للمسلمين توجهاً جماعياً: فالزكاة: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:103]، والحج: لا ينال اللهَ منه هديٌ ولا لحمٌ ولا دمٌ، ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:37].

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج39، ص11.

ولذا رأى القرضاويّ بالنّظر إلى المركّبات البشرية للجماعات ومتعلقاتها وموقع الفرد ودوره في كل إطار جماعي أن يقسم هذا البعد على النحو الآتي:

أولاً: التزكية على صعيد الأسرة.

تعتبر الأسرة اللحمة البشرية الأقرب من الفرد والأكثر التحاماً به، فهي رحمة المأمور ببرّه بل هي حصنه المنيع في وجه الغزو الخارجي للثوابت وعلى رأسها الأخلاق. وبطبيعتها هذه فقد كان من الأجدر أن يبدأ الحديث بالأخلاق الأسرية لما لها من دور رفيع في البناء الخلقي التزكوي للإنسان، وبصلاحها تتشكل اللبنة الأساسية في بناء المجتمع الصالح. وقد ورد الحديث في هذه المنظومة من الأخلاق في القرآن الكريم وفي السنة النبوية واهتم العلماء في كتب التفسير والحديث والفقه والسلوك بشرح هذه النصوص التي يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

أ. أخلاق الزوجين تجاه بعضهما: تعد العلاقة بين الزوجين أساس البناء الأسري، ولذلك سلّط القرآن الكريم الضوء على تنظيم هذه العلاقة بقيم أخلاقية سامية.

وقد اهتم القرضاويّ بذكر الأخلاق الواجب تحققها في الأسرة ابتداء من تشكل البذرة الأولى وهي الزواج، ثمّ ذكر ما ورد عند الفقهاء من قواعد تتعلق بثنائية العلاقة الزوجية لحرصه على بيان الميثاق الرباني الغليظ، لهذا أورد قول ابن عاشور في هذا الشأن قوله: "وثمة قاعدة عند الفقهاء تشير إلى الخصوصية الأخلاقية للعلاقات الزوجية وهي: أنّ "النكاح مبني على المكارمة" أو "مبنى النكاح على المكارمة"[1].

وتعليقاً على ما ذكر في العلاقة الزوجية المراد تحقيقها بين الزوجين أكّد القرضاويّ على أنّ المكارمة الزوجية هي جوهر العلاقة في الإسلام، وتعني تجاوز أداء الحقوق الواجبة إلى الكرم المتبادل والإحسان والمسامحة، لتُبنى العلاقة على الحب والفضل لا على المعاملة الجافة[2]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن

[1] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير** [تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد]. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984 م (1404 هـ)، ج 4، ص .**233**

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج 40 ص 697.

النبي صلى الله عليه وسلم قال: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك"[1].

لذا ينبغي أن تحفّ الحياة الزوجية عدة صفات أهمها:

1. المودة والرحمة: كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:21].

ويرى القرضاوي أنّ عنوان هذه القيمة هو تحقيق السكون النفسي للروح، والمودة والرحمة لهما ولأهلهما[2]، فالإسلام يوصي بتحقيق هاتين القيمتين معاً، فالشفقة وحدها لا تكفي إن خلت من المحبة وكذا شأن المحبة، إذ لا بد من تحقق القيمتين لتعزيز حفظ الميثاق الرباني الغليظ.

2. الإحسان والمعاشرة بالمعروف: يشير القرضاويّ إلى أهمية الإحسان في المعاملة بين الزوجين، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴿١٩﴾﴾ [النساء:19]. حيث يؤكد في تعليقه على هذه الآية الكريمة أنّ المعروف لا يقتصر على الأمور المادية، بل يشمل أيضاً الجانب الأخلاقي والمعنوي من إحسان متبادل ولو أحس أحدهم تجاه الآخر بشيء من الكراهية فليجنّب نفسه من الإفراط في هذا الجانب ويضبط سلوكه نحو المعاشرة بالمعروف[3].

فالمعاشرة بالمعروف هي الكف عن الأذى وتنمية الشعور المتبادل بالاحترام والتقدير بين الزوجين تحت مظلة ما جاء به الإسلام في ترسيخ قيم الحياة الزوجية، وعلى هذا أكّد الجرجاني في تفسيره للآية: "فاتقوا الله فيهن وعاشروهن بالمعروف وأدوا إليهن حقوقهن، ولا تؤذوهن ولا تضاروهن"[4].

---

1 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم .**5090**

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج 40 ص 648.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج 40 ص 687.

[4] الجرجاني، **الحسين بن الحسن**. **المنهاج في شعب الإيمان**. تحقيق: حلمي محمد فودة. تونس: دار الفكر، ط **1**، 1399 هـ / 1979 م، ج **3**، ص **30**

ب. أخلاق الوالدين تجاه الأبناء: اهتم القرضاويّ بذكر هذا المسار الأخلاقي أولاً، والذي يبدأ ببناء المنظومة الأخلاقية للوالدين تجاه الأبناء، لعلمه أنّ التأسيس الحقيقي لبناء علاقة البرّ التي أمر بها الإسلام الأبناء تجاه آبائهم، تنبت بذورها الأولى من المضامين الأخلاقية والتربوية التي ربى عليها الآباء أبناءهم، ليساهم هؤلاء بإعطاء ما عليهم من بر بعد ما أخذوا ما لهم من تربية على معالمه من قبل الآباء، بل إنّ هذا التأسيس يبدأ أولاً من ضرورة اختيار الزوجة الصالحة كما نصت على ذلك تعاليم الإسلام وبما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: "تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها. فاظفر بذات الدين تربت يداك"[1].

وفي ضوء ما سبق حدد القرضاويّ المعايير الأخلاقية المطلوبة من الوالدين تجاه الابناء على النحو الآتي:

1. التربية على الدين والأخلاق: يُعتبر مبدأ (التكامل الأسري) أساساً عند القرضاويّ، وهو المفهوم الذي يشدد على ضرورة تفاهم الوالدين وتعاونهم معاً لتقديم تربية كاملة وشاملة للأولاد. تشمل هذه التربية المتكاملة جوانب النمو عند الأولاد؛ فتربويا وروحياً يغرس فيهم الإيمان والعبادة، وعقلياً تُنمّى لديهم القدرة على حسن الفهم والثقافة، وخلقياً تُعلمهم حسن الأدب والفضيلة. كما تتناول التربية الجانب الجسمي بالاهتمام بالنظافة والرياضة، واجتماعياً بغرس حب الخير وخدمة الجماعة، وسياسياً بتعليمهم الولاء لأمتهم وعقيدتهم، وفنياً بغرس الشعور بالجمال، وأخيراً لغوياً بتحبيب لغة قومهم إليهم ليحسنوا فهمها والتعبير بها[2]، حيث يرى أنّ الأبناء أمانة من الله يجب رعايتها دينياً وأخلاقياً قبل كل شيء. ويؤكد القرضاويّ على أنّ الأبناء هبة من الله يجب شكرها بحسن التربية بمفهومها الشامل، الذي يؤدي إلى بناء جيل مسلم جديد يحمل في قلبه تعاليم الإسلام الأخلاقية في شتى الجوانب الحياتية.

1 البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب النكاح، حديث رقم 5090.

[2] انظر: القرضاوي، **الأسرة كما يريدها الإسلام**، كتاب الأخلاق، ص55.

2. العدل بين الأبناء: يُعتبر العدل بين الأبناء من أهمّ القضايا الأخلاقية التي يوليها القرضاويّ اهتماماً كبيراً، ويحذر من التمييز الذي يُفسد العلاقة الأسرية .

ويؤكد النّبي صلى الله عليه وسلم على قيمة العدل وأهميتها بين الأبناء في كل شيء وفي كل ما يتعلق بحقوقهم من حقوق النفقة والميراث والتعليم والحياة الكريمة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "اتقوا الله واعدلوا في أولادكم"[1]. حيث يؤكد الحديث وجوب العدل بين الأولاد في كل صور العطاء والمعاملة، تحذيراً من التفضيل الذي قد يورث الكراهية والشقاق بينهم[2]. ويربط النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث قيمة العدل بالتقوى بشكل مباشر ويعدها ذات تأثير في تزكية النفس، بل إنّ التزكية والتقوى لا تتحصل إلا بالعدل بين الأولاد.

ت. أخلاق الأبناء تجاه الوالدين: تعتبر أخلاق الأبناء تجاه الوالدين من أسمى وأرفع المنظومات الأخلاقية في الإسلام، بل إنّ الله عز وجل ربط هذه الأخلاق بتوحيده عز وجل. وقد أولى القرضاويّ اهتماماً كبيراً لحقوق الوالدين على أبنائهم، وصنفها في أعلى درجات الواجبات والأخلاق بعد حقّ الله تعالى، ويذكرها على النحو الآتي:

بر الوالدين والإحسان إليهما: يرى القرضاوي أنّ البرّ ليس مجرد أداء الواجب، بل هو تعبير جامع لمعاني جمة، عظيمة، من مودة ورحمة واحترام.

ويوضح أنّ حساسية الوالدين في هذه المرحلة تكون في غاية الرقة والرحمة، لدرجة أنّ أي كلمة غير لائقة أو جارحة تؤثر فيهما بشدة. ويستشهد النص بالنهي عن قول: أف لهما، مشيراً إلى أنّ هذه الكلمة البسيطة تدل على ضرورة الإكرام والبر التام للوالدين والابتعاد عن كل ما قد يجرح شعورهما. قال تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ

[1] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، حديث رقم 1623، ص1243.

[2] انظر: القرضاوي، **الأسرة كما يريدها الإسلام**، ص60.

وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ [الإسراء:23] [1]. وقد قرن الله عبادته بحق الوالدين، فقال: ﴿۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ ﴿٣٦﴾﴾ [النساء:36]، ممّا يدل على علو حق الوالدين وأهميته.

ويقول القرطبي في هذا الشأن: "من البر بهما والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبهما ولا يعقهما، فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف، وبذلك وردت السنة الثابتة"[2].

كما يؤكد القرضاويّ على أنّ طاعة الوالدين واجبة في غير معصية، وأنّها من صلب البرّ والإحسان. ويُشدّد على أنّ الإنفاق على الوالدين واجب على الأبناء إذا كانا محتاجين، وأنّ هذا الحق مقدم على النفقة على غيرهم[3].

فالأخلاق الأسرية (كالمكارمة الزوجية، والعدل بين الأبناء، وبر الوالدين) هي الميدان العملي الأقرب لتزكية النّفس في الإسلام وهو أقرب بيئة اجتماعية للإنسان، ألا وهي الأسرة. هذا النظام الأخلاقي يُطهر النّفس من الأمراض القلبيّة مثل حب النّفس والشُحّ والقسوة، ويُنمّي فيها فضائل التواضع، والإحسان والمسؤولية والإنصاف منذ أوائل النمو الأسري. بالتالي، يتحول أداء الحقوق والواجبات الأسرية إلى عبادة عملية ترفع مستوى التقوى وتُحقق الصلاح للفرد والمجتمع وتعزز معالم الحياة الربانية عند كافة مركبات الأسرة.

ثانياً: التزكية على صعيد المجتمع.

انتقل القرضاويّ للحديث عن الخطوط العامة الضرورية لصناعة التزكية المجتمعية وسيرها في طريق الربانية، ولهذه الغاية وضع القرضاويّ عدة أسس لتفعيل مسار هذا المستوى من التزكية، منها:

---

[1] انظر: القرضاوي، **الأسرة كما يريدها الإسلام، مكتبة وهبة**، ص42.

[2] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج10، 238.

[3] انظر: القرضاوي، **الأسرة كما يريدها الإسلام، مكتبة وهبة**، ص42.

أ. توسيع دائرة فعل الخير: يرى القرضاوي أنّ توسيع دائرة فعل الخير هو أهمّ أساس من أسس التزكية داخل المجتمع، لا على صعيد المجتمع المسلم فحسب، بل إنّه يرى أنّ هذه الدائرة تتسع لغير المسلمين داخل المجتمع المسلم[1].

ويسوق القرضاويّ دليله في ذلك متمثلاً بقوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة:8]. حيث لم يكتف الإسلام بالأمر بالعدل تجاه غير المسلمين، بل أوصى ببرهم وهي أعلى وأجل درجات الصلة بين المسلمين. ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧﴾ [الحج:77]. وفعل الخير في هذه الآية جاء بصيغة مطلقة وعامة، ليشمل كل ما هو خير في الإسلام، ولا يختص هذا الأمر بنوع معين من الأعمال، بل يشمل جميع الأعمال الصالحة، وهذا ما يراه ابن تيمية وهو أنّ فعل الخير يشمل كل أنواع البرّ والمعروف، فيقول:" كل واجب ومستحب"[2]؛ من صلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء، وقضاء حوائج المسلمين، وغير ذلك من الأفعال التي لا تندرج تحت الركوع والسجود.

ب. العدل: إنّ إرساء قيمة العدل في المجتمع المسلم أمر أساسي لضبط سير الحياة ولتفعيل قيم تزكية النّفس المجتمعية. ويُعد العدل في الإسلام إحدى القيم الأساسية العليا ذات المنزلة العالية، فهو الذي يضبط سير حياة المسلمين على كافة الأصعدة والمجالات ويمنع المجتمعات المسلمة من التشرذم والانهيار، ولذلك أمر به الإسلام ودعا إلى تطبيقه في جميع جوانب الحياة[3].

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص703.

[2] ابن تيمية، أحمد. **مجموع الفتاوى**. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425 هـ / 2004 م، ج **15**، ص .**266**

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص705.

وذكر القرضاويّ ما يشير إلى دور إرساء العدل في المجتمع المسلم في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿۞وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ ﴿٥٨﴾﴾ [النساء:58]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل:90].

وأكّد القرضاوي أنّ تحقيق هذه القيمة يكون بثلاثة عوامل هي:

1. شمولية العدل: حيث أمر الإسلام بالعدل مع كل أطياف المجتمع المسلم، وكل مواطني الدولة المسلمة، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية وأكّد القرضاويّ على ضرورة إرساء العدل في مختلف جوانب الحياة، في القول، والكتابة والشهادة والحكم وبين الزوجات وبين الأولاد[1].

2. النهي عن الظلم: أكّد القرضاويّ على أنّ الاسلام نهى عن الظلم وشدد على ذلك في آيات عديدة، ذكر منها قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:258]، وقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل:52].

بل إنّ الإسلام لم يكتف بالنهي عن الظلم فحسب، بل حرم مجرد الركون إلى الظالمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:113].

3. الحكم بالقسط والنهي عن المحاباة: ذكر القرضاويّ بأنّ الإسلام حذر من المحاباة، كما جاء في القرآن الكريم: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن

[1] انظر، القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص706.

يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ [النساء:135].

وفي الآية ما يشير إلى وجوب تطبيق العدل بشكل مطلق وشامل، فيكون عدله مع البعيد كالقريب، ومع العدو كالصديق، ومع غير المسلم كالمسلم، دون أن تؤثّر فيه عاطفة[1].

ولا شك أنّ مبدأ العدل بعد تحقّقه بالقواعد الثلاثة المذكورة يضمن سير المسار التزكوي للمجتمع واستمراريته كما يحبه الله لعباده المؤمنين، حيث تقوم الشريعة في جوهرها على تحقيق الحكم ومصالح العباد في الدنيا والآخرة؛ فهي عدلٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وحكمة. فكل اجتهادٍ آل إلى الجور بدل العدل، أو القسوة بدل الرحمة، أو المفسدة بدل المصلحة، أو العبث بدل الحكمة، فليس من الشريعة وإن نُسب إليها بالتأويل. والعدل ميزان الله في خلقه، وبه يستقيم نظام الحياة[2].

ت. الإحسان: ذهب القرضاويّ إلى ورود صورتين للإحسان في القرآن الكريم، وأكّد أنّه خلق عظيم بصورتيه وهما: الإتقان في كل أعمال المسلم في الدنيا، والإحسان بمفهومه التزكوي المتعلق بمحيط الإنسان المجتمعي، ويفصّل في كل منهما مع ذكر الدليل من القرآن والسنة الصحيحة على النحو الآتي:

1. إحسان يتعلق بالأعمال: يؤصل القرضاوي لمبدأ الإتقان بوصفه فريضةً شرعية لا خياراً أخلاقياً فحسب؛ فالمسلم في نظره ملزمٌ بإتقان كل عملٍ يقوم به، سواء كان شعيرةً تعبدية أو عملاً دنيوياً. إذ لا يقلُّ إحسانُ العمل الدنيوي أهميةً عن العبادات، لكونه ينبع من صلب التزكية[3].

وذكر في استدلاله على ما ذهب إليه ما رُوي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنّ الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص706.

[2] انظر: بن القيم، اعلام الموقعين، جزء 3 ص 11.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص708.

أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته"[1]. وعبارة "إن الله كتب"، تدل على الالزام، كما في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ١٧٨﴾ [البقرة:178]. أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ١٨٣﴾ [البقرة:183]. فالله تعالى الذي كتب علينا الإحسان في كل عمل، وارفع من هذا أن هذا الاحسان ثمرته محبة الله جل وعلا[2].

2. إحسان يتعلق بالأشخاص: إنّ الإحسان المقصود هنا هو ذلك الإحسان المتعلق بالبعد المجتمعي الذي يعتبر الإنسان عضواً في مجتمع مسلم، متكاتف، متكامل ومتكافل. ويذكر القرضاويّ رحمه الله المجالات التي ينبغي للعبد أن يخوض فيها رحلة الإحسان العظيمة، مورداً دليله على ما ذهب إليه، فلا يقتصر الإحسان إلى أدني ممّا ذكر في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء:36][3].

أي إنّ انتشار خلق الإحسان بنوعيه داخل المجتمع المسلم يشكل صلاحاً للمجتمع من وجهين الوجه العملي والقلبي. واعتبر العلماء الإحسان أساسًا للتكافل الاجتماعي والتزكية المجتمعية.

ث. الرحمة: وهي من أكثر الفضائل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المشرفة، بل كانت عنوان الرسالة المحمدية.

[1] مسلم، **صحيح مسلم**، الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل حديث رقم 1955 (1548/3)

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص708.

[3] انظر: المرجع السابق، 40\709.

ويدعو الإسلام إلى الرحمة ويرتب عليها خيري الدنيا والآخرة؛ لأنّ الرحمة صفة أساسية لله، متجسدة في اسميه "الرحمن الرحيم"، اللذين يرددهما المسلم مراراً. وقد أعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن رحمة الله لا تُستحق إلا برحمة عباده[1]، وفي هذا يقول: "من لا يرحم لا يرحم"[2].

وقد علق على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء:107]، أنّ جوهر وغاية بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي تحقيق الرحمة الشاملة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان والعرق والدين، لتشمل جميع المخلوقات[3].

ولم يتجاهل الإسلام الأمر بالرحمة لكل الكائنات الحية التي تحيط بنا، فتلك هي معالم الإسلام الأخلاقية الخالدة، التي تنظر بعين الرحمة والرأفة إلى كل ما خلق الله جل وعلا على هذه الأرض.

وإنّ تفعيل خلق الرحمة لإرساء معالم التزكية على الصعيد المجتمعي لهو أمر محوري في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، يهدف إلى التكافل والمحبة داخل المجتمع المسلم، والاقتداء بصفات الرحمة الربانية "ورحمة الله تامة عامة، أما تمامها: فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها، وأما عمومها فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق، وعم الدنيا والآخرة، وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجية منها فهو الرحيم المطلق حقاً"[4].

ج. الوفاء بالعهد: لإضفاء قيمة الثقة المتبادلة في المجتمع المسلم وحالة الاستقرار، بل والازدهار في سائر مناحي الحياة في المجتمع المسلم، بأمان في شتى مناحي الحياة، أمر الله عباده في سورة المائدة بالوفاء بالعقود.

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص710

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيلهحديث رقم 5997 (7/8)

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص711.

[4] ابن سعود الكبير، عبد العزيز بن محمد. **منهج الصحابة في دعوة المشركين من غير أهل الكتاب**. بيروت: دار الرسالة العالمية، ط **1**، 1442 هـ / 2021 م، ص 343.

وأشار القرضاويّ إلى ما ينبغي أن يتضمنه الوفاء بالعهود، فإذا قطع المسلم على نفسه عهداً مع الله (ولو كان بينه وبين نفسه)، سواء كان بفعل شيء أو تركه، فإنه يجب عليه الوفاء به، وإلا استحق الذم والعقاب من الله، ليصبح بذلك في صفة المنافقين في عدم الوفاء بالعهود. الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:75-78][1].

وقد أورد القرضاويّ آيات عدة تشير إلى أهمية الوفاء بالعهد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴿١﴾﴾ [المائدة:1]. وجعل القرآن إحدى وصاياه العشر في سورة الأنعام: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأنعام:152]. وفي وصايا سورة الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء:34]، وفي سورة النحل، أمر ونهى وأكّد وحذر، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل:91].

ويرى القرضاوي أنّ الوفاء بالعهود والالتزامات يمثل الأساس الذي يمنح التعامل بين الناس الثقة والاستقرار، ولهذا بدأ القرآن إحدى سوره الكبار كسورة المائدة، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴿١﴾﴾ [المائدة:1][2].

وشمل القرضاويّ في هذا الخلق العظيم مجالات عدة للوفاء بالعهد منها: عهد الإنسان مع نفسه، أو عهده مع غيره، وعهده مع الله أو مع الناس، وعهده مع الصديق أو مع العدو[3].

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص712.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص712.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص712.

لقد كثرت الآيات التي أكدت على الوفاء بالعهد؛ ذلك لأنّه ينبغي لدولة الإسلام أن تكون مرآة لقلب المسلم ذاته في قيمة الوفاء بالعهد، ولعلّ هذا ممّا غزا قلوب النّاس ليدخلوا في دين الله أفواجاً، والتزام الفرد والجماعات في المجتمع المسلم بالعهود والمواثيق هو تزكية للنفس والجماعة من رذيلة الخيانة، وهذا يؤدّي إلى تزكية المجتمع بأسره، فيتحول إلى مجتمع فاضل يتحلى بالصفات الحميدة على رأسها المروءة والثقة، وينتفي عنه الفساد والغدر.

قال ابن القيم عند شرح قوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء:34]: "بأنّ وفاء العهد مع الله يكون بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم "أن من علامات النفاق الغدر بعد العهد"[1]. فمن خان عهده مع الله وغدر به، فهو ليس ممن وفى بعهده مع الله، لأن الإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به[2].

ح. الصدق: أورد القرضاويّ تعريفه للصدق مبيناً نظرة الإسلام له ومجالاته، فالصدق فضيلة إنسانية عالمية وأساس الثقة بين الناس، ويشمل في الإسلام القول والفعل والنية، ويجب تحقيقه مع الله والنفس والناس جميعاً، وإن كان أكثر ظهوره في الأقوال[3].

ولتحقيق قيمة الصدق على الصعيد المجتمعي وجّهه القرضاويّ في ثلاث وجهات رئيسيّه: الأول: الصدق مع الله. والثاني: الصدق مع النفس. والثالث: الصدق مع الناس.

ويرى القرضاويّ أنّه ينبغي على المسلم لتحقيق الاتجاه الثالث، أن يكون قد حقق الصدق مع الله أولاً، وذلك بأن يتعامل المسلم مع خالقه بكل صدق وإخلاص، مدركًا أنّ الله تعالى يعلم باطنه كما يعلم ظاهره، وأنّه سبحانه قادر على كشفه وفضحه أمام أقرب الناس إليه إذا لم يكن صادقًا في نيته وعمله[4]. وأمّا الصدق مع

[1] البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم (2459)

[2] ابن القيّم، **مدارج السالكين**، ج1، ص 434.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص713.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص714.

النّفس فهو أن يعيش الإنسان حياة شفافة واضحة صادقة مع نفسه فيواجه الإنسان نفسه بالواقع، ولا يفتري عليها أو يخدعها بقول غير الحق. فرغم أن الإنسان قد ينجح في خداع الآخرين، إلا أنّه من الصعب، بل المستحيل أن يخدع ذاته الحقيقية بشكل مستمر، لأنّها أعلم به وبنواياه[1].

ويرى القرضاوي أنّ الصدق عمود ثبات وسيرورة المجتمع في الحياة الربانية وفي مسيرة التزكية بأن لا يكذب ولا يخدع، ولا يتآمر ضد أمته، بل يكون مع المسلمين قلباً وقالباً[2]. وذكر أدلة على ذلك من القرآن والسنة النبوية منها:

أولاً: من القرآن الكريم:

1. الأمر بملازمة الصادقين: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة:119]. والصادقون هم الذين استقامت سريرتهم فصدقوا في عقيدتهم، وأقوالهم.

2. النهي عن مخالفة القول للفعل: قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ [الصف:2-3]. وهو تحذير شديد من الكذب الذي يورث مقت الله.

ثانياً: من السنة النبوية:

الصدق كمسار للمصير الأخروي: عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنّ النبي ﷺ قال: "إنّ الصدق يهدي إلى البر، وإنّ البرّ يهدي إلى الجنة..، وإنّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنّ الفجور يهدي إلى النّار" [3]

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص715.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص715.

[3] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119] وَمَا يُنْهَى عَنِ الكَذِبِ، حديث رقم 6094 (25/8)

تؤكد هذه الأدلة في منهج القرضاوي أن الصدق ليس مجرد فضيلة ظاهرية، بل هو محور ارتكاز الشخصية الربانية وضمانة تماسك المجتمع؛ فالبداية تكون بصدق النية التي تظهر في استقامة الجوارح، وبحسب الأصبهاني، فإن الصدق يمثل الدرع الحصين الذي يحمي المؤمن من الانحراف نحو الباطل، ويحقق له التوازن النفسي بين الخوف والرجاء، ممّا يجعل التزكية عملية شاملة تطهر الظاهر والباطن معاً[1].

خ. حسن الظّنّ: يعرف القرضاويّ حسن الظّنّ بأنّه تغليب النظر إلى الجانب الإيجابيّ والمضيء في الآخرين، واعتبار الأصل فيهم هو الخير والصلاح، خصوصًا المؤمنين منهم، وأنّ الشر أمرٌ عارض[2].

ولعلّ من أعظم الآفات التي تمر بها مجتمعاتنا الإسلامية في هذا الزمان هو سوء الظّنّ وعلى رأسه سوء الظّنّ بالناس، واختار القرضاويّ قول الغزالي حول حسن الظّنّ ونقيضه ليعبر عن علو منزلة حسن الظّنّ مقابل خطورة سوء الظّنّ على المنظومة الأخلاقية للمجتمع، قال الغزالي: "خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير، حسن الظّنّ بالله، وحسن الظّنّ بالناس. وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر سوء الظّنّ بالله، وسوء الظّنّ بالناس"[3].

قد أورد القرضاويّ العديد من الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية التي تبيّن مغبة ومخاطر سوء الظّنّ، وذلك لبيان أهمية أن يتسع القلب فقط لإمكانية حسن الظّنّ وحده، أكان ذلك حسن الظّنّ بالله أم بالناس. ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام، يقول: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظّنّ بالله عز وجل"[4].

---

[1] الاصبهاني، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء** ج9، ص380.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص716.

[3] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج2، ص208.

[4] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت 2877 (2205/4)

وفي هذا تطبيق عملي لمبدأ التخلية قبل التحلية أي إزالة معالم سوء الظّنّ ومآلاته، مقابل إرساء معالم حسن الظّنّ في القلب ومآلاته، لكن في المقابل يحذر ابن القيم من عاقبة حسن الظّنّ بالنفس، فيقول: "ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه"[1].

د. الإخاء: يرى القرضاويّ رحمه الله أنّ الإخاء قيمة اخلاقية ضرورية وتطبيق عملي لوصايا النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين المباشرة في إرساء قيم الإخاء لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا"[2]، ووردت آيات كثيرة تؤكد على ضرورة وأهمية تطبيق خلق الإخاء بين الناس، فالإخاء عند القرضاويّ هو تجسيد للمجتمع المثالي؛ هو الذي يعيش أفراده كأسرة واحدة، متحابين ومترابطين ومتعاونين، يشعرون بأن قوة الفرد منهم هي قوة للجميع، وضعفه ضعف لهم[3].

وقيمة الإخاء كما نرى من تعريف القرضاويّ لها قيمة عالية مرموقة، تندرج تحتها قيم كثيرة أخرى كقيمة، نصرة المستضعفين واليتامى والضعفاء وإكرام الجار التي بتحققها تتحقق هذه القيم.

وقد ذكر في هذا الجانب باقة من الأدلة التي تشير إلى دور الإخاء العظيم في بناء نسيج المجتمع المسلم ومن هذه الأدلة، قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات:10]. حيث يرى القرضاوي بأنّ الإسلام جعل الأخوة من أعظم النعم[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا١٠٣﴾ [آل عمران:103]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٢ وَأَلَّفَ

[1] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج1، ص189.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، بَابٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ} [الحج: 19] حديث رقم 6066 (2323/4)

[3] انظر، القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص736.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص736.

بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ [الأنفال:62-63].

ويذكر القرضاويّ ما يؤكد على هذه القيمة الهامة لبناء المجتمع وتماسكه وثباته في طريق التزكية المجتمعية، بما ابن عمر رضي الله عنهما أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا"[2].

ويؤكد القرضاوي أنّ المحبة تشكل العنصر الجوهري والأساسي للأخوة في الدين الإسلامي، موضحًا أنّها تتدرج في مراتب تبدأ بالحد الأدنى وتنتهي بأعلى درجات التضحية[3].

1. سلامة الصدور ودفع العداوة والبغضاء: وتعني تطهير القلب من الحسد والأحقاد التي تسبب الشحناء. ويشير القرضاوي إلى أنّ القرآن الكريم يعتبر العداوة عقوبة إلهية للمنحرفين، بل ويجعل إيقاع العداوة والبغضاء هو العلة الأولى لتحريم الخمر والميسر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة:91]. ويحذر من أن جو البغضاء بيئة خصبة لكل الأخلاق الذميمة، كسوء الظن، المفضية إلى العداوة بين الناس[4].

2. إصلاح ذات البين: وهي الآلية العملية لتحقيق هذه السلامة القلبية. ولعظم هذه القيمة، خصص القرآن الكريم سهمًا في الزكاة للغارمين لإصلاح ذات البين، واعتبرها القرضاوي من أفضل القربات، مؤكداً أنّ هذا

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه، حديث رقم 2442 (128/3)

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأدب، بَابُ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ} [الحجرات: 12] حديث رقم 6066 (19/8)

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص738.

[4] انظر: المرجع نفسه ج40، كتاب الأخلاق، ص738.

الإصلاح يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالتقوى وطاعة الله ورسوله، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات:10][1].

3. أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وهي الدرجة الأكثر سمواً من سلامة الصدر؛ وبها تستقيم أحوال المجتمع على مشاطرة المعروف والود بين الناس. ويشدد القرضاوي مستندًا للحديث النبوي على أن هذه الخصلة هي شرط لكمال الإيمان، فمقتضاها أن يكره المسلم لأخيه ما يكرهه لنفسه، ويحب له رغد العيش والتوفيق والسداد في كل أمر. فعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"[2].

4. أما أعلى درجات المحبة والإخاء فهي الإيثار، أي أن يقدم المسلم أخاه على نفسه فيما يحب، حتى لو كان به فقر أو حاجة شديدة (خصاصة). ويضرب القرضاوي المثل بحال الأنصار مع المهاجرين، كحالة نادرة من التضحية والتعفف، ويؤكد أنّ هذه الحالة تمثل المثل الأعلى للمجتمعات الإنسانية. لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر:9].

إن تطبيق هذه المراتب الأربع، من دفع العداوة إلى بلوغ الإيثار، هو التفعيل العملي للتزكية المجتمعية، فالأخوة في المجتمع المؤمن ليست عاطفة عابرة، بل هي أصل من أصول الإيمان والتزكية. فعندما تزكو النفوس وتتطهر من البغضاء وتتراحم بالإيثار، تتشكل البيئة المثالية للحياة الربانية.

[1] انظر: المرجع نفسه ج40، كتاب الأخلاق، ص738.

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، بَابٌ: مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، حديث رقم 13 (12/1)

ثالثاً: التزكية على صعيد الأمة.

يعرّف القرضاويّ الأمّة في سياق التزكية الجماعية بأنّها الجماعة الموحّدة التي تنتمي إلى الإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم، ويؤكد أنّها بالضرورة أمة واحدة تجمعها عدة أسس هي: وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة الأخلاق والآداب، ووحدة العبادة، ووحدة الديار، ووحدة القيادة من مبايعة خليفة واحد يقود الجميع، ويحكم بالقرآن والسنة[1].

ويؤكد على ضرورة صياغة مفهوم الوحدة التي ينبغي للأمة أن توفره لعامة المسلمين في إطارها ثمّ يذكر أنّه لا بد لهذه الأمّة من ميزتين أساسيتين احداهما في فقه الظاهر، والأخرى في فقه الباطن، أشار إليهما القرآن الكريم، هما: العبادة والتقوى. وذكر الآيات القرآنية التي تشير إلى هاتين الميزتين، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء:92]. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون:52].فإقامة العبادة وتحقيق التقوى لأبناء الأمة لا يكتملان ولا يصحان إلا بتحقيق الوحدة والاتحاد فيما بينهم[2].

وهذا يشير إلى أنّ التزكية على صعيد الأمّة هي إحدى مستلزمات وجودها ووحدتها وبقاءها بين الأمم كأمة رائدة موحدة في إطار المفاهيم الكبرى وهي العبادة والتقوى، وإن شئت فقه الباطن وفقه الظاهر.

مسألة: تصور القرضاويّ لدور الأمّة في بناء التزكية المجتمعية

يرى القرضاوي أنّ هناك دور محوري للأمة ينبغي أن تتحقق لصياغة وبناء مفهوم الأمّة في المجتمعات المسلمة القائمة، وهو توسيع دائرة الخير بالتعدي من القصور في تحقيق المقومات الظاهرة، نحو إرساء

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص761.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص761.

مقومات التزكية، فلا ينبغي أن يتمحور دور الأمة في التطبيقات الظاهرة للشريعة الإسلامية فحسب، بل بناء الأمة يكون في تقويمها الأخلاقي.

إن دور الأمة المسلمة يتجاوز مجرد تطبيق القوانين الشرعية، بل يتعدى ذلك نحو إقامة مجتمع متميز متكامل يتمحور حول العقيدة والقيم والأخلاق والآداب والمفاهيم الإسلامية الشاملة، التي توجه كل جوانب الحياة (السياسة، الاقتصاد، الفنون)، ولا يقتصر على الجانب التشريعي أو الجزائي وحده متعدياً ذلك نحو البناء التزكوي الأخلاقي والرباني المتوازن[1].

خصائص الأمة المسلمة عند القرضاوي:

أ. أمّة مجعولة ومصنوعة إلهياً؛ أي مخلوقة بقدر الله تعالى: يؤكد القرضاوي أنّ الأمة الإسلامية هي أمة "مجعولة" أو "مصنوعة" بيد الله تعالى، وهذا الإخبار الإلهي يمنحها يميزها عن غيرها من الامم. فقد أخبرنا الله أنه جعل هذه الأمة لتكوين نموذج عملي يجسد الوسطية أمام سائر البشر، لأنّ الناس لا يكتفون بالتنظير، بل يحتاجون إلى نموذج تطبيقي واقعي. وذكر القرآن هذا الصنع الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:143][2].

ب. أمّة وسطاً لا تعرف الغلو أو التساهل: ومن أبرز خصائص هذه الأمة أنّها أمة وسطاً، وهذه الوسطية متحققة في جميع مناحي الحياة، سواءً كانت عقدية أو تشريعية أو أخلاقية. هذه الوسطية تجعل الأمة ترفض الانحراف نحو تيار الغلو والتشدد كما ترفض تيار التساهل، فالإسلام لا يقبل الإفراط أو التفريط في ميزان الحياة، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن:7-9][3].

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص760.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص762-763.

[3] المرجع نفسه ج40، ص762-763.

ت. أمّة مخرجة لنفع الناس: كما يصف القرضاوي هذه الأمة بأنها أمة مخرجة للناس، مؤكداً أنّ الذي جعلها أمة وسطاً هو الذي أخرجها للوجود، ولم يكن إخراجها لنفسها فحسب، بل كان لنفع الناس جميعا، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم فهي حاملة لرسالة عالمية. وقد بيّن القرآن الكريم أن سر هذه الأفضلية وسبب هذا الإخراج إنّما يكمن في التزامها بأعمدة ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله، لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:110][1].

مسألة: أوصاف الأمّة التزكوية في إطار العالمية عند القرضاويّ وأدلته القرآنية.

يرى القرضاوي أنّ الله وصف المكونات البشرية للأمة التي ينبغي أن تكون عليها لتحقيق أهداف التزكية والأخلاق بوصفين أساسيين:

أ. يرى أنّ هذه الرسالة دعوة أمر ونهي، كما في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:104].

ب. يرى أنّ الهدف الثاني وهو الإيمان جاء متأخراً، دلالة على كون الأول حصناً للدفاع عن الثاني، فتأخير ذكر الإيمان بالله بعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية ليس تقليلاً من شأن الإيمان، بل لإبراز دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كسياج وظيفي وضروري، لحفظ إيمان الأمة وعقيدتها وثوابتها من الضياع[2].

والناتج من هذا، أنّ دور الأمّة المحوري في إرساء معالم التزكية وصياغة المنظومة الأخلاقية العليا كمَعلَم رفيع وأساسي لمشروعية بقائها الأخلاقي أدّى إلى ريادة هذه الأمّة في الأرض، وتبوّئها دوراً قيادياً كان قدوة

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص762-763.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص763-764.

للناس ووجهة لهم اتبعوها على اختلاف أديانهم دونما قوة ولا إجبار. ريادةٌ رأت بها سائر الأمم المفتقرة إلى المنظومة الأخلاقية في الإسلام خطراً على بقائها، فلم تر نفسها في موقع ينافس أمّة الإسلام كأمة وسط أخرجت للناس، ومقدرة من الله آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر، فطورت آليات الإبادة الشاملة للشعوب، لأنّها أدركت أنّ هذا هو السبيل الوحيد لصدّ خطر الإسلام على شتى خصائصه التزكوية عليها. ولم تفقد الأمّة هذه الريادة إلا بعدما فقدت القدرة على تجديد مشروعها الأخلاقي والتزكوي، وهو ما أكّد عليه الدكتور طه عبد الرحمن بقوله: "لم تعد الأمّة الإسلامية على حالها اليوم، قادرة على تبوُّء موقع القيادة الروحية والعالمية، كما كانت في سالف العصور، لأنّها فقدت المقومات التي أهلتها لذلك، وعلى رأسها، القدرة على تجديد مشروعها الأخلاقي وتفعيل دوره، وبخاصة في جانب التزكية الذي هو قلب هذا المشروع، ومادام حالها هذا، فليس لها أن تلوم غيرها، إذا ما استبدل بها، أو استبيح ما تملكه، أو صار جزءا لا يُذكر في خريطة القوى العالمية"[1].

المسار الرابع: التزكية على صعيد الدولة.

تقوم الدولة المسلمة على مجموعة من القيم التي تؤمن بها، بل وتشكل عمودها الأخلاقي ومشروعيته عبر العصور، وتميزها عن باقي الأمم، وهذه هي القيم الأخلاقية الإنسانية والأساسية التي تقوم عليها الدولة المسلمة والمجتمع المسلم من آداب وثقافة، تجعله نسيجاً واحداً غير مقلد لغيره، وبها يتم تفعيل منظومة التزكية المرجوة كما يراها الشيخ القرضاويّ، فالقيم الأخلاقية الإنسانية هي الأسس التي تقوم على الاحترام التام لكرامة الإنسان وحريته وحقوقه وحرماته كحفظ دمه وعرضه وماله وعقله ونسله، لمجرد كونه إنسانًا وعضوًا في المجتمع[2].

ثم يفصّل في كل قيمة من هذه القيم التي ذكرها على الآتي:

[1] طه عبد الرحمن، **روح الدين: من ضيق العقل الى سعة القلب**، ص121.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص765.

أ. قيمة العلم: يرى القرضاوي أنّ العلم قيمة أخلاقية عليا نشأت عن العقلية العلمية التي غرزها القرآن في حاضر المسلمين بعيداً عن التقليد واتباع الهوى والعمل بما جاء به الآباء والأجداد دون وضعه في نطاق الأدلة العلمية.

ولبيان خطر الاتباع بغير علم أورد القرضاويّ قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة:170]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب:67-68].

ويرى القرضاوي أنّ الإسلام هو دين العلم وأن القرآن هو كتاب العلم، ويستدل على هذا الرابط المتين بما كان أول ما نزل من الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق:1-5].

ويذكر القرضاوي أنّ العلم أساس التفاضل والخشية ويسوق الأدلة على ذلك على النحو الآتي:

1. العلم أساس التفاضل في القرآن[1]، قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ٩﴾ [الزمر:9].

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص766.

2. جعل القرآن الكريم أهل العلم من الشهداء على التوحيد لله تعالى مع الملائكة[1]، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:18].

3. العلماء أكثر خشية لله من عباده، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:28]، إنّ خشية الله لا تتحقق إلا بمعرفته، وتتم هذه المعرفة بالتأمل في آثار قدرته ورحمته الظاهرة في الكون والخلق، ولذلك جاء ذكر الخشية في القرآن والسنة مرتبطاً بالنظر في آيات الله الكونية[2]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر:27-28].

ب. قيمة العمل الأحسن: لقد فصل القرضاويّ في معنى العمل الأحسن أو ما سماه العمل المنشود في الإسلام وماهيته ومراتبه على النحو الآتي:

1. العمل المنشود هو عمل الصالحات، وهو تعبير قرآني شامل يضم كل فعل يصلح به حال الإنسان في دينه ودنياه، ويصلح به الفرد والمجتمع معاً، فيشمل كلاً من العبادات والمعاملات، أي عمل المعاش والمعاد[3].

2. "لقد بين القرآن أن الله تعالى خلق السماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وجعل ما على الأرض زينة لها، لهدف واضح حدده بقوله سبحانه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ﴿٧﴾﴾ [هود:7]. ومعنى هذا أن الخالق جل شأنه لا يريد من النّاس أي عمل، ولا مجرد العمل الحسن، بل يريد منهم العمل الأحسن".

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص766.

[2] المرجع نفسه ج40، ص766.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص772.

ويشير القرضاويّ إلى أنّ القرآن الكريم حثّ على اتّباع ما هو أحسن في كل شيء: بالمجادلة، وبالدفع، وباستثمار مال اليتيم، وباتباع أحسن ما أنزل إليه من ربه: كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر:55].

ويقول القرضاويّ معلقاً على دور المؤمن في تأدية العمل على أكمل وجه، في إطار الدولة، من خلال الآية الكريمة، فهو يطمح دائماً إلى ما هو أحسن، ولا يكتفي بالحسن. والنبي صلى الله عليه وسلم يعلّم الأمّة أن يتطلعوا دائماً للأعلى والأحسن، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أعلى الجنان[1]" [2].

ويرى القرضاوي أنّ العمل كأداة تزكوية مطلوب لذاته أكثر ممّا هو مطلوب لنتائجه ومخرجاته، فيؤكد أن من أهم التوجيهات النبوية في إبراز دور العمل وبيان أهميته، الحديث الذي يقول: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم، أي الساعة، حتى يغرسها فليغرسها"[3]" [4].

فالعمل عند القرضاوي هو حالة رباط مرتبطة بوجود الإنسان؛ حيث تكتمل تزكية النفس بالبقاء على ثغرة البناء والعطاء حتى الرمق الأخير، لتتحول حركة المسلم في إعمار الأرض من مجرد إنتاج مادي إلى حياة ربانية دائمة، تُثبت صِدق انتمائه للمنهج الرباني في أحلك الظروف.

وهذه القيمة من العمل الأحسن هي تعبير مباشر لجوهر التزكية برمته فقد عرّف بعض أهل العلم الإحسان في وجهتين: أحدهما الإتقان، وهو العمل الأحسن؛ أي إتقان العمل على أكمل وجه بأمانة يُرضي بها وجه الله ويؤدي حقوق الناس. ولصناعة الأركان الكبرى لمعالم التزكية على صعيد الدولة، فإن هذه القيمة هي قيمة بنيوية أساسية لنقاء هذه الأركان ودحض آفات الفساد عنها.

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، الجهاد والسير، باب بَابُ دَرَجَاتِ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث رقم، 2790 (16/4)

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص773.

[3] ابن حنبل، **مسند أحمد طبعة الرسالة**، حديث رقم 12981 (251/200). قال الشيخ شعيب: إسناده صحيح.

[4] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، ج40، ص774.

ت. قيمة الحرية: ينتقل القرضاويّ للحديث عن خلق آخر من أخلاق الدولة وهو الحرية، التي تحرر البشر من ممارسات الضغط والقهر والإكراه والإذلال، لتجعله سيداً في الكون، عبداً لله وحده، وتشمل الحرية الدينية، والحرية الفكرية، والحرية السياسية، والحرية المدنية، وسائر الحريات المستقاة من الكتاب والسنة[1].

والحرية الدينية تعني عدم إكراه أي شخص على ترك دينه الذي ارتضاه أو إجباره على اعتناق دين لا يرضاه؛ لأنّ نصوص القرآن الكريم صريحة تماماً في رفض الإكراه في الدين، لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس:99]. وفي القرآن المدني يقول سبحانه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ٢٥٦﴾ [البقرة:256][2].

مسألة: ألفاظ وتعابير ذات صلة بالحرية في القرآن الكريم والسنة النبوية، فالقرضاوي يرى أنّ القرآن الكريم بث معنى الحرية في عدة مصطلحات، وهي على النحو الآتي[3]:

1. الكرامة، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ٧٠﴾ [الإسراء:70].

2. العزة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون:8].

3. تحريم القهر والنّهر، ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ [الضحى:9-10].

4. تحريم الإرهاب والترويع.

5. تحريم الضرب والتعذيب.

مسألة: التوحيد أساس الحرية عند القرضاويّ:

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص775.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص775.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص778.

يرى القرضاوي أنّ أصل الحرية المنشودة في الإسلام هو التوحيد فلا تكتمل أركان الحرية في حاضر الفرد ولا الجماعة ولا تقوم لها قائمة، إلا بالتوحيد، فكلمة التوحيد: لا إله إلا الله، تعني إبطال وتجريد كل المتجبرين في الأرض من سلطتهم المزيفة على الخلق، وإنزالهم من منزلة الربوبية الزائفة إلى مستوى المساواة مع سائر البشر في العبودية الخالصة لله والبنوة لآدم[1].

ولقد شكّلت كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، مصدر قلق وخوف في قلب كل من جعل لله شريكاً في ملكه ودعا إلى التألّه على عباده، وعلى رأسهم مشركي قريش، وآبائهم الأولون، وأدرك المستكبرون والمتجبرون أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله ليست مجرد عقيدة، بل هي إعلان عن انقلاب شامل في الحياة الاجتماعية والسياسية، وتبشر بميلاد جديد للحرية والكرامة لجميع البشر من غير تعد على حقوق الفقراء والمستضعفين، ولذلك جندوا كل طاقاتهم لمعاداة وحرب كل من آمن بها[2].

ولا شك أنّ الحرية التي أساسها التوحيد، هي البيئة الخصبة لسيرورة التزكية والتخلق بالأخلاق السامية المبنية على الفطرة الإنسانية السليمة، فإن كانت التزكية هي التخلص أولا من الذنوب، فإنّ الحرية كلمة قد اتسعت، لتشمل تخلص الإنسان من كل سلطة جائرة. وفي هذا جاءت كلمة عمر بن الخطاب لواليه على مصر عمرو بن العاص، وهي كلمة محفورة في ذاكرة التاريخ: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"[3][4].

ث. الشورى: يرى القرضاوي أنّها من قيم الأخلاق الإنسانية الاجتماعية التي جاء بها الإسلام، والحرية لا تعني الانفراد بالرأي في المسائل التي تتطلب مشاركة الآخرين، لأنّ الرأي الجماعي (الشورى) أو رأي شخصين أو أكثر، يكون أقرب إلى الصواب والحكمة من رأي الفرد الواحد[5].

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص780.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص780.

[3] ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، ص195.

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص776.

[5] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص776-781.

وقد صور القرآن للمسلمين أنّ الأمّة التي تخلو من الشورى بأركانها المذكورة في الشريعة الإسلامية تفضي إلى الاستبداد والتسلط وضياع الحرية الدينية والفكرية.

وقد ذكر القرضاويّ نماذج من القرآن الكريم عن نوعين من الحكم؛ الأول: حكم يقوم على الشورى، والثاني: حكم يقوم على الطغيان والتسلط، وهذا بيانهما:

1. حكم ملكة سبأ: والقرآن الكريم ينقل لنا صورة طيبة عن الحكم الذي يقوم على الشورى، ممثلاً في ملكة سبأ التي فاجأها كتاب سليمان عليه السلام يحمله الهدهد فجمعت قومها فقالت: ﴿قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ٣٢ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ٣٣ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل:32-35][1].

وقد انتهى هذا السلوك الشوري الحكيم بالملكة الرشيدة إلى أنّ أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، فنجت ونجى معها قومها من الحرب، لتحظى بالدنيا والآخرة[2].

2. حكم فرعون: يصف القرضاويّ هذا النّوع من الحكم بأنّه صورة مظلمة تقوم على الطغيان والتسلط، ثمّ يذكر القرضاويّ الآيات القرآنية التي نقلت على لسان فرعون ادعاء الربوبية والألوهية من دون الله، دونما استشارة [3]، الذي قال للنّاس: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات:24] وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:38].. وحين حاور فرعونُ موسى، سأل الملأ من حوله، قال تعالى: ﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾ [الشعراء:34-35].

[1] المرجع نفسه ج40، ص781-776.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص789.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص789.

ثمّ يعلق القرضاويّ على هذا النّوع من استشارة فرعون لمن حوله، من بطانته الفاسدة، في أمر موسى، بعد أن حكم عليه، فيقول: "فهذه ليست استشارة حقيقية، لأنّها تخص الملأ حوله فقط، ثمّ هي استشارة موجهة، فهو لا يأخذ رأيهم في شأن موسى، وماذا تكون رسالته، وما حقيقة أمره، بل حكم عليه قبل أنّ يسألهم الرأي: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء:34-35]"[1].

ويرى القرضاوي أنّ نظام الحكم في الدولة البعيدة عن الشورى، والقائم على الاستبداد والطغيان والفساد في الأرض يصنع مجتمعاً فاسداً، يرضى أن تسلم القيادة للطغاة، فقد لام القرآن قوم نوح على لسانه، بقوله: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾ [نوح:21]، وذمّ عاداً، فقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:59-60][2].

وفي المقابل قدم لنا القرضاويّ المنظومة السليمة لقبول القيادة السياسية وهي الرضا والبيع الاختيارية، فمن ارتضاه المسلمون إماماً أو رئيساً وبايعوه، يصبح هو الولي الشرعي الذي تَجِبُ له الطاعة في المعروف، وتُوجب له المناصحة بالحق، والمعاونة على كل خير[3].

والحق أنّ هذه الشعوب التي يوافق فسادها فساد ملوكها، تفتح للطغاة باب الفساد والطغيان والاستبداد على مصراعيه وتجعل من نفسها لقمة سائغة عند الجبابرة والطغاة. قال تعالى في وصف حال قوم فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف:54]. "أي فاستخف أحلامهم بقوله وكيده، وبما أبداه من عظمة الملك والرياسة، وجعلها مناطا للعلم والنبوة، وأنه لو كانت هناك نبوة لكان أولى

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص789.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص791-792.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص793.

بها، فأطاعوه فيما أمرهم، لأنهم كانوا قوما ذوي ضلال وغيّ ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوي"[1].

ج. الأمانة: يرى القرضاوي أنّ الأمانة خلق مهم من أخلاق الدولة إذ عليها أداء الأمانات إلى أهلها[2]، كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴿٥٨﴾﴾ [النساء:58]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال:27].

لقد كانت الأمانة صفة أساسية عند النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية حتى أطلق عليه لقب الأمين. ثمّ جاء الإسلام، فبقي هذا الوصف لازماً له، صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:19-21]. وقال تعالى في وصف جبريل عليه السلام: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء:193].

ويرى القرضاوي أنّ الأمانة صفة لازمة للأنبياء على مر العصور؛ ذلك لأنّها مشروع إنسان ودولة وأخلاق إنسان ودولة التي من أخلاقها الأولية والأساسية أداء الأمانات إلى أهلها. ويورد الأدلة الآتية في أهمية أداء الأمانة والنهي عن الخيانة:

1. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴿٥٨﴾﴾ [النساء:58].

2. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال:27].

مسألة: نماذج الأمانة القيادية في القرآن الكريم عند القرضاويّ:

---

[1] المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371 هـ)، **تفسير المراغي**، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى 1365 هـ - 1946 م)، ج 25، ص 100.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص793.

ذكر القرضاويّ عدة نماذج للأمانة، اتّصف بها الأنبياء والرسل الذين تبوؤوا مهام القيادة والدعوة وإصلاح المجتمعات والدول، على النحو الآتي:

1. كان يوسف عليه السلام نموذجاً رائعا للأمانة، فبعد أن حقّق عزيز مصر في قضية يوسف عليه السلام وتأكد من براءته ونقاء ساحته للجميع، وصفه بالاستقامة والنزاهة، فقال: ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف:54].[1].

2. أمانة الأنبياء والرسل تجاه أقوامهم: قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء:107][2].

3. أمانة المؤمنين في رعاية عهودهم: قال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ [المؤمنون:8].

مسألة: الأمانة في الولاية في السنة النبوية عند القرضاويّ:

ذكر القرضاويّ ضرورة تحقيق قيمة الأمانة في الولاية كما أكّد عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأهميتها في تحقيق التزكية على صعيد الدولة، على النحو الآتي:

1. لقد دلت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّ الولاية أمانة يجب أداؤها فرض على صاحبها، مثل قوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه في الأمّارة: "إنّها أمانة، وإنّها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليها فيهما[3]" [4].

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص794.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص794.

[3] مسلم، **صحيح مسلم**، كتاب الإمارة، بَابُ كَرَاهَةِ الْإِمَارَةِ بِغَيْرِ ضَرُورَةٍ حديث رقم 1825. (1457/3)

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص801.

2. روى الشيخان عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسؤول عن رعيته، المرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسؤول عن رعيته"[1].

3. عن معقل بن يسار، أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من راع يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاش لها، إلا حرم الله عليه رائحة الجنة"[2].

مسألة: أركان الأمانة في الولاية على شؤون المسلمين عند القرضاويّ:

يرى القرضاوي أنّ مرجعية الأمانة تكون في ثلاث خصال، فأصلها خشية الله، وترك خشية غيره، وأن لا يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً[3].

ثم يورد القرضاويّ دليله على هذه الخصائص الثلاث، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة:44].

فلا شك أنّ تحقيق الأمانة لا يكون إلا بتثبيت قيمة الخشية من الله، وتحييد المؤثرات التي قد تطرأ على النفس، وهما جوهر التزكية على صعيد الدولة المتمثل بالتخلية، أي تحييد المؤثرات السلبية، ثمّ التحلية، أي تثبيت خشية الله لدى اتخاذ القرارات المتعلقة بشؤون المسلمين.

وفي أمر تثبيت خشية الله وتحييد خشية البشر يقول الجرجاني: "فإنّ ما ذكرنا أنّ الخوف من الله تعالى وحده، فمن خاف غيره فإنما صرف إليه حقا من حقوق ربه، فأما من أخلص للخوف له، فإنّه جل جلاه مدحه وأثنى عليه ووعده الأمن يوم الفزع"[4].

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الاستقراض وأداء الديون، بَابٌ: العَبْدُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَلاَ يَعْمَلُ إِلَّا بِإِذْنِهِ حديث رقم 2409. (120/3)

[2] البخاري، **صحيح البخاري**، كتاب الأحكام، بَابُ مَنِ اسْتُرْعِيَ رَعِيَّةً فَلَمْ يَنْصَحْ، حديث رقم 7151 (9/ 64)

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص801.

[4] الجرجاني، أبو عبد الله الحسين بن الحسن (ت 403 هـ)، **المنهاج في شعب الإيمان**، تحقيق: حلمي محمد فودة، (الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى 1399 هـ - 1979 م)، ج 1، ص 515.

ح. العدل: يرى القرضاوي أنّ العدل من القيم الإنسانية الأساسية التي جاء بها الإسلام، وجعلها من مقومات الحياة الفردية، والأسرية، والاجتماعية، والسياسية[1]. وهو إعطاء كل مستحق حقه كاملاً، سواء كان هذا المستحق فرداً، أو جماعة، أو شيئاً مادياً، أو حتى معنى مجرداً؛ ويجب أن يتم ذلك دون طغيان، ولا إخسار، بحيث لا يُبخس حق أحد ولا يُعتدى على حقوق الآخرين[2].

أدلة القرضاويّ على العدل كقيمة للتزكية على صعيد الدولة:

1. قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن:7-9].

2. إنّ العدل هو الهدف من إرسال الرسل وذلك لإحقاق الحق وإقامة القسط والعدل في أرجاء المعمورة. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢٥﴾ [الحديد:25]. ليلتزموا ما أمروا به من العدل، ويتعاملوا فيما بينهم بالنصفة[3].

3. يُعدّ العدل من القيم الإنسانية الجوهرية التي جاء بها الإسلام، وقد جعله الإسلام أساسًا ومقوّماً لا غنى عنه لكل أشكال الحياة، سواء كانت فردية، أو أسرية، أو اجتماعية، أو سياسية[4].

مسألة: العدل ركيزة وخلق المجتمع والدولة:

يرى القرضاوي أنّ العدل يتعدى كونه قيمة اجتماعية ضرورية، ليصبح ركيزةً وخلق دولة ومجتمع. فالمسلم كعضو في مؤسسة أو في إطار اجتماعي، مأمور بالعدل مع كل الناس.

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص805.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق ج40، ص806.

[3] **الواحدي**، أبو الحسن علي بن أحمد (ت 468 هـ)، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون (بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1415 هـ – 1994 م)، ج 4، ص 253

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص805.

والعدل ينبغي أن يكون متحرراً من تأثير العواطف؛ فلا ينبغي أن تدفع عاطفة الحب الشخص إلى المحاباة والظلم بالباطل، كما يجب ألا تمنع عاطفة الكره الشخص من الإنصاف وإعطاء الحق الكامل لمن يستحقه، يقول تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥﴾ [النساء:135].

ويقول سبحانه في العدل مع من نعادي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [المائدة:8][1]

مسألة: دور العدل الاجتماعي في التزكية على صعيد الدولة عند القرضاويّ:

من منهج القرضاويّ صياغة بعض القيم الأخلاقية بمفاهيم معاصرة، منها ما يسمى: (العدل الاجتماعي)، الذي يعرفه على أنّه العدل في توزيع الثروة بإتاحة الفرص المتكافئة لجميع أبناء الأمة، وضمان حصول العاملين على الثمرة الكاملة لأعمالهم دون سرقة من القادرين أو ذوي النفوذ، مع العمل على تقريب الفوارق الشاسعة بين الأفراد والفئات، وذلك بالحد من طغيان الأغنياء ورفع مستوى معيشة الفقراء[2].

ثم يؤكد القرضاويّ على أهمية الحضّ على العدل مستشهداً بالآية الكريمة: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣﴾ [الماعون:1-3].

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص807.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص809.

ولا يقتصر الواجب تجاه المسكين على مجرد إطعامه بشكل فردي، بل يتوجب على المسلم أن يحمل نصيبه في المسؤولية الجماعية، وهي الدعوة إلى إطعامه والحث على رعايته وسد حاجياته وضروراته[1].

وفرض الإسلام حقوقا مالية في أموال الأغنياء، أولها وأعظمها الزكاة التي اعتبرها الإسلام ثالث أركانه[2].

ويبرز دور الدولة المسلمة وترسيخها لمعالم الأخلاق وعلى رأسها العدل في زمن ضياع مفهوم الأمّة ومتعلقاته الأخلاقية، فيصبح هذا الدور بمثابة تحقيق الضرورة القصوى لوقف تهاوي المركبات الاجتماعية الأدنى، خصوصاً حين تتشتت الأمّة لتصبح أشلاء من الدول، بحيث يكون ظاهر حكمها إسلامياً لكنه قد استحوذت عليه مضموناً عواصف الجهل بطرفيه؛ الأول: الجهل القادم من الغزو الاستعماري العملي والفكري وأشكاله المعاصرة، الذي يبث سمه لتقطيع الأواصر الأخلاقية للمجتمعات المسلمة في الدول المسلمة، والثاني: الجهل الموروث من رواسب عصور التخلف الذي أحدث تردي عميق في فهم المسلمين لحقيقة دينهم[3].

خامسا: التزكية على صعيد العالم (أخلاق العالم).

يقصد بأخلاق العالم عند القرضاويّ، أخلاق المسلمين مع الأمّة الإسلامية ومع غير المسلمين، أو مع الأمم الأخرى من العالم[4]. ويرى القرضاويّ وجوب وجود منظومة أخلاقية تجاه العالم وذلك من وجهين:

الأول: أنّ دعوة الإسلام هي دعوة للعالمين: ويسوق الأدلة القرآنية لهذه العالمية، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان:1]، وقوله تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء والرسل محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:107].

---

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص809.

[2] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص810.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص760

[4] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص812.

أرسله الله رحمة للعالمين؛ رحمة غير خاصة بالمسلمين، بل تمتد لتشمل الجن والإنس والملائكة المقربين، وتعم المشارق، والمغارب، والسماوات والأرض[1].

فنبوته صلى الله عليه وسلم التي أساسها الرحمة، ليست انتقائية لفئة من البشر دون أخرى، بل هي رحمة تغمر كل البشر "فهذا الدين رحمة للعالمين، والمفروض فيه أن يغمر العالم كله بهذه الرحمة"[2].

والثاني: أنّ الأصل في الأمّة المسلمة أنّها داعية إلى السلام: لذا فإن القرضاوي يرى أنّ أمّة الإسلام، وبخلاف كثير من الأمم الأخرى– التي تبذل جل طاقاتها في التسلح والاستبداد في الأرض–، أصل العلاقة بينها وبين سائر الأمم هو السلام ما داموا مسالمين للمسلمين.

ثم يذكر القرضاويّ دليله على ذلك ممّا ورد في سورة البقرة: قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة:208].

والمطلوب من جميع أهل الإسلام هو الدخول الكلي والشامل في السلم أي: السلام دون استثناء، وعليهم كذلك دعوة الآخرين لمشاركتهم في هذا السلم، ممّا يؤدي إلى انتشاره في العالم كله. فالأمة الإسلامية هي أمة سلام وهي أولى الناس به، لأن الإسلام والسلم مشتقان من مادة لغوية واحدة: سلم[3].

ثم يورد القرضاويّ من القرآن الكريم ما يدعم رأيه، بأنّ السلام المذكورة في الآيات هو السلام العالمي، أي تجاه الأمم الأخرى بالإضافة إلى السلم الداخلي بين طبقات الأمّة المسلمة. ومن ذلك:

1. أنّ تحية المسلمين في الدنيا والآخرة هي السلام عليكم. فأمّا عن تحية المسلمين في الدنيا فقد قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦ ﴾

[1] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص812.

[2] قطب، **في ظلال القرآن**، ج4، ص2470.

[3] انظر: القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص813.

[النساء:86]. وفي الآخرة قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأحزاب:44]. وقال سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:24]. أنّ الجنة التي يصبو إليها المسلمون اسمها: دار السلام، قال تعالى: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام:127].

2. أنّ من أسمائه سبحانه وتعالى: السلام. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الحشر:23].

3. أن من جنح للسلم جنحنا له: قال تعالى: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال:61]. "فنحن أحباب السلم وأهله، وبودنا لو عاش النّاس جميعاً في السلم"[1].

ويفهم من هذا ومن الآيات القرآنية الواردة في شأن السلم العالمي الذي يأمر به الإسلام أنّ المراد من ذلك ومن رسالة الإسلام العالمية إنشاء عالم تأمن فيه قلوب العالمين ليحيوا مطمئنين، حياة ربانية يصلح فيه شأن العالم كله وتنتقل فيها قيم التزكية بين مركباته المختلفة أفراداً وجماعات، بسلام ووئام ودون تأثير المادية المقيتة والقوة الباطشة.

[1] القرضاوي، **موسوعة الأعمال الكاملة**، كتاب الأخلاق، ج40، ص821.

الخاتمة وفيها أهمّ النتائج والتوصيات

أولا: أهم النتائج:

تناول البحث "تزكية النفس" عند الشيخ يوسف القرضاوي، في ضوء القرآن والسنة النبوية، وتبيّن بوضوح أنّ هذا الموضوع يشكّل محورًا جوهريًا في البناء الإيماني والأخلاقي، وأنه يمثل أساسًا نهضويًا لإصلاح الفرد والمجتمع معًا.

وقد جاءت أهم نتائج الدراسة على النحو الآتي:

1. تعد التزكية عملية تربوية شاملة ومتكاملة (جسداً وروحاً وعقلاً)، تقوم على التأصيل الشرعي من القرآن والسنة، بعيداً عن المفاهيم الدخيلة، ممّا يجعلها بناءً مستمراً دائم ومتواصل حتى الرمق الأخير، ولا ينفصل عن الواقع.

2. تتجاوز التزكية عند القرضاوي المفهوم التقليدي للعزلة الذاتية، لتصبح منهجاً فعّالا يجمع بين **التخلية** من معوقات عمارة الأرض؛ كالأنانية، واليأس، والتبعية المادية، والتحلية بالقيم المحركة للفاعلية؛ كالإتقان، والصدق، والمسؤولية الاجتماعية، ممّا يحوّل المسلم من مجرد عابد في صومعته إلى طاقة إيجابية في مجتمعه.

3. لا يقف مقصد التزكية عند الارتقاء الفردي، بل يمتد لتحقيق الربانية الحضارية؛ وهي الحالة التي تختزل الفصل بين العمل الدنيوي والعبادة الروحية، فيصبح تعمير الأرض، وإدارة المؤسسات، وإصلاح المجتمع جزءاً أصيلاً من مسار التزكية، وبذلك يصبح الفرد قادراً على حمل أمانة الخلافة بمفهومها الشامل.

4. تنهض التزكية على ركنين متكاملين لا انفصال بينهما، هما: التخلية التي تُعنى بالتطهير من الذنوب والآفات والعلائق الدنيوية، والتحلية التي تُعنى بالنماء والارتقاء بالإيمان والأخلاق الفاضلة.

5. يكمن مقصد التزكية في تحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، وتأهيل الفرد لحمل مسؤولية الخلافة في الأرض، من خلال سلوك منهج التزكية.

6. أظهرت الدراسة أنّ القرضاوي يميل إلى استخدام مصطلح (الأخلاق) مرادفاً للتزكية، وذلك بهدف تقريب المفهوم الروحي من أذهان عامة الناس وربطه بالاستعمال العصري، لتكون العملية الروحية مرتبطة بالسلوك الظاهر.

7. تعد الوسطيّة المعيار الأساسي في التعامل مع التصوف، لموافقتها التصوف السنّي المعتدل والأخذ بالجانب الروحي الإحساني، ورفض الشطحات والبدع.

8. يُقدّم القرضاوي الفاعلية المجتمعية والعمل الدنيوي الهادف كبديل لمنهج العزلة المتبع عند الصوفيّة، مؤكداً أنّ العمل يتحول إلى عمل رباني يُحقّق التزكية عند توجيه النية الصادقة لله تعالى في كل عمل يقوم به الإنسان.

9. ارتبطت ملامح التجديد في التزكية بمقاصد الشريعة الكلية (كحفظ الدين، والنفس، والعقل)، ممّا أدى إلى تحقيق الوسطية بين الأصالة والمعاصرة، والتوازن بين مطالب الروح، والجسد، والعمل للدنيا، والآخرة، دون إفراط ولا تفريط.

10. فعّل القرضاوي مفهوم التزكية الجماعية في المؤسسات والمجتمع والدولة والأمة، وربطها بمواجهة التحديات المعاصرة، كالفساد المالي والإداري وفساد الإعلام، ممّا جعلها منهجا واقعياً للإصلاح الشامل.

11. من خلال تتبع تراث القرضاوي وجدناه يملك نظرية متكاملة حول تزكية النفس.

ثانياً: أهم التوصيات:

1. ضرورة تفعيل وتأسيس مؤسسات مجتمع مدني "مُزكّاة" قائمة على أسس التزكية، تعمل بشكل مستقل على مقاومة الفساد المؤسسي من خلال القدوة الحسنة والاهتمام بتطبيق مبدأ التزكية الجماعية لا الفردية.

2. ضرورة تعزيز حضور مفاهيم التزكية وربطها بالأخلاق السلوكية في المناهج التعليمية والمساجد والمؤسسات الدعوية، للجمع بين العبادة والإنتاج.

3. تشجيع الباحثين على استكمال دراسة مكونات مشروع القرضاوي في فقه السلوك وتطويره، وإجراء دراسات مقارنة بين رؤيته ورؤى أعلام الإصلاح التربوي قديمًا وحديثًا، لاختيار ما يلائم الواقع المعاصر والتحديات التزكوية.

المراجع العلمية

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد. **الزهد**. ط1. دمشق: دار ابن كثير، 1420 هـ – 1999م.

ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد، **محاسبة النفس**، تحقيق المستعصم بالله أبي هريرة مصطفى بن علي بن عوض، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1406 هـ – 1986 م.

ابن أبي الدنيا، أبو بكر، **الوجل والتوثق بالعمل**، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، نشر دار الوطن، الرياض، ط 1، 1418، 1997.

ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد (ت 281 هـ)، **الشكر**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، ط 1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (دمشق)، 1419 هـ – 1999 م، ص 10.

ابن أبي العز، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد (ت 792 هـ)، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، ط 10، مؤسسة الرسالة – بيروت، 1417 هـ – 1997 م.

ابن الجوزي، الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597هـ)، **صيد الخاطر**، بعناية: حسن المساحي سويدان، ط 1، دار القلم – دمشق، 1425هـ – 2004م.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت 597 هـ)، **صيد الخاطر**، بعناية: حسن المساحي سويدان، ط 1، (دمشق: دار القلم، 1425 هـ – 2004 م).

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ)، **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط 1، مؤسسة الرسالة – لبنان/ بيروت، 1404هـ – 1984م.

ابن الفراء، أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت 458هـ)، **التوكل**، حققه وعلق عليه: د. يوسف بن علي الطريف (الطبعة الأولى، الرياض: دار الميمان للنشر والتوزيع، 1435هـ – 2014م).

ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (659 – 751هـ). **مدارج السالكين في منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. [آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال(31)]. تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي وآخرون، تخريج: سراج منير محمد منير وآخرون. مراجعة: سليمان بن عبد الله العمير وآخرون. الطبعة الثانية. الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، 1441 هـ / 2019 م.

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، تخريج: زائد بن أحمد النشيري، مراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وعلي بن محمد العمران، ط 4، دار عطاءات العلم (الرياض)، دار ابن حزم (بيروت)، 1440 هـ– 2019م.

ابن المَلَك، محمَّدُ بنُ عزِّ الدِّينِ عبدِ اللطيف، **شرح مصابيح السنة للإمام البغوي**، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة بإشراف: نور الدين طالب، ط 1، (إدارة الثقافة الإسلامية، 1433 هـ– 2012 م).

ابن تيمية، احمد ابن تقي الدين (ت 728هـ)، **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلاميّة**، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة الاولى: 1426هـ.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (شيخ الإسلام)، **الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق** (يطبع كاملا لأول مرة)، ضمن :**آثار شيخ الإسلام ابن تيمية وما لحقها من أعمال** (15)، تحقيق: علي بن محمد العمران، ومراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وجديع بن محمد الجديع، ط 3 (الأولى لدار ابن حزم)، (الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ - 2019 م).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (شيخ الإسلام)، **تقريب فتاوى ورسائل شيخ الإسلام ابن تيمية**، عني به وحرره: أحمد بن ناصر الطيار، ط 1، (السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1441 هـ).

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **فصل في تزكية النفس**، اعتنى به فواز محمد العوضي، الطبعة الأولى، الكويت: مكتبة النهج الواضح، 1439 هـ - 2018 م.

ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم. **مجموع الفتاوى**. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1425 هـ - 2004 م.

ابن رجب الحنبلي، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد. **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**. تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. ط2. القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، 1424 هـ - 2004 م.

ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد (ت 795هـ)، **روائع التفسير** (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى، 1422هـ.

ابن رشد القرطبي، محمد بن أحمد (أبو الوليد)، **المقدمات الممهدات**، تحقيق: الدكتور محمد حجي، ط 1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1408 هـ - 1988 م).

ابن سعود الكبير، عبد العزيز بن محمد. **منهج الصحابة في دعوة المشركين من غير أهل الكتاب**. بيروت: دار الرسالة العالمية، ط **1**، 1442 هـ / 2021 م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد، **التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984 م).

ابن فارس، أحمد بن زكرياء، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751 هـ)، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، تحقيق: محمد حامد الفقي، الرياض: مكتبة المعارف.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ)، **الفوائد**، تحقيق: محمد عزير شمس، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم - دار ابن حزم، الطبعة الرابعة، 1440 هـ.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (ت 751هـ)، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم - دار ابن حزم، الطبعة الرابعة، 1440 هـ.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (أبي عبد الله)، **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، وتخريج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، ومراجعة: سعود بن عبد العزيز العريفي وعلي بن محمد العمران، ط 4 (الأولى لدار ابن حزم)، (الرياض، بيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ - 2019 م).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **الروح**، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الرياض/بيروت: دار عطاءات العلم – دار ابن حزم، الطبعة الثالثة، 1440 هـ.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت 751هـ)، **تفسير القرآن الكريم**، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان (بيروت: دار الهلال، ط1، 1410 هـ).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد (ت 751هـ)، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ - 1991م).

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه**، ضمن :آثار الإمام ابن قيم الجوزية وما لحقها من أعمال(5) . تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر. الطبعة الخامسة. الرياض وبيروت: دار عطاءات العلم ودار ابن حزم، 1440 هـ - 2019 م.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**. بيروت: دار المعرفة، 1398هـ/1978م.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**. تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي. ط3. بيروت: دار الكتاب العربي، 1416هـ/1996م.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر. **تفسير القرآن العظيم**. تحقيق: حكمت بن بشير بن ياسين ط1. السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، 1431هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ)، **لسان العرب**، حواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، ط 3، دار صادر – بيروت، 1414 هـ، ج 6، ص 240.

أبو طالب المكي، محمد بن علي (ت 386 هـ)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، ط 2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ – 2005 م).

أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (ت 430 هـ)، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، (مصر: مطبعة السعادة، 1394 هـ – 1974 م).

الأصبهاني، أبو القاسم إسماعيل بن محمد. **شرح صحيح البخاري**. تحقيق: عبد الرحيم بن محمد العزاوي. ط1. الكويت: دار أسفار، 1442 هـ – 2021 م.

انظر...محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياةhttps://youtu.be29/3/2009.

البغوي، الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي)**. تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش. ط4. الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، 1417هـ/1997م.

البيضاوي، عبد الله بن عمر بن محمد (ناصر الدين)، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط 1، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418 هـ).

الجرجاني، **الحسين بن الحسن. المنهاج في شعب الإيمان**. تحقيق: حلمي محمد فودة. تونس: دار الفكر، ط **1**، 1399 هـ / 1979 م.

الجرجاني، علي بن محمد بن علي الزين الشريف. **كتاب التعريفات**. ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولى، بيروت – لبنان: دار الكتب العلمية، 1403هـ / 1983م.

الحوالي، سفر بن عبد الرحمن، **دروس للشيخ سفر الحوالي**، (مُفرَّغ صوتي)، (الشبكة الإسلامية – إسلام ويب: د.ت.) http://www.islamweb.net تاريخ الاطلاع: 5/12/2025م.

الخازن، علي بن محمد (ت 741هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تصحيح: محمد علي شاهين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1415 هـ.

خطبة صوتية للشيخ يوسف القرضاوي بعنوان "مجاهدة النفس" منشورة على قناته الرسمية على يوتيوب، 19/09/2025م، https://www.youtube.com/watch?v=lBvo6WpPiNw.

خطبة للقرضاوي مسجلة بعنوان "الهجرة ومحاسبة النفس"، 19/09/2025م، https://www.youtube.com/watch?v=lNaBlVPysKk.

خطبة مسجلة بعنوان "**تزكية النفس**" على يوتيوب، 19/09/2025م، https://www.youtube.com/watch?v=iRJrbxbQgag.

خطبة مسجلة للقرضاوي بعنوان "وقفة محاسبة مع نهاية العام" https://www.youtube.com/watch?v=tofKyF7dWMw أُلقيت الخطبة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في 25ذو الحجة 1420هـ – 31 مارس 2000م.

خطبة مسجلة للقرضاوي بعنوان "**وقفة محاسبة مع نهاية العام**" https://www.youtube.com/watch?v=tofKyF7dWMw أُلقيت الخطبة في مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة في 25ذو الحجة 1420هـ – 31 مارس 2000م.

خطبته المسجلة بعنوان "وقفة مع النفس" على قناة القرضاوي الرسمية على يوتيوب، 19/09/2025م، https://www.youtube.com/watch?v=nQN8AEGidmU.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (أبو القاسم)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، (القاهرة: دار السلام، 1428 هـ – 2007 م).

رشيد رضا، محمد (ت 1354 هـ)، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990 م).

الزمخشري، محمود بن عمر. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**. ضبط وتصحيح: مصطفى حسين أحمد. ط3. القاهرة وبيروت: دار الريان للتراث ودار الكتاب العربي، 1407هـ/1987م.

زيدان، عبد الكريم، **أصول الدعوة** (الطبعة التاسعة، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1421هـ – 2001م).

السعدي، إسحاق بن عبد الله السعدي، **دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه** (الطبعة الأولى، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1434هـ – 2013م).

الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (ت 1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت، لبنان، 1415 هـ – 1995م.

الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **فتح القدير**، ط 1، (دمشق، بيروت: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، 1414 هـ).

الصابوني، محمد علي، **صفوة التفاسير**، ط 1، (القاهرة: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، 1417 هـ - 1997 م).

صبح، علي، **التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية** (القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث، د.ت).

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت 310هـ)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار التربية والتراث - مكة المكرمة، (د. ت.).

عبد القادر الحسين، **الفقه المقارن من حسن البنا إلى سيد سابق والقرضاوي وإفساد مناهج الفقه في الجامعات الإسلامية**-محاضرة على اليوتيوب، تاريخ الرجوع، 19/09/2025، https://www.youtube.com/watch?v=srMvjwkuOm8.

عدد من المختصين، **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم**، إشراف: الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد، ط 4، (جدة: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، د.ت.).

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **إحياء علوم الدين**. بيروت: دار المعرفة.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **المستصفى من علم الأصول**. تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية، 1413 هـ - 1993 م.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. **ميزان العمل**. تحقيق: سليمان دنيا. ط1. مصر: دار المعارف، 1964م.

الفنجرى، محمد شوقى (ت 1431هـ)، **الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول** (القاهرة: وزارة الأوقاف، د.ت/د.ط).

القرافي، أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (أبو العباس شهاب الدين)، **الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق**، (القاهرة: عالم الكتب، د.ط، د.ت.).

القرضاوي، أمراض النّفس، 2025/09/19م، https://youtu.be/-v8Yf3mzlyI?si=wGGSZpXIg4OmvC6h.

القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك، **الرسالة القشيرية**، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف، د.ت.)، ج 2، ص 359.

الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. **الأحكام السلطانية**. القاهرة: دار الحديث، (د.ت).

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة 29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn.

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة 29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn.

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn.

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة.https://youtu.be29/3/2009

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة. 29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

محاضرة القرضاوي حول النفس البشرية في برنامج الشريعة والحياة.29/3/2009 https://youtu.be/DqX-HQBAmXY?si=z6BaqoRR7YX_W8Jn

المراغي، أحمد بن مصطفى (ت 1371 هـ)، **تفسير المراغي**، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى 1365 هـ - 1946 م).

مسكويه، أحمد بن محمد (ت 421 هـ)، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، تحقيق وشرح: ابن الخطيب، ط 1، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية).

مقاتل، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت 150هـ)، **تفسير مقاتل بن سليمان**، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، ط 1، دار إحياء التراث - بيروت، 1423 هـ.

مقتبس من خطبة صوتية للقرضاوي بعنوان "وقفة محاسبة مع نهاية العام"، 19/09/2025م، https://www.youtube.com/watch?v=szg6EwVKQ-k.

المقدسي، عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد (بهاء الدين). **شرح المقنع** (تحقيق: نصْف بن عيسى بن نصْف العُصْفور. أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الشريعة - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1440 هـ - 2019 م. ط 1. الكويت: دار ركائز للنشر والتوزيع، 1441 هـ - 2020 م.

المكي، محمد بن علي بن عطية الحارثي (أبو طالب)، **قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد**، تحقيق: د. عاصم إبراهيم الكيالي، ط 2، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1426 هـ - 2005 م)، ج 2، ص 16.

المناوي، عبد الرؤوف بن علي بن زين العابدين، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: د عبد الحميد صالح حمدان، ط 1، (القاهرة: عالم الكتب، 1410 هـ - 1990 م).

الناصري، محمد المكي، **التيسير في أحاديث التفسير**، ط 1، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1405 هـ - 1985 م).

النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. ط2. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1392 هـ.

الهروي، علي بن سلطان (1014 هـ)، **شرح عين العلم وزين الحلم**، تحقيق ونشر: إدارة الطباعة المنيرية، مصر.

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد (ت 468 هـ)، **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس، (بيروت - لبنان: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1415 هـ - 1994 م).

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، **التفسير البسيط**، تحقيق: لجنة علمية من جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1430هـ.

وكيع بن الجراح، أبو سفيان. الزهد. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. ط1. المدينة المنورة: مكتبة الدار، 1404 هـ - 1984 م.

يحيى بن سلام، **تفسير يحيى بن سلام**، تحقيق: هند شلبي، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004).

An-Najah National University

Faculty of Graduate Studies

SELF-PURIFICATION ACCORDING TO YUSUF AL-QARADAWI IN THE LIGHT OF THE HOLY QUR'AN AND THE PROPHETIC SUNNAH

By

Sulaiman Ahmad Salem Abu Hani

Supervisor

Dr. Muhammad Raghib Al-Jaytan

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the Degree of Master of Fundamentals of Religion (Isul Al-deen), Faculty of Graduate Studies, An-Najah National University, Nablus - Palestine.

2026

SELF-PURIFICATION ACCORDING TO YUSUF AL-QARADAWI IN THE LIGHT OF THE HOLY QUR'AN AND THE PROPHETIC SUNNAH

By

Sulaiman Ahmad Salem Abu Hani

Supervisor

Dr. Muhammad Raghib Al-Jaytan

Abstract

This thesis aims to investigate the concept of self-purification (*tazkiyat al-nafs*) in the thought of Yusuf al-Qaradawi by elucidating the true nature of *tazkiyah*, its foundational principles, and defining characteristics. Furthermore, it explores the practical realization of *tazkiyah* within Muslim society at the individual, communal, and state levels, employing an inductive-analytical methodology.

The study is structured into three chapters. The first chapter introduces the key concepts of the research. The second chapter examines the foundations and characteristics of self-purification as articulated by al-Qaradawi. The third chapter explores the methods and domains of self-purification within his framework.

The primary findings of the study reveal that *tazkiyah* is not solely a spiritual dimension isolated from reality; rather, it constitutes a holistic development of the human being encompassing physical, spiritual, and intellectual aspects. Inward acts of worship, including excellence (*ihsan*), mindfulness (*muraqabah*), and self-accountability (*muhasabah*), function as fundamental pillars underpinning the purity of broader societal structures such as society, the state, the ummah, and the global community. *Tazkiyah* is actualized through balanced practical mechanisms aimed at establishing social justice, thereby fostering a morally upright society, empowering the ummah to assume its leadership role as the “moderate nation,” and laying the groundwork for global peace through the mission of stewardship (*istikhlaf*) on earth.

In conclusion, al-Qaradawi offers a balanced and comprehensive framework for self-purification that is grounded in the Qur’an and the Prophetic Sunnah, while also encompassing societal reform and aspirations for global leadership.

Keywords: self-purification (*tazkiyat al-nafs*), al-Qaradawi, societal reform, Islamic ethics, stewardship (*istikhlaf*), *wasatiyyah* (moderation)